

# الشرق الأوسط في مؤلفات الأمريكيين

## تأليف

رتشارد إتنجهاوزن

جورج سارتون

فيلكس بوشنسكي

كوينسي رايت

روجر سولتو

وليم دياموند

## ترجمة

د.محمد مصطفى زيادة

عمر فروخ

جعفر خياط

جمع وتحرير

مجيد خدوري

الكتاب: الشرق الأوسط في مؤلفات الأمريكيين

الكتاب: جورج سارتون، رتشارد إتنجهاوزن، كوينسي رايت، فيلكس بوشنسكي، وليم دياموند، روجر سولتو

ترجمة: محمد مصطفى زيادة، عمر فروخ، جعفر خياط

جمع وتحريير: مجيد خدوري

الطبعة: ٢٠٢١

الطبعة الأولى: صدرت عام ١٩٥٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مذكور- الهرم - الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ - ٣٥٨٦٧٥٧٦ - ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣



<http://www.bookapa.com> E-mail: [info@bookapa.com](mailto:info@bookapa.com)

**All rights reserved.** No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الشرق الأوسط في مؤلفات الأمريكيين / ترجمة: محمد مصطفى زيادة، عمر فروخ، جعفر

خياط جمع وتحريير: مجيد خدوري - الجيزة - وكالة الصحافة العربية.

٢٥٧ ص، ٢١\*١٨ سم.

الترقيم الدولي: ٥ - ٠٩٢ - ٩٩١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

أ - العنوان رقم الإيداع: ٢٣١٢٦ / ٢٠٢٠

# الشرق الأوسط في مؤلفات الأمريكيين



## تقديم

البحوث التي يراها القراء هنا - في ثوب عربي - مختارة من عدد من الكتب والمجلات الأمريكية الكبرى، ومؤلفوها ممتازون بالدقة والأمانة والعدالة العلمية، وهم مشكورون لسماحهم أن تقوم مؤسسة فرانكلين على اختصار بعض هذه الفصول وتعديلها، قبل تقديمها للنقل إلى العربية، رغبة في إخراجها واضحة للقارئ العربي.

والفصل الأول من هذه البحوث من تأليف الدكتور جورج سارتون، أستاذ تاريخ العلوم بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية. وأصل هذا الفصل محاضرة عامة ألقاها المؤلف في واشنطن تحت إشراف مكتبة الكونجرس ومؤسسة جورج كايزر، وهو من ترجمة الدكتور عمر فروخ، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق، وأستاذ بكلية المقاصد الإسلامية ببيروت بلبنان. والفصل الثاني دراسة في الفنون والآثار الإسلامية، ومؤلفه أخصائي مشهور هو الدكتور ريتشارد إتنجهاوزن، عقب محاضرة ألقاها في موضوع الفنون والآثار الإسلامية في مؤتمر ثقافي بجامعة برنستون سنة ١٩٤٧م، ثم نشره في الكتاب الشامل لبحوث هذا المؤتمر، وعنوان هذا الكتاب "المجتمع والثقافة في الشرق الأوسط". ونقل هذا الفصل إلى العربية الدكتور محمد مصطفى زيادة، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة، وذلك أثناء إقامته أستاذاً زائراً بجامعة فلوريدا ويوطاه بالولايات المتحدة الأمريكية. وبلي هذا فصل موضوعه مستقبل الشرق الأوسط، ومؤلفه

الدكتور كوينسي رايت أستاذ القانون الدولي بجامعة شيكاغو. وأصل هذا الفصل محاضرة أُلقيت في مؤتمر الشرق الأوسط في جامعة شيكاغو سنة ١٩٤٢، ثم نشره المؤلف في السنة التالية في كتاب البحوث الخاصة بذلك المؤتمر. على أن المؤلف رأى أن يضيف إلى بحثه بعض المتجددات قبل ترجمته، ثم قام على الترجمة الدكتور جعفر خياط، وهو مفتش العلوم الاجتماعية بوزارة المعارف العراقية.

والفصل الرابع من هذا الكتاب بحث دقيق في عدة مشروعات اقتصادية بالشرق الأوسط، على غرار مشروعات وادي التنسي بأمريكا، وهي المشروعات التي أدى نجاحها في الولايات المتحدة إلى تفكير المفكرين في شئون التعمير والإصلاح الزراعي، في غير أمريكا من البلاد. وهذا الفصل من تأليف اثنين من خبراء بنك التسليف الدولي في واشنطن، وهما الدكتور فيلكس بوشنسكي والدكتور وليم دياموند، والفصل نفسه مأخوذ من مجلة الشرق الأوسط في واشنطن (المجلد الرابع، ١٩٥٠). وقام على ترجمة هذا البحث كذلك الأستاذ جعفر خياط.

أما الفصل الخامس وهو الأخير، فمن تأليف الأستاذ روجر سولتو، وهو منشور في مجلة التاريخ الإنجليزية (العدد ٢٢٥، سنة ١٩٤٠م). ومؤلف هذا الفصل إنجليزي قضى عشر سنوات من حياته في التعليم بالجامعة الأمريكية في بيروت، وكانت وفاته سنة ١٩٥١، وهو مؤرخ معروف لدى خريجي هذه الجامعة، ومنهم الدكتور عمر فروخ صاحب الترجمة لهذا الفصل.

ونظراً لصعوبة الاتصال بالدكتور عمر فروخ والدكتور جعفر خياط من أجل بعض الأعمال التحضيرية قبيل إرسال أصول هذا الكتاب للمطبعة، ولضرورة القيام على إعداد محتويات الكتاب وتنسيقها كلها في صورة واحدة، قبل الدكتور محمد مصطفى زيادة أن يقوم على ذلك العمل أولاً في إخراج الكتاب في صورة نهائية جديرة بالقارئ العربي الجديد، بجميع بلاد العرب، واعتمد في عمله على ما أبداه مؤلفو هذه الفصول لمؤسسة فرانكلين أولاً من الترحيب بكل تعديل من شأنه أن يوضح محتويات هذا الكتاب للقارئ، وهو ما حرص المترجمون أنفسهم على الأخذ به. (أنظر ص ٤).

وعسى أن تكون هذه الفصول المختارة، بعد تطويع أسلوبها وتحريها، وترجمتها وتنسيقها، حافزة للقارئ العربي أن يستزيد من الإطلاع على بحوث ثقافية أخرى من مؤلفات الغربيين، لمعرفة صلات الثقافة الإسلامية في الشرق الأوسط بثقافات الأمم المعاصرة لها، في مختلف الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبلية، ولتقدير ما يستطيع تبادل المعرفة بين الأمم أن يصل إليه من الخير العام المشترك.

وإذ وضحت طريقة اختيار هذه الفصول وترجمتها إلى العربية للقارئ العربي الجديد، ينبغي أن أشير هنا إلى ما طرأ على الفكر الأمريكي من تطور في العصر الحاضر. ذلك أن العلاقات الثقافية بين أمريكا والشرق الأوسط اقتصرت - في زمن مضى - على نفر من علماء الآثار القديمة واللغات السامية، ونفر آخر من رجال المنظمات التبشيرية، فضلاً عن عدد من السائحين الذين لم يروا بلاد الشرق الأوسط إلا من نوافذ الفنادق الأوربية والسيارات الأمريكية، دون أي اهتمام كبير لمعرفة أحوال الشعوب في هذه البلاد. على أن هذا الإعراض الأمريكي القديم لم يكن مقصوراً على الشرق

الأوسط، بل تعداه وقتذاك إلى معظم بلاد العالم، بسبب سياسة العزلة التي أيدها الشعب الأمريكي نفسه، وهي سياسة أدت إلى عزلة ثقافية، فصلت بين الأمريكيين ومناخ ثقافتهم الأوروبية الأولى، كما فصلت بينهم وبين ثقافات الشعوب الشرقية القديمة والمتوسطة والحديثة، فضلاً عن حضارتها.

ثم تغيرت هذه الحال كلها عقب الحرب العالمية الأولى، فتبدلت العزلة الأمريكية إلى سياسة التعارف والتعاون، بين الأمم جميعاً. وازداد هذا التبادل بعد الحرب العالمية الثانية ازدياداً مطرداً جعل أمريكا - حكومة وشعباً - ترغب رغبة دائمة في التعرف على الشعوب الأوروبية وغير الأوروبية. وتظهر هذه الرغبة واضحة للمتصلين بمعاهد العلم الأمريكية في أنحاء العالم، وهي ليست وليدة الدوافع السياسية، أو الجشع الاقتصادي، بل ترجع إلى شعور أمريكي عام بأن الولايات المتحدة التي أصبحت ذات مركز دولي عظيم ينبغي لها أن تملأ هذا المركز الجديد الفريد، على أساس المعرفة والاحترام المتبادل والتعاون المشترك، وهو أساس الديمقراطية التي بذل الأمريكيون في سبيلها جهوداً داخلية عنيفة، منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، ثم أخذوا يبذلون في سبيلها جهوداً خارجية كبيرة منذ العشرينات من هذا القرن العشرين.

وربما كانت الجامعات والمعاهد الأمريكية أسبق الأوساط الأمريكية إلى هذا الشعور الذي غدا عاماً بين الأمريكيين، بدليل ما بكرت إليه هذه الجامعات والمعاهد من إعداد برامج خاصة لتدريس اللغات الأجنبية، والثقافات الشرقية، وتشجيع البحوث الواسعة في أحوال الشعوب المختلفة. ومع حداثة الأمريكيين بدراسة بلاد الشرق الأوسط، لم تلبث البرامج الخاصة بهذه البلاد أن امتدت إلى مختلف النواحي الثقافية العمرانية، وبرهان ذلك أن جامعات هارفارد وبرنستون ومتشيجن وبنسلفانيا - وهي التي

عنيت سابقاً بدراسة اللغات السامية أو الآثار القديمة - أعدت حديثاً دروساً وبحوثاً تعني باللغات الشرقية الحديثة، وأحوال الشرق الأوسط السياسية والاقتصادية في العصر الحاضر. وفي مدرسة الدراسات الدولية العالية في جامعة جونز هيكنز، وهي التي ينتمي إليها كاتب هذه السطور، منهج واسع يتناول دراسة الشرق الأوسط الحديث منذ بداية القرن التاسع عشر، بالإضافة إلى دراسة الشريعة الإسلامية وحاضر العالم الإسلامي. ويتصل بهذه الدراسة معهد الشرق الأوسط لنشر البحوث والدراسات الشرقية الحديثة بين الأمريكيين، في مجلته التي بدأها منذ سنة ١٩٤٧، وعنوانها "مجلة الشرق الأوسط"، وهذه عدا المؤلفات العلمية التي أخذ المعهد في الإشراف على طبعتها. ولا بد من الإشارة هنا كذلك إلى جهود "المجلس الأمريكي للجمعيات العلمية"، إذ يقوم هذا المجلس على ترجمة مجموعة من الكتب العربية القديمة والحديثة إلى اللغة الإنجليزية، ويعد العدة لنشرها في المستقبل القريب.

وانبرت بعض المؤسسات الأمريكية لتمد هذه الجامعات والمعاهد بالإعانات المالية السخية، تشجيعاً للبحوث العلمية في الشرق الأوسط وغيره من البلاد. ومن هذه مؤسسة روكفلر وفورد وهوتني وكارنجي وغيرها، بل منحت هذه المؤسسات هبات مالية إلى أعداد من الأساتذة الأخصائيين والطلاب الأمريكيين، لتسهيل لهم سبيل التفرغ إلى دراسة شئون الشرق والعناية بالبحوث الشرقية. ثم ما لبث أن لقيت بحوث هؤلاء الأخصائيين تشجيعاً من دور الطباعة والنشر الأمريكية، فنشرت بحوثهم راضية، وصدر في أمريكا من هذه البحوث منذ نهاية الحرب العالمية الثانية مجموعة من المؤلفات التي تجد بضعة طيبة من أسمائها في ملحق هذا الكتاب.

مجيد خدوري

# حضانة الشرق الأوسط للثقافة الغربية

تأليف

جورج سارتون

ترجمة

عمر فروخ

## كلمة المترجم

هذه محاضرة للمستشرق الدكتور جورج سارتون، أحد أساتذة جامعة هارفارد (في الولايات المتحدة) ومؤلف كتاب "مقدمة إلى تاريخ العلم". ألقى سارتون هذه المحاضرة بناء على دعوة من مكتبة الكونجرس الأمريكي ومؤسسة جورج ك. كايزر، في التاسع والعشرين من مارس عام ١٩٥٠، في منتدى كوليدج في مكتبة الكونجرس.

وقمت على نقل هذه المحاضرة إلى اللغة العربية حياً لما فيها من معارف جليلة ومن ملحوظات صحيحة. والدكتور سارتون جد منصف للعرب والمسلمين، ولكن له أيضاً ملحوظات لا تسرنا كثيراً. على أن هذه الملحوظات، إذا كانت تحتمل مأخذاً فإنني سأعلق عليها بالشرح والإشارة؛ وأما إذا لم يكن فيها مأخذ فيجب أن نجعل منها عبرة لأنفسنا.

أنا أشعر مع صاحب المحاضرة - وأعتقد كما يعتقد كل واحد منا - أن الإسلام من أصح النظم الدينية والاجتماعية وأجملها، وهو عندنا أصح تلك النظم وأجملها على الإطلاق. ولكن المسلمين اليوم كثيرو البعد عن حقيقة ما جاء به الإسلام. إن الإسلام يدعو إلى العلم والقوة والنظافة، ولكن المسلمين ليسوا في هذه الأمور خيراً من غيرهم، ولا مثل غيرهم أحياناً. وهذا ما شعر به المصلحون المسلمون، فقال الشيخ محمد عبده: "الإسلام محبوب بالمسلمين"، أي أننا إذا نظرنا إلى مبادئ الإسلام من خلال أعمال المسلمين لم نر تلك المبادئ جلية واضحة وجميلة سامية، كما هي حقيقة. وصاحب

المحاضرة يعرج على هذه الملحوظة مراراً في أثناء كلامه.

إنني هنا أرجو من بني قومي أن يولوا هذه الملحوظة حسن عنايتهم، وأن يعلموا أن لا أمل لهم بالتهوض إلا إذا رجعوا إلى حقيقة دينهم جاء في القرآن الكريم: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟" والعلم اليوم على أقله بين المسلمين. وجاء في القرآن الكريم أيضاً: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم"، فلما ثارت الحرب بالأمس في فلسطين كنا أقل استعداداً مادياً وروحياً من خصومنا بمراحل. وكذلك جاء في الحديث الشريف: "النظافة من الإيمان"، ثم أقر الإسلام الطهارة والغسل والوضوء. ولكن المسلمين، في مجموعهم، لا يستطيعون اليوم أن يفتخروا بأنهم أنظف شعوب الأرض، كما أراد منهم دينهم أن يكونوا.

إن المسلمين - في مجموعهم - بعيدون اليوم عن حقيقة دينهم. فلا عجب إذا رأيناهم بعيدين عن حقيقة الحياة نفسها. وصاحب المحاضرة نفسه يعتقد أن شعوب الشرق الأوسط - وهم المسلمون في الأكثر - يمكن أن يعودوا إلى عظمتهم الماضية، وإلى زعامة العالم السياسية والعلمية، كما كانوا من قبل. ولكن هذا لن يكون إلا إذا عادوا أولاً إلى فهم حقيقة الحياة في الإسلام والعلوم التي حث الإسلام على الأخذ بها، بهذه الروح الصحيحة يجب أن نقرأ هذه المحاضرة القيمة.

وهنا موضع ملحوظة على أسلوب هذا الكتاب، وهي أنني تصرفت تصرفاً يسيراً في مواضع معدودة عند نقل هذه المحاضرة إلى اللغة العربية. فاستغنيت عن بضع جمل لأنها تدور مثلاً حول "الخطة" التي اتبعتها المؤلف في كتابة

الكلمات العربية بالأحرف اللاتينية، كما في المقدمة، أو ما هو قريب من ذلك، مما لا يحتاج إليه القارئ العربي. وهناك أيضاً كلمات أضفتها لتكون العبارة أجري على الأسلوب العربي، من غير أن يتأثر المعنى فيها كثيراً أو قليلاً. وكذلك لما وصلت إلى المقاطع التي تعالج حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضوع القرآن الكريم جريت فيها على الآداب الإسلامية، فكسوت تلك المقاطع تقوى يستشعرها المسلم، وهي مما لا يجد الكاتب الغربي نفسه مضطراً إلى التقيد بها. ثم إن الكتاب في الأصل يضم حواشي "تفسيرية" كثيرة، وهذه تمنع القراءة السائرة، ومن أجل ذلك عمدت إلى إدخال هذه الحواشي في المتن. ورجعت في ذلك كله إلى رأي الدكتور سارتون، فلم يجد ضرراً على ما فعلته. ولكنني أبقيت حواشي التعليق وحواشي المصادر والمراجع على حالها.

وبما أن قارئ هذا الكتاب في حلته العربية سوف يقف متسائلاً أمام عدد من الآراء والتعبير والألفاظ أحببت أن أضع لهذه كلها حواشي للتفسير (إذا كانت غير مألوفة في البيئة العربية العامة)، أو للتعليق (إذا كانت تلك الآراء والتعبير والألفاظ على غير المنهج المأنوس عندنا في بحوث الإسلام خاصة). وحرصت على أن أختتم كل حاشية من وضعي أنا بالحرفين الأولين من اسمي (ع.ف)، تمييزاً لها من الحواشي التي هي للمؤلف.

وبعد، فإن عليّ تبعه كل ما في هذا النص العربي، مع العلم بأن الدكتور سارتون قرأه وأجازه. وعسى أن تكون سقطاتي قليلة في نقل هذه المحاضرة القيمة، وأن أكون أدت بنقلها إلى اللغة العربية خدمة ثقافية توجيهية لقومي ولأمتي.

عمر فروخ

المعلومات المتضمنة في هذه المحاضرة وفي حواشيتها تزداد قيمة بالرجوع إلى كتاب عنوانه "مقدمة إلى تاريخ العلم"<sup>(١)</sup> للمؤلف، وهو ثلاثة أجزاء كبيرة في خمس مجلدات، نشرتها مؤسسة كارنيجي في واشنطن بين عام ١٩٢٧ و عام ١٩٤٨ م. وستكون الإشارة إلى هذا المرجع هكذا: (Introd.)<sup>(٢)</sup>. وكذلك يحسن الرجوع إلى مراجعات وتقارير صدرت في مجلة إيزيس، وهي مجلة مخصوصة بتاريخ العلم، صدر منها إلى الآن ثلاثة وأربعون مجلداً (١٩١٣ - ١٩٥٢) في بلجيكا والولايات المتحدة. وهناك أيضاً مقتطفات قليلة أضيفت إلى هذه المحاضرة، لم يشر إليها بعبارات الاقتباس المعروفة. وهي مأخوذة من رسالة للمؤلف عنوانها "آثار العرب العلمية"<sup>(٣)</sup> في الكتاب الذي صدر إحياءً لذكرى المستشرق المجري الكبير أغناطيوس جولدتزيهر<sup>(٤)</sup>.

أضفت إلى هذه المحاضرة فيما بعد عدداً من الحواشي ومن أسماء المراجع، لا ليتمكن القارئ من التثبت من الأحكام الواردة في هذه المحاضرة

---

(١) راجع "آثار المؤلف" في ترجمته (ع.ف).

(٢) سوف أترك أسماء المصادر والمراجع الأجنبية بلغتها الأصلية، إذ لا فائدة عملية من نقلها إلى اللغة العربية. وما دامت الغاية من ذكر عناوين الكتب أن يرجع القارئ إليها، فالذي يعرف اللغات الأجنبية لا يحتاج إلى هذا النقل، والذي يجهل اللغات الأجنبية لا يستفيد منه. أما إذا كان اسم الكتاب دال بنفسه على قيمة علمية خاصة فيأني أنقله حينئذ إلى اللغة العربية (ع.ف).

(٣) اسم هذه الرسالة. Arabic Scientific Literature.

(٤) Ignaz Goldziher Memorial Volume, part I, pp 55 - 72, Budapest, 1948.

فحسب، بل لتساعده تلك الحواشي والمراجع على متابعة البحث أيضاً.

إني أقدر هذا الشرف الذي أولتني إياه مؤسسة جورج ك. كايزر حينما جعلتني محاضرها الأول، كما أعد من التقدير الكبير لي أن أدعى إلى الكلام في هذا المنتدى الشائق الذي نحن مدينون به إلى كرم السيدة أليزابث سيراج كوليدج<sup>(٥)</sup>. أن السيدة كوليدج بنت هذا المنتدى للموسيقين وأحباب الموسيقى، وأنا أرجو ألا تكون محاضرتي غير جديرة به. أنني لست موسيقياً مبدعاً، ولكنني وقفت حياتي منذ سنين طوال على التوفيق بين الخلافات الناشئة بين العلوم وبين الآداب، وعلى معرفة العلة في سوء التفاهم بين الشرق والغرب. وليس على الأرض ولا في السماء موسيقى أجمل من التوفيق بين القلوب المتألفة أو المتحابه.

إنكم تعلمون، على الأرجح، أن المؤرخين القدماء كانوا يحيون أن يبدؤوا صحف تاريخهم منذ البدء الأول، بقصة آدم وحواء. ونحن يجب أن نفعل مثلهم، ذلك لأن "شجرة معرفة الخير والشر"<sup>(٦)</sup> كانت في وسط جنات عدن. ومع أن ثمة خلافات كثيرة (كانت وستبقى) بين الدارسين على الموقع الصحيح للجنة، فإننا لا نخطئ أبداً إذا قلنا أن تلك الجنة كانت في مكان ما من "الشرق الأوسط".

دعونا نقف لحظة في ظل هذه الشجرة. إن وقوفنا هذا سيحمل إلى أذهاننا شيئاً من الحكمة القديمة - أن جنات عدن، أو الفردوس، كانت دار

---

Mrs: Elizabeth Sprague Coolidge (٥)

(٦) التوراة، سفر التكوين ٢ : ٩ .

الخلد التي أضعها آدم وحواء، وأهبطهما الله منها إلى الأرض<sup>(٧)</sup>. ونحن نجد أن أكثر الشعوب القديمة متفقة على أنه كان في غابر الأزمان عصر ذهبي أخذ البشر يتقهقر بعده شيئاً فشيئاً. ومن ذلك مثلاً ما ورد عند الشاعر اليوناني القديم هسيود أنه كان ثمة عصر للذهب، ذلك العصر الذي كان عصر سلم وكمال. ثم تبع هذا العصر عصر الفضة، ثم عصر الشبه (النحاس الأصفر)، ثم عصر الحديد<sup>(٨)</sup>. وإذا نحن تابعنا هسيود في خيالاته أمكن أن نقول أننا اليوم في عصر المعاجين<sup>(٩)</sup>، أو عصر البترول وبعد، أفيكون هذا كله نهاية أم بداية لعصر جديد؟ والغريب أن رجلاً ذا عبقرية مثل سيمون ستيفن (١٥٤٨ - ١٦٢٠م) الفلمنكي<sup>(١٠)</sup>، وهو العالم في الرياضيات والطبيعات، كان يؤمن بعصر خرافي للعلوم والحكمة في غابر الأزمان، وكان يعتقد كذلك أن هذا المجد الذي غير مع الزمن يمكن أن يعود بوسائل متعددة، منها مثلاً تعلم اللغة الهولندية<sup>(١١)</sup>.

### أيتقدم العالم أم يتأخر؟

وبعبارة أخرى لم يكن العلماء يؤمنون بأن العالم سائر إلى التقدم، بل إنه في ارتداد إلى حاله الأولي، بعد تقدمه الأول. فبعد العصر الذهبي الذي كان

(٧) القرآن الكريم، سورة البقرة (٢ : ٣٦، ٣٨)، سورة الأعراف (٧ : ١٩ - ٢٥)، سورة طه (٢٠ : ١١٧ - ١٢٣ - ١٢٣) - (ع.ف).

(٨) Hesiod: His works and days (Lines 109 - 201)

(٩) أي Plastics وهي مادة لدنة طيبة تصنع اليوم منها أدوات كثيرة.

(١٠) Simon Stevin، والفلمنك مقاطعة من هولندا.

(١١) دعا ستيفن هذا العصر "العصر الباحث"، وهذا غريب منه. راجع Sarton:Simon Stevin of Bruges (Isis 21: 241 - 303 , 1934, p. 259).

في غابر الزمن في مكان ما من الشرق الأوسط، لم تفتأ البشرية تتقهقر في رأيهم من سيء إلى أسوأ منه. ولم يشذ عن هذا الإجماع سوى شخص واحد كان متفائلاً إلى حد ما، وكان يؤمن بالمستقبل .. ذلك هو الفيلسوف الروماني العظيم سنيكا<sup>(١٢)</sup> المولود في قرطبة، وهو الذي عبر عن حقيقة التقدم في ميدان المعرفة تعبيراً واضحاً. ذكر سنيكا هذا الإيمان بالتقدم مرتين على الأقل: مرة في رسالة إلى لوسيلليوس، ومرة أخرى في "المسائل الطبيعية"<sup>(١٣)</sup>. وكذلك كنا رأينا بعض هذا الإيمان بالتقدم من قبل عند ثوسيديدس<sup>(١٤)</sup> الذي شهد القرن الخامس قبل الميلاد - في مطلع كتابه "في التاريخ"، ولكن بوضوح أقل. وهذا الإيمان بالتقدم العلمي الذي جاش في صدر سنيكا كان الأساس الذي قامت عليه فكرة برنارد المنسوب إلى شارتر بفرنسا - والذي شهد النصف الأول من القرن الثاني عشر - حينما قال: "إننا نظهر بالنسبة إلى الأقدمين وكأننا أقزام متربعون على أكتاف الجبابرة"، مما أصبح مثلاً سائراً على الألسن<sup>(١٥)</sup>. ويمكننا أن ندرك ذلك في ميدان المعرفة إدراكاً واضحاً، لأن الجهود العلمية هي الجهود الإنسانية الوحيدة التي يمكن أن تتراكم وأن تقبل التقدم. فمن أجل ذلك يجب أن نبي تاريخ الإنسانية على تاريخ العلم.

---

(١٢) Seneca، شهد النصف الثاني من القرن الأول، الرسالة الرابعة والسنون إلى لوسيلليوس

Lucillius وهي واردة في Intro. 2 : 484

Natural Questions 7 : 25 (١٣)

Thucydides (١٤)

(١٥) أنظر شواهد كثيرة على ذلك في Intro. 3. 870

على أن فكرة الرقي اتسعت في العصور الحديثة حتى امتدت شيئاً فشيئاً إلى ما وراء الميدان العلمي، فتناولت حياة الإنسان كلها ثم بلغت أقصى اتساعها<sup>(١٦)</sup> في العصر الفيكتوري<sup>(١٧)</sup>. ولقد ساد العالم في ذلك الحين اعتقاد بأن العالم ينتقل من حسن إلى أحسن، مع العلم بأن البشرية كانت يومذاك مبتلاة بأنواع دائمة من الشقاء، كالمرض والفقر وارتكاب الخطايا، أو ويلات عارضة كالطوفان والمجاعات والحروب. ولكن لم يشك أحد في أن هذه الأنواع من الشقاء ستتكرر حداثتها مع الزمن، وأنها هي ستكون أقل حدوثاً في هذا العالم، كما أن الولايات العظمى يمكن التغلب عليها في النهاية. غير أن اطمئناننا لم يضطرب إلا نادراً، إذ اتفق أن تمتعت الطبقة العليا والطبقة الوسطى في إنجلترا وأمريكا برخاء عظيم، حتى أن القليلين فقط كانت لهم جرأة على الاحتجاج على تكاليف الحياة. على أن أعظم الاحتجاجات على هذا التفاؤل الشامل عند الناس صدر عن الكاتب الإنجليزي إدوارد كاربنتر (١٨٤٤ - ١٩٢٩) في كتابه الذي تحدى بعنوانه جميع الناس: "المدنية، أسبابها وعلاجها"<sup>(١٨)</sup>.

ولقد جاء التعبير عن مثل هذه الآراء بشدة وبشيء من التهكم المر في آثار المرحوم أناندا كوماراسوامي، في مجموع مقالاته المسمى: "أحارس أنا

---

(١٦) في الأصل Climax، أي ذروتها.

(١٧) عصر فيكتوريا، ملكة إنجلترا (١٨٣٧ - ١٩٠١)، وقد عظمت إنجلترا في أثنائه سياسياً واقتصادياً وأدبياً (ع.ف).

(١٨) Edward Carpenter: Civilization, Its Cause and Its Cure (1889)، إشارة إلى أن المدنية مرض.

لأخي؟"<sup>(١٩)</sup>. كان صديقي كوماراسومي مبالغاً وغير متسامح، ومع ذلك فإن آراءه تستحق أن تكون موضع تأمل، ولا سيما أنها مملوءة بالشواهد وبأسماء المراجع.

ومن الغرابة بمكان أن المصلحين الذين نعوا دائماً على المجتمع كثرة الشقاء والظلم فيه، كانوا مع ذلك متحمسين لمظاهر الرقي كالأخرين، إذ كانوا يعتقدون أن العالم - مع ما فيه من الشر - في تحسن مستمر يوماً بعد يوم. أما رجال العلم أنفسهم، فكانوا أكثر تفاؤلاً مما تدعو إليه الحكمة.

غير أن هذا الاطمئنان العلمي قد تزعزع على أثر الاكتشافات التي قلبت حياة العالم رأساً على عقب، أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي، حتى أن نخبة من رجال العلم عادوا أقل ثقة مما كانوا من قبل وأكثر تواضعاً<sup>(٢٠)</sup>. أن هذا التفاؤل الأناني الذي يقول به أصحاب الأعمال الناجحة زعزعته الحرب العالمية الأولى، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فقضت عليه. وهكذا رجعنا كلنا حينئذ إلى وجهة نظر قريبة من المعقول.

وهنالك شيء من التقدم، لا أقول في ميدان العلم فقط، حيث يكون التقدم عادة ظاهراً، بل في غيره من الميادين أيضاً، ولكن يجب علينا، على كل حال، ألا نوغل في التفاؤل، إذ أن كل تقدم اجتماعي مهدد أبداً بالتوقف

---

Ananda k. Coomaraswamy (1877 - 1947): (Am I my Brother's <sup>(١٩)</sup>

Keeper?), (New York 1947), وعنوان هذا الكتاب مأخوذ من التوراة: سفر التكوين ٤ : ٩ .

<sup>(٢٠)</sup> راجع للتمثيل على ما نحن بسبيله مجموعة الأحكام المتواضعة التي فاه بها اثنان أحدثا أثراً

عميقاً في العلم الحديث، وهما ماكس بلانق وألبرت أينشتاين: 66 : 40 Isis Max Planck

(69) - and Albert Elinstein. Introd. 3 : v

أو بالتلاشي، نتيجة ما يحتمل أن يصيب العالم من الكوارث. والتقدم - على المدى الطويل - يصبح حقيقياً أكيداً، ولكن حياتنا نحن قصيرة جداً، ولعل الحظ لا يرافقتنا أيضاً في مدى الحياة القصيرة. أن المدنية ليست مرضاً، ولكنها توازن دقيق جداً يمكن أن يختل بطرق مختلفة. وكلما تعقد التمدين أضحي أكثر دقة، وبالتالي أضحي توازنه أقرب إلى الاختلال. وكذلك كلما غدا التمدين أرقى كانت الخشية من سقوطه أعظم، ولندكر في هذه المناسبة ألمانيا واليابان!

### التقدم في ميدان العلم

ونحن على كل حال إذا أردنا أن نفهم تاريخ الإنسانية، أي أن نجعل منه موضوعاً مفهوماً، يجب علينا أن نولي انتباهنا للعناصر التقدمية فيه. أي لتطور العلوم. ذلك أن تاريخ العلم (أو تاريخ المعرفة) يجب أن يكون النواة لكل تاريخ للحوادث الإنسانية. لأن البشر يختلفون عن الحيوان في الرغبة الملحة إلى الخير والجمال، والحقيقة والإنصاف. فإذا لم يتصف الإنسان بوحدة من هذه القيم الروحانية يصبح حينئذ وحشاً، بل أشد الوحوش قدرة وقسوة معاً. ولذلك كان أهم أقسام التاريخ تاريخ الدين، وتاريخ الفن، وتاريخ العلم. على أن التقدم لا يكون أبداً ملموساً أكيداً إلا في القسم الأخير من هذه الأقسام. من أجل ذلك وجب أن يحتل تاريخ العلم المركز الأوسط في صورة المدنية، لأن الإجماع واقع على أن تاريخ العلم بدأ - على التحقيق - في المكان الذي تواضعنا على أن نسميه الشرق الأوسط، مع أنه من المستحيل علينا أن نجزم في أي قسمي هذا المكان بدأ. أفي القسم الغربي منه، في مصر؛ أم في القسم الموغل نحو الشرق، في ما بين النهرين؟ ومن الممكن أيضاً أن يكون العلم

تطور أولاً في مناطق أخرى، أي إيران أو الهند أو الصين، أو في الهند الصينية؟ ولكن معرفتنا بالتطورات الأولى للعلم في هذه المناطق غامضة وغير أكيدة. ثم إن هذه التطورات البعيدة لم تؤثر في مدينتنا الغربية مباشرة، كما أثرت فيها التطورات التي جرت في بلاد الشرق الأوسط.

الواقع أن ديننا لمصر وما بين النهرين عظيم، وعظيم جداً، حتى إن موجزاً قصيراً لشرح بعض ما بلغه هذان الموهوبان في العلم تضيق عنه هذه المحاضرة. ولكن دعوني أذكركم بحقيقة واحدة هي أن هذين البلدين كليهما اكتشفا وسائل الكتابة، ومن المرجح أن هذه الفكرة المدهشة كانت ابتكاراً في البلدين، غير أن الأسلوبين اختلفا على كل حال.

اخترع المصريون للغتهم التعبير بالصور (الكتابة الهيروغليفية)؛ ثم اكتشفوا أحسن وسائل الكتابة في العصور القديمة، وهو نبات البردي الذي استطاع الكاتبون أن يبرزوا على صفحاته المصقولة فنهج في أروع أشكاله. أما السومريون<sup>(٢١)</sup> فلم يكن لهم بد من أن يقنعوا بالكتابة على الطين؛ وهذا هو الذي قرر أشكال خطوطهم المسمارية<sup>(٢٢)</sup>. ومع ذلك أتقن السومريون كتابتهم تلك حتى أصبحت اللغة البابلية - قبيل انتهاء القرن الخامس عشر قبل الميلاد - لغة السياسة الدولية، وأصبح الخط المسماري خط المراسلات فيها، واستعمل هذا الخط لكتابة لغات كثيرة من لغات آسيا الغربية. على أن

---

(٢١) السومريون شعب غير سامي سكن ما بين النهرين، واكتسب كثيراً من خصائص الساميين فيما بعد. (ع.ف).

(٢٢) الخط المسماري خط تصويري تشبه علاماته الشكل الجانبي للمسمار. وقد يسمى أيضاً الخط الأسفيني، لأن علاماته تشبه أيضاً الشكل الجانبي للأسفين.

استعمال البردي في مصر أدى إلى اختراع المجلدات أو الكتب، بينما كان لألواح الطين في ما بين النهرين ميزة خاصة، هي أنها لم تكن قابلة للتلف. وهكذا ظلت ألواح الطين متفرقة لا يجمع بينها جامع، بخلاف صفحات البردي التي كان يسهل ضمها وجعلها كتاباً مجلدة. هذا مع العلم بأن قطعاً من البردي ومجلدات تامة منه قد حفظت إلى يومنا هذا، بفضل جفاف الجو في مصر، بينما لم يكن بالإمكان حفظها لو أنها كانت في ما بين النهرين. أما ألواح الطين فيمكن أن تظل محفوظة سليمة في كل مكان، ما لم يعتمد أحد إتلافها<sup>(٢٣)</sup>، وهكذا نجد أنه لم يكن عند البابليين كتب كما كان عند المصريين، ولكن البابليين عوضوا عن هذا النقص بخلق دوائر لحفظ الوثائق منسقة، ويخلق مكاتب منذ عهد متقدم.

ومعظم الناس يعرفون من عبقرية المصريين أكثر مما يعرفون من عبقرية البابليين، وما ذلك إلا للعجائب الباقية في الآثار المصرية من الأهرام والمسلات والهياكل العظيمة، على حين أبنية الطابون<sup>(٢٤)</sup> في ما بين النهرين قد درست بعوادي الزمن، أو خربت خراباً عجزت عنه يد الإصلاح. ولا ريب أيضاً في أن مما ساعد على شهرة العبقرية المصرية وجود مسلات كثيرات تقوم في عواصم أوربا، وفي نيويورك أيضاً، وهي شواهد وإعلان عن تلك العبقرية<sup>(٢٥)</sup>. ونحن على كل حال مدينون للأمتين كليهما بنشوء الفن والأدب

---

(٢٣) تجدد وصفاً شائناً لذلك في كتاب إدوارد كيارا: "لقد كتبوا على الطين": Edward

Chiera (1885 - 1933): They Wrote on Clay (Chicago 1938).

(٢٤) الطابوق هو الآجر (طين مشوي يبنى به في العراق).

(٢٥) وسع سارتون هذه الفكرة في مقال له عنوانه: أجربيا، فونتانا وبيجافنا. نصب مسلة الفاتيكان

سنة ١٨٥٦ م.

والرياضيات والفلك والكيمياء وبصناعات أخرى، وأنا نحن الغربيين مدينون لهم بكتابنا المقدس نفسه وبديننا وقواعد أخلاقنا ديناً كبيراً.

### أين كان عهد المدنية

إن الحقيقة القائلة بأن مهد المدنية الغربية كان على ضفاف النيل والفرات ودجلة لم تكن تفهم حق الفهم قبل عصرنا الحاضر، أما الآن فإنها أصبحت واضحة أجلى الوضوح، بل نحن اليوم نستطيع أن نجزم بلا تردد بأن العلوم الغربية ولدت في تلك البلاد المحظوظة.

والواقع لم يمض وقت طويل على الزمن الذي كان الدارسون يرون فيه أن جذور المدنية الغربية كانت في اليونان، فيما يتعلق بالعلم، وفي فلسطين فيما يتعلق بالدين. ثم لم يكلف الدارسون أنفسهم أن يذهبوا إلى ما وراء ذلك. ولكننا نحن اليوم نعلم أن اليونان واليهود أنفسهم مدينون بذلك كله للمصريين والبابليين، وربما لغيرهم أيضاً من الأمم التي تقدمتهم. خذ مثلاً، في باب المعلومات العامة المتعلقة بالعلوم السابقة على عصر اليونان، ما يلي من الكتب والبحوث:

— الرياضيات قبل اليونان.

— نصوص مسمارية في الرياضيات (ثلاثة أجزاء)، بالألمانية.

— نصوص مسمارية في الرياضيات، بالإنجليزية.

---

Agrippa, Fontana and Pigafetta. The Erection of the Vatican Obelisk in 1856. (Archives Internationales d'Histoire des Sciences No. 8, 1949, pp. 827. 54, 14 figs.)

- نصوص بابلية في الرياضيات.
- أوراق البردي التي اكتشفها رند.
- الطب في آشور وبابل.
- أوراق البردي في الجراحة، وهي التي اكتشفها أدوين سميث.
- أوراق البردي التي اكتشفها أيبرس<sup>(٢٦)</sup>.

هذا عدد من العناوين البارزة، وهناك عدد آخر منها يمكن الاستشهاد به في هذا المقام. على أن هذه المراجع قد ذكرت هنا لتتبع القارئ بأن الحكم المتعلق بما نحن بسبيله من قدم العلوم الشرقية، وأنها سابقة على عصر اليونان، قائم على معرفتنا الواسعة بذلك. أن معرفتنا بالعلوم السابقة على عصر اليونان كبيرة بلا ريب، ولكن معرفتنا بانتقال هذه العلوم إلى اليونان جزئية لسوء الحظ وناقصة أيضاً.

أن العلم اليوناني لم يكن بدءاً لحركة علمية، ولكنه كان ذروة لجهود

---

<sup>(26)</sup> Otto Neugebauer *Vorgeschichte Mathematik* (Berlin). 1934; *Isis* 24: 151 - 53; *Mathematixche Keilschrifttexte* (3 Vols, Berlin 1935 - 37; *Isis* 26: 63 - 81; 28: 490 - 91); *Mathematical Cuniform. Texts* (New Haven, 1943; *Isis* 37: 96 - 97, 231).  
 Francois Thureau-Dangin: *Textes Mathematiques Baby-loniens*. (Leiden 1938, *Isis* 31: 394 - 425).  
 Arnold Buffum Chace: *The Rhind Mathematical Papyrus*. (Oberlin 1927 - 29, *Isis* 14: 251 - 55).  
 Georges Contenau: *La Medecine en Assyrie et en Babylonie*. (Paris 1938, *Isis* 31: 99 - 101).  
 James Henry Breasted: *The Edwin Smith Surgical Papyrus*. (Chicago 1930, *Isis* 15: 355 - 67).  
 B. Ebbell: *The papyrus Ebers*. (Copenhagen 1937, *Isis* 28: 126 - 31).

علمية ترجع إلى ما قبل ألفي عام قبل ذلك. وأن لدينا رسائل مصرية في الرياضيات والطب تعود إلى القرن السابع عشر ق.م، ولكنها مستقاة من كتابات أسبق عليها ببضعة قرون آخر. وقد تعود أطباءنا، إذا ذكروا أبو قراط<sup>(٢٧)</sup>، أن يسموه "أبا الطب"، ولكن قد يكون من الخير لهم أن يذكروا أن أبو قراط ليس رأس الطب، ولكنه يقف في منتصف تاريخ الطب بين أمحوتب<sup>(٢٨)</sup> وبيننا. وكان أمحوتب هذا وزير فرعون زوسر وطبيبه، وقد اشتغل بالطب في مصر في القرن الثلاثين قبل الميلاد.

### لم ينشأ العلم في أوروبا بل في آسيا

وكذلك يحسن أن نعرف أن أقدم العلماء الطبيعيين اليونانيين (دارسي الطبيعة)<sup>(٢٩)</sup> لم يكونوا في أوروبا، بل على الشواطئ الغربية لآسيا الصغرى، وفي الجزر القريبة من تلك الشواطئ. أجل، إنهم كانوا ينتمون إلى جاليات<sup>(٣٠)</sup> يونانية، ولكنهم كانوا متأثرين بالشرق. ثم أن اليونانيين أنفسهم كانوا ينظرون جنوباً أو شرقاً للبحث عن مهد المعرفة والحكمة، وسافر كثيرون من هؤلاء إلى مصر وبابل لطلب العلم. وأنا سميت هؤلاء القوم يونانيين، ولكن هذه التسمية تنقصها الدقة، فإن شعوب الشرق الأوسط وشعوب الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط تمازجت منذ مطلع القرن العشرين ق.م مراراً وتكراراً.

---

(٢٧) أبقرات أو أبو قراط أو بقراط (Hippocrates) طبيب يوناني قديم شهور.

(28) jamieson B. Hurry, Imhotep, the Vizir and Physician of kingzoser (2 ed. Ed, London 1928, Isis 13: 373 - 75, 14: 226).

(٢٩) الفلاسفة الطبيعيون أقدم فلاسفة اليونان الذين وصلت إلينا أخبارهم. (ع.ف).

(٣٠) الجالية جماعة من قوم تعيش في أرض قوم آخرين. (ع.ف).

على أن آراءنا في هذه الأمور غشيتها الظلام بما افتعله المؤرخون القدماء عند تأريخهم للحروب الفارسية اليونانية من التنويه بأعمال اليونانيين المجيدة في معركة ماراثون البرية (٤٩٠ ق.م)، وفي معركة سلاميس البحرية (٤٨٠ ق.م). ويمكن أن توصف هذه الحروب بأنها صدام بين الاستبداد الآسيوي والشورى اليونانية. ولكن من التضليل أن نتحدث عنها كأنها حرب بين الشرق والغرب. فالفرس كانوا حلفاء للفينيقيين، والفينيقيون كانوا بدورهم متأثرين بالمدنية الغربية، كاليهود في يومنا هذا؛ بينما كان كثير من اليونانيين قد اكتسبوا الصبغة الشرقية. ثم إن هذه الحروب لم تكن أيضاً نزاعاً بين الآريين والساميين، فالفرس عريقون في الآرية كاليونان أنفسهم، بينما حلفاؤهم الفينيقيون كانوا ساميين. وكذلك كانت الإمبراطورية الآخامانية (الفارسية) كتلاً مترابطة من جميع السلالات والأمم العائشة في الشرق الأوسط، وهي التي تمازجت مرة بعد مرة مع مرور ألوف السنين. أما اللغة العامة في تلك الإمبراطورية الفارسية الآرية فكانت الآرامية، وهي لغة سامية.

ويجب علينا أن ننظر دائماً إلى الشرق الأوسط على أنه أرض تلتقي فيها الطرق وتفترق، وقد اتفق لبعض الناس أن دعوا بلادنا (الولايات المتحدة) بوتقة<sup>(٣١)</sup>؛ ولكن هذا الوصف ينطبق انطباقاً أشد على الشرق الأوسط، مع فارق واحد ولكنه عظيم جداً، هو أن أمريكا قامت بهذه العملية نحو مائتي عام أو تزيد قليلاً، بينما الشرق الأوسط قد شهد هذا التمازج مدة تزيد على ذلك عشرين ضعفاً.

(٣١) البوتقة أو البوتقة إناء تصهر فيه المعادن، كناية عن امتزاج الشعوب. (ع.ف).

## تأثير الشرق على اليونان

وإذا نحن رجعنا إلى العلم اليوناني وجدناه قد تشرب بمؤثرات شرقية مختلفة، من إيرانية وبابلية ومصرية. هذه المؤثرات يمكن أن يتتبعها الباحث في كتب أفلاطون<sup>(٣٢)</sup> فضلاً عن كتاب يونانيين آخرين حيث الأثر الشرقي عندهم أشد وضوحاً<sup>(٣٣)</sup>. وأنه ليفيدنا أن نستعرض جميع الآراء الشرقية الملموحة في تأليف اليونان العلمية، غير أن عملاً مثل هذا يحبسنا زمناً طويلاً، ثم لا تكون أكثر من إشارات عارضة تتعلق بموضوعنا.

ولكن بدلاً من أن نفعل ذلك نرى أن ندع الماضي البعيد، ثم نقفز في ثنايا العصور حتى نصل إلى القرن السادس للميلاد، لنقف عند العام المحتوم، ٥٢٩م، حينما أغلق جستنيان جامعة أثينا ومنع تدريس الفلسفة، في اليونان كلها. ثم فتح دير جبل كاسينو في إيطاليا لاحتضان الفلسفة. ولن يستطيع أحد أن يجد تاريخاً أجدر من هذا، ليكون الحد الروحي بين عصرين تواضع الناس على أن يسموهما العصر القديم والعصر الوسيط. في ذلك الزمن كانت

---

(٣٢) أفلاطون فيلسوف يوناني عظيم عاش من ٤٢٩ إلى ٣٤٠ ق.م (ع.ف).

(٣٣) لمعرفة مدى الأثر الإيراني راجع:

Joseph Bidez et Franz Cumont: *Les Mages Hellenises* (2 Vols, Paris 1938, Isis 31: 458 - 62), J. Bidez: *on Platon et l'Orient* (Bruxelles 1945, Isis 37: 185), F. Cumont: *Iur Perpetua* (Paris 1949).

وأما لمعرفة مدى الأثر المصري فراجع الحاشية ص ٢٣ مع متنها ثم ارجع إلى:

Robert William Rogers (1864 - 1930): *Cuneiform Parallels of the Treatment*. (New York 1912). T. Eric Peet (1882 - 1934): *Comparative Study of the Literature of Egypt, Palestine and Mesopotamia, Egypt's Contribution in the Literature of the Ancient world*. (London 1931). James Henry Breasted (1865 - 1935): *The Dawn of Conscience*. (New York 1933. Isis 21 : 305 - 16)

الفرق<sup>(٣٤)</sup> المسيحية في الشرق الأوسط: المارونية، والنسطورية، والجريجورية<sup>(٣٥)</sup>، والقبطية، والحبشية، واليعقوبية (والأربع الأخيرات يقول أصحابها بالطبيعة الواحدة في المسيح) قد ثبتت واتسعت الشقة بينها وبين الكنيسة العامة. على أن الذي كان أسوأ مع ذلك أن تلك الكنيسة العامة تمزقت بالانشقاق الذي كان يزيد شيئاً فشيئاً بين الكنيسة البيزنطية أو الأرثوذكسية في الشرق (اليونان) وبين الكنيسة الكاثوليكية في الغرب (إيطاليا). وبما أن القارئ قد يكون أقل علماً بالانشقاق الأول في الكنيسة منه بحركة الإصلاح الديني البروتستانتية، فإن الملحوظات التالية يمكن أن تعينه على فهم ذلك، وخصوصاً فيما يتعلق بالتعبير الآنف الذكر: القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح.

نشأت الفرق الأولى في النصرانية من اختلاف الآراء في طبيعة المسيح، أهو إنسان أم إله؟ أم أن له طبيعتين، بشرية وإلهية، مفترقتين أو ممتزجتين؟ فالرأي المسيحي المعتبر في المسيحية صواب كأن يقول بأن في المسيح طبيعتين (بشرية وإلهية)، ولكن في أقنوم (شخص) واحد. أما النساطرة أتباع نسطور الإسكندري فادعوا أن للمسيح طبيعتين وأقنومين

---

(٣٤) في الأصل الكنائس.

(٣٥) الفرقة الجريجورية منسوبة إلى جريجوريوس بطريرك الإسكندرية من أتباع أريوس. وكان أريوس إسكندريا أيضاً، وكان يقول أن المسيح ليس بآله، بل هو مخلوق من لا شيء، إلا أنه أول المخلوقات، والخلائق جميعاً إخوانه. وكان جريجوريوس يقاوم الكاثوليكين حتى قتل عام ٣٤٨ م. راجع كتاب ديوان البدع للمطران جرمانوس فرحات، رقم ٥٠، ٥٦ (ع.ف).

(شخصين)<sup>(٣٦)</sup>؛ ولقد حكم مجمع أفسوس عام ٤٣٥ م على آراء نسطور بأنها كفر. على أن القائلين بالطبيعة الواحدة قد تمسكوا بالطرف الآخر من حبل الجدل وقالوا بأنه ليس في المسيح إلا طبيعة واحدة وأقنوم (شخص) واحد، وهؤلاء أيضاً حكم عليهم مجمع خلقدونية بالكفر عام ٤٥١ م<sup>(٣٧)</sup>.

### الستار الحديدي قديماً وحديثاً

يتكلم الناس اليوم عن الستار الحديدي الذي يفصل بين أوروبا الشرقية الخاضعة للنفوذ السوفيتي وبين أوروبا الغربية الواقعة تحت النفوذ الإنجليزي الأمريكي. هذا الستار كان موجوداً في أثناء حقبة طويلة من العصور الوسطى بين العالمين اليوناني واللاتيني<sup>(٣٨)</sup>، ولما أشرف القرن الثامن الميلادي على نهايته كان الانفصال بين الكنيستين الشرقية والغربية قد أصبح تاماً. وكانت العداوة بين اليونان واللاتين قد أصبحت شديدة إلى درجة أن اللاتين لما أرادوا فيما بعد أن يستقوا من ينابيع الحكمة القديمة فضلوا أن يتعلموا اللغة العربية لا اللغة اليونانية.

---

(٣٦) ذكر المطران جرمانوس فرحات في كتاب "ديوان البدع" (رقم ٨٩) عن نسطور أنه قال: "أن مريم العذراء ليست بوالدة الله، لأجل أن الله لا يمكن أن يولد من إنسان ... وحاشا لي أن أعبد آلهة ابن شهرين ... وكما أن المسيح فيه طبعان فكذلك هو ابنان ومسيحان: أحدهما إله من الله الأب، والآخر إنسان من أمه مريم. وهذا كان يسمى العذراء والدة المسيح لا والدة الله" (ع.ف).

(٣٧) راجع في ذلك أيضاً: Introd. 3, 53 - 55, 1057, 1830

(٣٨) سبق لي أن عالجت هذه المسألة مراراً، أي "الوحدة والتباين في بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط".

## ظهور الإسلام

غير أنني أستبق الآن حوادث قصتي. يجب أن نقف هنا لحظة لأسرد عليكم، بإيجاز على كل حال، حادثة واحدة من أخصب الحوادث الكبرى في تاريخ الإنسانية، وهي ظهور الإسلام. ولكن لكي نستطيع ذلك يجب أن نتنقل إلى بقعة من أقل بقاع الأرض شهرة، عندنا نحن الأمريكيين، أي إلى بلاد العرب. من أجل ذلك كان وصف هذه البلاد أمراً مرغوباً فيه في هذا الموقف. غير أنني سأوفر عليكم هذا العناء، على كل حال، إذ أعتقد أنكم تعرفون الأمور الأساسية في الموضوع. ومن المرجح أن نفرأ منكم حاضرون بينما يعرفون عن شبه جزيرة العرب أكثر مما يمكن لي أنا أن أعرفه. لقد كانت شبه جزيرة العرب إلى زمن قريب تعد بقعة من أشد البقاع محلاً على وجه الأرض، ولا غرو فالقسم الأكبر منها أرض صحراوية واسعة مهجورة لا أيس فيها. أو ليس غريباً إذن أن يتوجب على الإنسان الذهاب إلى مثل هذا المكان المهجور، ليستنزل حياً إلهياً جديداً! ولكن هذه القصة معروفة بينكم بلا ريب، ويكفيني في هذا المقام أن أعيد إلى أذهانكم بضع ذكريات.

ولد أبو القاسم محمد بن عبد الله القرشي (صلى الله عليه وسلم) في مكة نحو ٥٧٠م. ولقد تألم جداً لحال قومه، ولما كانوا فيه من الجهل والطمع والقسوة، وافتراق الكلمة وهجر الفضائل. ثم صدع بالدعوة نحو عام ٦١٠، وعمره يومذاك أربعون سنة، بعد أن عظمت خبرته بالناس، وامتألاً صدره بإيمان متقد وطيد. في ذلك الحين كانت مكة المركز الرئيسي للتجارة في شبه جزيرة العرب. أما أهلها - وفيهم عدد كبير من الأغنياء، ومن الذين رزقوا حظاً من الجدل - فقد كانوا على شيء كثير من العناد. وسلك أهل

مكة مع محمد (صلى الله عليه وسلم) كما سلك أكثر الأقاليم مع أنبيائهم، أن نصحه المشرب بالتهديد الضمني كان يبدو مناقضاً لمصلحتهم التجارية. ومع أنهم لم يكونوا من قبل قد فتحوا له قلوبهم قط، فإنهم بعد أن خرج نصحه لهم إلى التهديد السافر، أصموا عن كلامه آذانهم مرة واحدة.

وفي سبتمبر من عام ٦٢٢، بعد أن رأى الرسول محمد أنه لم يبق ثمة فائدة من الصبر على عناد المكيين، هاجر الرسول بأتباعه إلى مكان آخر، يبعد نحو مائتين وعشرة أميال<sup>(٣٩)</sup> شمالي مكة، إلى يثرب التي أصبحت تدعى منذ ذلك الحين مدينة الرسول، أو المدينة اختصاراً.

هذه الهجرة كانت حداً فاصلاً في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وفي تاريخ الدين الجديد، لأنها البدء الرسمي للإسلام ديناً ودولة معاً. ثم لم يطل الأمر بعد ذلك حتى جعلت الهجرة مبدأً للتقويم الإسلامي، أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.

وكان محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مثل إخوانه الأنبياء السابقين، ولكن كان أعظم منهم نجاحاً بما لا قياس فيه. ولقد كانت الآيات الكثر، التي أوحى بها الله إليه بلسان عربي مبين، يحفظها أصحابه غيباً، أو يدونها كتابة الوحي منهم بعد نزولها مباشرة. ثم أن هذا الوحي الذي يتألف منه القرآن المجيد، جمع فيما بعد في مصحف واحد؛ جمع مرتين: مرة عام ٦٣٢م أيام الخليفة الأول أبي بكر الصديق، بإشراف زيد بن ثابت، أحد كتبة الوحي وكبار الصحابة؛ ثم أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان، بإشراف زيد بن ثابت

---

(٣٩) نحو ٣٦٦ كيلومتراً. (ع.ف).

نفسه للمرة الثانية والأخيرة نحو عام ٦٥٠م. وسور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة، رتبت ترتيبها الحالي في الجمع الثاني، فجاءت السور الطوال منه أول المصحف، والسور القصار آخره على التدرج، ما عدا فاتحة الكتاب، وهي قصيرة، ولكنها جعلت السورة الأولى، وما عدا سوراً قصاراً غيرها أيضاً جاءت قبل غيرها من السور الطوال<sup>(٤٠)</sup>. وسورة الفاتحة يقرأها المسلم في صلاته كما يقرأ المسيحي أعداد "أبانا". والقرآن أقصر من العهد الجديد<sup>(٤١)</sup>، ولكنه يختلف عن العهد الجديد اختلافاً كبيراً. أنه يتضمن أركان الإيمان وأجزاء من القصص، كما يتضمن أمور الفقه والتشريع والعبادة. وأروع أقسامه بالغة في أسلوبها البديع<sup>(٤٢)</sup>. أما الرسول نفسه فكان زاهداً<sup>(٤٣)</sup>، وفقياً ومشرعاً، ورجلاً عملياً، وأحد أعظم الشعراء<sup>(٤٤)</sup> في تاريخ الأدب العالمي، لو جاز لنا أن نعده كذلك.

---

(٤٠) ترتيب سور القرآن الكريم أمر توفيقى يرجع إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم في جمل آيات السور على الترتيب الذي هي عليه وفي جعل السور مرتبة ترتيبها الحالي (ع.ف).

(٤١) المقصود بالعهد الجديد الأناجيل الأربعة: إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، وهي أربع روايات لحياة المسيح، ثم أعمال الرسل، ثم رسائل مار بولس وبطرس وسواهما، ثم رؤيا يوحنا اللاهوتي. (ع.ف).

(٤٢) أسلوب القرآن واحد، وما الاختلاف الذي يخيل إلى غير العربي سوى تصريف الكلام حسب الأغراض بين وعد ووعد، أو قصص وتشريع، الخ. وهذا مطابق لتعريف البلاغة.

(٤٣) في الأصل متصوف.

(٤٤) لا يوصف محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعر، لقوله تعالى: وما علمناه الشعر وما ينبغي له. ولكن عبقرية الشعر كانت موجودة في رسول الله، وإن كان رسول الله لم يلجأ إلى نظم الشعر، لأنه كان مشغولاً عنه بما هو أعظم منه، بالرسالة. هذا التعليل هو للجاحظ، وقد ورد في البيان والتبيين، تحقيق حسن السنديوي، القاهرة ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م. الجزء الثالث، ص

## الإسلام وأركانه

أما اسم هذا الدين الجديد فهو الإسلام، ومعنى "الإسلام" أن يسلم الإنسان نفسه إلى الله. وأما اسم أتباعه، فكان مشتقاً من المصدر نفسه: "المسلمون". وقد كان الإسلام - كما أوحى به إلى رسول الله، وكما صدع به رسول الله - ديناً بسيطاً نقياً. ولكن اتفق أن علقته به - كما اتفق لغيره من الأديان - شوائب من الإسرائيليات<sup>(٤٥)</sup> التي أتى بها قاصرو العقول، أو من الجدل الذي أغرم به الفقهاء الظاهريون، الذين يتمسكون بظاهر الألفاظ، ويدعون الغوص على مقاصد الكلام ومعانيه. ولكن الإسلام في شكله الأصلي أمر باهر. وأركان الإسلام الخمسة هي:

- ١- الشهادة أو إعلان الدخول في الإسلام، وهي قول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.
- ٢- إقام الصلاة خمس مرات في اليوم واللييلة.
- ٣- الزكاة، وهي الصدقة المقنعة التي يجب أدائها على المسلم الميسور لمختلف المحتاجين من المسلمين.

---

(١٤١ - ١٤٢). وقد سبق لي أن نشرته كاملاً في مجلة الأولى، بيروت، السنة الثالثة، العدد الأول - ٨ شعبان ١٣٥٩ و ١٠ أيلول ١٩٤٠، الصفحة العاشرة (ع.ف).

(٤٥) الإسرائيليات حكايات وأخبار خرافية، ومبالغات في وصف المغيبات دسها نفر متافقون من اليهود (بني إسرائيل) الذي أسلموا، أو تظاهروا بالإسلام على الأصح، في التاريخ والفقهاء. غير أن علماء المسلمين عرفوا ذلك منذ الزمن القديم، ولكن بما أن هذه الإسرائيليات تنفق مع عقلية العوام، فقد ذاعت بينهم، ثم خدع بها أيضاً نفر من المسلمين. (ع.ف).

٤- صوم رمضان.

٥- الحج إلى مكة مرة واحدة في العمر على المستطيع.

وليس في أركان الإسلام هذه شيء ينفر منه غير المسلم، ونظراً إلى بساطة هذه الفرائض وقلة عددها، لم يكن ثمة حاجة إلى إدخال إصلاح ما عليها حتى تثبت العقيدة الإسلامية في نفس كل مسلم أو تزيد قوة بعد ثبوتها، ليسهل انتشارها فوق ما ثبتت وقويت وانتشرت فعلاً. إن القيمة العملية للعقيدة الإسلامية لها دليل ذاتي من قوتها ورسوخها وانتشارها، ليسهل في أفريقية، وفي جزائر الهند الشرقية - جاوة وسومطرة -، وسواها من الأماكن.

وكان الرسول رجلاً نزر العلم بالكتابة، إن لم يكن أمياً تماماً<sup>(٤٦)</sup>، ولكنه كان ذا عبقرية عظيمة. ولقى الرسول أثناء رحلاته بالقوافل للتجارة في شبه جزيرة العرب، جماعة من اللاجئين اليهود والنصارى كان لهم من الثقافة الروحية ما لم يكن للبدو. وبما أن الرسول كان شديد الاهتمام بالدين، فقد كان يتحدث إلى هؤلاء. وهكذا نجد أن الرسول كان على علم بأمور كثيرة من التوراة والإنجيل، وبأشياء كثيرة من العقيدتين اليهودية والنصرانية؛ وفي القرآن الكريم إشارات عديدة إلى ذلك. وكذلك نجد في القرآن عدداً من قصص التوراة أيضاً، مع الفارق المنتظر لاختلاف الأحوال بين العصرين<sup>(٤٧)</sup>. والإسلام

---

(٤٦) ورد في كتب الحديث والسير ما يفيد بأن الرسول لم يكن يجهد أشكال الحروف، ولكنه كان لا يعرف الكتابة ولا القراءة (ع.ف).

(٤٧) كان كفار مكة يقولون للرسول أن أموراً كثيرة مما يرد في القرآن يعرفها أحبار اليهود ويخبرون بمثلها، فأنزل الله في الرد عليهم قوله (سورة الشعراء - ٢٦ : ١٩٢ - ١٩٧) : "وأنة لتنزىل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي

يمكن أن يعد اقتباساً من اليهودية أو النصرانية، ولقد عده بعضهم كذلك<sup>(٤٨)</sup>.  
أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) عرف أنبياء بني إسرائيل واحترامهم، وعرف  
مريم البتول والمسيح، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين<sup>(٤٩)</sup>.

## تأخر المسلمين حجب الإسلام

فالإسلام، حسب هذا الرأي، مكمل لليهودية وللنصرانية. إلا أن  
الدارسين العدول يقولون أن الإسلام ثالث الأديان الكبرى التي ينتم بعضها  
بعضاً، والتي ترجع إلى مجموع واحد. والإسلام على أحسنه - كما يبدو في

---

مبين. وإنه لفي زبر (كتب) الأولين، أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل؟ هذا مع  
العلم بأن ما ورد في القرآن من العقائد اليهودية والمسيحية لا يشبه ما عند النصارى واليهود  
اليوم، ولا ما التوراة والإنجيل. (ع.ف).

(٤٨) إن القرآن نفسه يثبت صلة الإسلام بالشكل الأول الصافي من اليهودية والمسيحية حينما  
يقول: "ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين" (سورة الحج - ٢٢ : ٧٨). فلما بدل  
اليهود دينهم جاءت النصرانية، ولما بدل النصارى دينهم جاء الإسلام، لإتمام ما لم يكن تاماً  
في اليهودية والمسيحية. (ع.ف).

(٤٩) "ولكن رسول الله وخاتم النبيين" (سورة الأحزاب ٣٣ : ٤٠). هذه الآية هي في رأي اليهود  
والنصارى ميرر للزعم بأن الإسلام بدعة يهودية أو مسيحية، لأن ما يقال عن الإسلام أنه تكميل  
لليهودية والنصرانية هو في رأي اليهود والنصارى انحراف. وكذلك نحن واجدون في كتاب  
الحديث المشهور (مشكاة المصابيح) قولاً للرسول يدل على أن مريم حملت بالمسيح من غير  
اتصال يبشر (Introd. 3 : 1066). انتهت حاشية المؤلف.

ليس ثمت ضرورة الاستشهاد على هذا بغير القرآن الكريم، فالقرآن الكريم يثبت أن مريم حملت  
بالمسيح من روح الله، وهو يوجب على المسلمين هذا الاعتقاد. أما الكنيسة الكاثوليكية فإنها  
لم تجعل هذا الأمر من قضايا الإيمان عندها إلا بعد سنة ١٨٥٤م، أي بعد نزول سورة مريم  
بنحو ألف ومائتين وخمس وثلاثين سنة. (ع.ف).

آثار السلفيين<sup>(٥٠)</sup> أي الفقهاء الذين يريدون أن يرجعوا بالإسلام إلى ما كان عليه في أيام "السلف الصالح" من الصفاء، أمثال ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ومحمد عبده، يذكر الباحث المسيحي بالمذهب الوجداني الحديث<sup>(٥١)</sup>. أما في أسوأ مظاهره فقد علق به من الخرافات أكثر مما علق ببعض أشكال العبادة في المذاهب الكاثوليكية والبيزنطية. على أن هذا لا صلة له بالإسلام نفسه، ولكنه راجع إلى أن أفراد الطبقات الجاهلة من عوام المسلمين هم نسبياً أكثر عدداً وأشد تأخراً وأقل تثقيفاً من جماهير العامة في إيطاليا وأسبانيا مثلاً.

سوف أرجع إلى الكلام على الإسلام وعلى ما أحدثه من النتائج العجيبة بعد قليل، ولكن يجب عليّ أولاً أن أدل بأمثلة على عظمة الرسول من طرق مختلفة حتى أثبت صحة رأيي.

### عبقرية اللغة العربية

ففي المرتبة الأولى لم يكن الرسول يعرف لغة سوى لغته، فكان من الطبيعي أن يعلق عليها أهمية كبرى. أن الذين لا يعرفون سوى لغتهم - وخصوصاً إذا كان التعليم يقل بينهم - يميلون عموماً إلى أن يعدوا لغتهم هي الأساسية أو الوحيدة. ثم أن الوحي نزل على الرسول باللغة العربية<sup>(٥٢)</sup>، (ونحن لا ندهش إذا سمعنا ذلك). وهكذا كانت العربية لغة الله، ولغة الوحي، ولغة

(٥٠) في الأصل Puritans

(٥١) المذهب الوجداني Unitarian مذهب مسيحي ينكر أتباعه التشليث.

(٥٢) راجع سورة الشورى - ٤٢ : ٧ "وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها". والآيات التي تؤكد صلة الوحي باللغة العربية كثيرة. (ع.ف).

أهل الجنة. ولقد أكد الرسول وجوب قراءة القرآن باللغة العربية، فكان من نتائج ذلك الخيال، ثم من نتائج هذا الاتجاه العقلي الواحد، في التأكيد على الصحة المطلقة للغة العربية، إن أصبحت اللغة العربية من اللغات البارزة في العالم، وإحدى الوسائل الأساسية للثقافة في العصور الوسطى، وهي إلى اليوم لم تنزل لغة أمة موزعة في جميع بقاع الأرض.

وليس بين هذه الفكرة - أي فكرة أن القرآن نزل بلسان عربي مبين - وبين الكلمات التي ترجع إلى أصل أجنبي في القرآن تناقض، كما ذكر العلماء المسلمون منذ القرن الخامس عشر للميلاد<sup>(٥٣)</sup>، كالسيوطي (١٤٤٥ - ١٥٠٥م)، أو كما ذكر آرثر جفري في كتابه: "مفردات القرآن الداخلية"<sup>(٥٤)</sup>. لقد قسم السيوطي الكلمات الدخيلة في القرآن أحد عشر قسمًا: الكلمات الحبشية، والفارسية، واليونانية والهندية، والسريانية، والعبرية، والنبطية، والقبطية، والتركية، والزنجية، والبربرية. أما جفري، فيشير إلى ما لا يقل عن خمس وخمسين لغة ولهجة دخل شيء من كلماتها في القرآن الكريم، وإنه لما يلفت النظر أن تكون لغة معزولة عن الاتصال بالعالم الخارجي كاللغة العربية اشتملت منذ القرن السابع للميلاد على كلمات أجنبية بهذه الكثرة؛ لكن لغة قوم رجل وقوم تجار في الوقت نفسه - كما كانت اللغة العربية - لا يمكن أن تكون معزولة تمامًا. أن العرب كانوا يتاجرون مع السريان، والفرس،

---

(٥٣) ورد ذكر ذلك قبل القرن الخامس عشر للميلاد، ألف فيه الثعالبي والقرطبي، وذكره المفسرون. (ع.ف).

(٥٤) Arther Feffery: The Foreign Vocabulary of the Qur'an (Gaekwad's Oriental series; Vol. 79, Baroda 1938).

والأحباش. ثم أن الذين كانوا منهم ذوي اتجاه ديني خاص، كالرسول مثلاً، كثيراً ما كانوا يجدون فرصاً مؤاتية للتحديث مع اليهود والنصارى. كل هذه الاتصالات تبدو الإشارة إليها في القرآن، وعلينا نحن أن نقر طبعاً بأن الرسول كان يعلم بوجود لغات دينية كالعبرية، والسريانية، واليونانية<sup>(٥٥)</sup>.

وهنا اسمحوا لي أن أستطرد قليلاً، وأن أبدي ملحوظة هي أن نشوء اللغات وتطورها - وهنالك ألوف منها - إنما هي أحد الأسرار الغامضة في الحياة. إن بعض هذه اللغات روائع من العبقرية، ومن المنطق المتسق، ومن التشابك في الوقت نفسه. وأنه لمن المستحيل أن نفهم كيف نما هذا البناء المتشابك الجميل لهذه اللغات. ذلك لأن نمو اللغات خارج عن نطاق الشعور إلى حد بعيد. إن اللغات الطبيعية كانت موجودة قبل أن يفكر الإنسان بالنحو أو باللغة أيضاً، وبزمن طويل. ولا ريب أبداً في أن روائع الأدب اليوناني كانت قد دونت حينما وضع كتاب النحو الأول. إن جمال كل لغة يمكن أن يحلل وأن يوصف، ولكن لا يمكن أن يعلل أكثر مما يمكن أن نعلل جمال عصفور ما أو زهرة ما. إننا في مثل هذه الأحوال يمكن أن نعجب مما نرى وأن نقول: "ما شاء الله"<sup>(٥٦)</sup>. ولقد اتفق (ولم يكن الرسول ليستطيع ذلك لو لم يكن مؤيداً بقبس من الوحي) أن اللغة الوحيدة التي عرفها رسول الله

---

(٥٥) لا ريب في أن العرب في الجاهلية عرفوا بوجود لغات كثيرة، وعرفوا شيئاً منها ورد في الشعر الجاهلي. ولما زعم مشركو مكة أن بشراً يعلم الرسول وينقل إليه أخبار الماضي، نزل قوله تعالى (النحل ١٦ : ١٠٣)، "ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين". (ع.ف).

(٥٦) استعمل الدكتور سارتون، في النص الإنجليزي، التعبير العربي: "ما شاء الله" (ع.ف).

كانت من أجمل اللغات في الوجود. إن خزائن المفردات في اللغة العربية غنية جداً، ويمكن لتلك المفردات أن تزداد بلا نهاية، ذلك لأن الاشتقاق المتشابه والأنيق يسهل إيجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة بحسب ما يحتاج إليه كل إنسان، على نظام معين. لنأخذ مثلاً على ذلك الجذر س ل م: سلم معناها: نجا؛ حيا، ألقى السلام أو التحية؛ سالم: دخل في السلم؛ أسلم: انقاد وخضع، ومنها الإسلام والخضوع لله؛ تسلم: أخذ شيئاً من يد غيره؛ السلام: التحية، والسلم خلاف الحرب؛ والسليم الصحيح غير المريض؛ التسليم: الرضا والقبول؛ الاستلام لمس الحجر الأسود بالشفة أو باليد، التقبيل. وهنالك مسلم، ومتسلم مسالم وغيرها مما يعيا أحياناً على الحصر. ثم أن الاشتقاق يجري على نظام معين، حتى أن القارئ إذا مرت به صيغة جديدة، فإنه يفهم معناها من القرينة. وأن دارسي اللغة العبرية ليستطيعون أن يفهموا هذه الخاصة في اللغة العربية كدارسي اللغة العربية نفسها، ولكن الكلمات العبرية أقل طواعية للتصريف من الكلمات العربية. وهكذا يبدو لنا كأنما هذه اللغة التي كان يتكلمها البدو، قبل القرن السابع للميلاد، قد كان مكتوباً لها أن تصبح أداة لتبليغ الدين ونشر العلم في العالم.

## لغة القرآن

ولغة القرآن على اعتبار أنها لغة العرب كانت، بهذا التحديد، كاملة. وها نحن هنا أيضاً أمام اتفاق عجيب، فإن الرسول، مع أنه أمي، كان يملك

ناصية اللغة<sup>(٥٧)</sup>، إذ آتاه الله بياناً، ووهب اللغة العربية مرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحي الإلهي أحسن تدوين بجميع دقائق معانيه ولفناته، وأن تعبر عنه بعبارات عليها طلاوة وفيها متانة؛ وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد غير أن هذا كله لم يمنع من نشوء لهجات متعددة للتخاطب العادي، وخصوصاً حينما أصبح أبناء الأمم المختلفة يتكلمون العربية. ولكن القرآن الكريم جعل من اللغة العربية وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة.

### الحج عامل موحد ورحلة علمية

أما في المقام الثاني فقد جعل الحج واجباً على كل مسلم مستطيع مرة واحدة على الأقل في العمر، وقد كان الحج أمراً سهلاً نسبياً لأولئك الذين يعيشون، كالرسول، في شبه جزيرة العرب (ولم يكن أحد يومذاك يفكر بغير هؤلاء)<sup>(٥٨)</sup>. كان الحج سفيراً غير بعيد الشقة، وفي جو كان أولئك المسلمون الأولون قد ألفوه، ولكن لما انتشر المسلمون في بقعة واسعة من الأرض، أصبح الحج أمراً فيه شيء كبير من المشقة، ثم أصبح القيام به عاماً واحداً أو أكثر من عام، ينطوي على مصاعب لا تصدق، وعلى أنواع من الحرمان من

---

(٥٧) جاء في الحديث الشريف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "أوتيت جوامع الكلم"، وقال: "أنا أفصح العرب، بيد أنني من قريش". ولا غرو فإن الله اختاره لرسالة عظيمة والله أعلم حيث يجعل رسالته" (القرآن الكريم، سورة الأنعام - ٦ : ١٢٤). (ع.ف).

(٥٨) الحق أن الإسلام أراد عند فرض هذا الركن من أركان الإسلام في الناس كلهم في بقاع العالم أجمع. وهذا ظاهر في آيات كثر من القرآن الكريم ومشهور لا فائدة من الاستشهاد عليه هنا. (ع.ف).

أسباب الرفه. ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من الناس - وهذا يبعث حقاً على الدهشة - كانوا يقومون بالحج على الرغم من كل عائق. أما الرؤساء فإن أكثرهم كان يحج في أغلب الأحيان أكثر من مرة، مثال ذلك أن أبا الفداء الملك المؤيد صاحب حماة حج ثلاث مرات على الأقل. وأما الرحالة العظيم ابن بطوطة<sup>(٥٩)</sup> فقط حج ست مرات. وفي أثناء الموسم الذي خص بهذا الواجب المقدس كانت مكة والمدينة تبدوان وكأنهما مكان انعقاد مؤتمر دولي، وهنالك كان المتهمون بالقضايا المتشابهة يجتمعون ويتبادلون الآراء. ولم يكن المثقف يجتمع فقط إلى الحجاج من كل جنس، ويزيد معلوماته بدار الإسلام (بالعالم الإسلامي)، ولكن الاحتفالات والحماسة البالغة التي كانت تنتج من ذلك كانت كلها تثبت إيمانه بدينه وبوحدة أمته.

ولم يكن بوسع أحد أن يتخيل وسيلة أبسط ولا أشد أثراً من الحج، لضمان الوحدة الروحية بين المسلمين. ولقد سبق الإسلام إلى فهم تلك الوسيلة وتحقيقها قبل أن يدعو انتشار المسلمين في بلاد أجنبية وأجواء غريبة إلى ازدياد الحاجة إلى هذه الوحدة زيادة بالغة؛ وأن المدارس للثقافة العربية ليدersh من السرعة التي كانت تنتقل بها المعلومات بين أطراف العالم الإسلامي. من ذلك مثلاً أن وجوه الفلسفة والعلوم المتضمنة في رسائل إخوان الصفا - وهم جماعة اشتهروا في البصرة منذ النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد - قد عرفت في الأندلس بعد زمن قصير جداً. وكذلك عرفت آراء محبي الدين بن عربي الأشبيلي الأندلسي في الشام بسرعة. لأن محبي الدين

---

(٥٩) عاش أبو الفداء في النصف الأول من القرن الرابع عشر، وابن بطوطة في النصف الثاني

بن عربي استقر - بعد أن حج - في دمشق حيث توفي في عام ١٢٤٠ للميلاد أما فيما يتعلق بالعلماء فإن الحج كان مساوياً للرحلة في طلب العلم في العصور الوسطى، ولتبادل الأساتذة بين الجامعات، وما يشبه ذلك، في أيامنا هذه. ولكنه كان أهم من هذه كلها، لأن وسائل الاتصال العلمي الأخرى (كالصحف والمجلات) لم تكن قد عرفت بعد. ولقد كان بإمكان طالب العلم أن يجمع في سهولة بين الدراسة والحج، وإذا كان يتاح له أثناء ذهابه وإيابه أن يتوقف في أماكن مختلفة مرات كثراً وطوالاً بقدر حاجته، وأن يجتمع إلى أئمة العلم في كل مدينة، أو يجلس بين يدي الأساتذة المشهورين في الجامعات المختلفة، حتى أنه كان بإمكان الحاج أثناء حجه الطويل أن يتزوج مرة بعد مرة (كما فعل ابن بطوطة)، وهكذا يتاح له أن يتصل بمصادر جديدة للمعلومات، نتيجة اتصاله بأهل البلاد التي يتزوج فيها.

### الصيام امتحان للإيمان ووسيلة للتنظيم

وأما في المقام الثالث فإن فرض الصيام في كل نهار من مطلع الفجر إلى غياب الشمس شهراً كاملاً كان امتحاناً قاسياً لكل مسلم، وخصوصاً من البدو. ولكنه كان وسيلة بارعة لسبر غور الإيمان في صدر كل مسلم، ولتثبيت ذلك الإيمان أيضاً. أن التقويم الإسلامي قمري خالص، ولذلك لم تكن شهوره تعود في كل فصل بعينه، بل تدور مع العام من فصل إلى فصل. وهكذا يأتي رمضان في كل فصل من فصول السنة، فإذا اتفق أن جاء في فصل الحر كان الامتناع عن الشراب خاصة وعن الطعام شديداً على الصائم وقاسياً مؤلماً؛ وهذا يصدق خصوصاً على أولئك الذين يقومون بأعمال يدوية جسمانية. على أنه يحسن هنا أن نزيد إلى ما تقدم أن الأعمال التي تبطئ عادة في فصل الصيف تزداد بالصوم

بطناً حتى تبلغ حدها الأدنى، إذا اجتمع الصوم مع قساوة الجو في آن واحد. وهذه الملحوظة تصدق أيضاً على الحج الذي يجب أن يتم في شهر معين من شهور السنة القمرية، في ذي الحجة. أن هذه الفريضة تصبح أكثر مشقة إذا جاء ذو الحجة في أشد فصول العام حرّاً. على أن هذا لم يؤثر قط على الحجاج الذين يسكنون البلاد البعيدة من أولئك الذين يجب عليهم أن يقضوا عاماً كاملاً في السفر حتى يصلوا إلى مكة المكرمة. أجل، إن هذا قد جعل جهدهم السامي أكثر مشقة، ولكن أكثر فضيلة أيضاً، وأجزل أجراً عند الله. ولا ريب أبداً في أن الحاج يستطيع أن يعرف الفصل الذي يقع فيه شهر ذي الحجة من سنوات تلو، ثم يعين تاريخ حجه حسب ذلك. وهكذا يستطيع أن يختار موسم حجه في أكثر الفصول اعتدالاً أو في أكثرها شدة. ولقد كان في كل حين نوعان من الحجاج: الناعمون الذين يفضلون أن يؤدوا فريضتهم هذه بأقل جهد ممكن، ثم الصابرون الذين يؤثرون أن تزداد المصاعب والآلام أمامهم كيما يزدادون فضلاً وأجراً.

وأدرك الإسلام الحاجة إلى تنظيم شديد كيما يقوي إيمان المسلمين وتطهر قلوبهم، ومن أجل ذلك كان الصيام والحج من التمارين التي تحمل على هذا التنظيم وتقوم به أحسن قيام. أن كثيراً من الكنائس المسيحية ضعفت إلى درجة النفه، لتساهلها ولفقدان التنظيم فيها، ولقلة ما تفرضه على أتباعها. إن إتباع هذه الكنائس إذا دفعوا اشتراكاتهم (بدل جلوسهم على مقاعد الكنيسة) صاروا من المؤمنين حقاً. أن مثل هذه الكنائس قد تكون غنية، ومع ذلك فإنها من حيث التأثير في حكم المفقودة. فإذا كنتم تريدون إتباع كنائس ذوي إيمان، فعليكم أن تفرضوا عليهم نظاماً شديداً، وأن تتطلبوا منهم تضحيات حقيقية. ولقد عرف محمد ذلك جيداً، وهذه علامة ثانية من علامات عبقرية النبوة فيه.

## شرور الخمر

وفي المقام الرابع، حرمت الخمر في الإسلام (في القرآن وفي الحديث معاً)، قبل أن يكتشف العلم أن التقطير ينتج أشكالاً مركزة من ذلك السم بسهولة، أو قبل أن يستخدم الناس التقطير في سبيل ذلك على الأقل. جاء في القرآن الكريم: "يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون"<sup>(٦٠)</sup> (سورة المائدة - ٥ : ٩٠). أما لفظ المسكر في الإسلام فلا يطلق على الخمر وحدها بل على كل ما يخمل العقل، لذلك قال الرسول: "كل ما أسكر فهو حرام" (البخاري ٧٤ : ٣) وقال أيضاً (أبو داود ٢٥ : ٥) : "ما أسكر كثيره فقليله حرام". وهكذا كان الإسلام بعيد النظر، فمنع شروراً لم تكن وجدت بعد، أو لم تكن قد انتشرت هذا الانتشار الواسع، أو لم تكن أصبحت خطرة بمقدار ما هي الآن. وهكذا لم يكن بإمكان المسلم أن يتناول مسكراً وضميره مطمئن، فإذا تعاطى مسكراً فإنه يكون مرتداً أو منافقاً.

وخلاصة القول أن الرسول (عليه الصلاة والسلام) جاء بدين توحيدي قبل أن يقوم في النصرانية من يقول بشرعة التوحيد بتسعة قرون. ثم أنه شعر بتفوق اللغة العربية، من غير أن يكون عارفاً بلغة غيرها. وكذلك نجح في الدعوة إلى إيجاد مركز ثقافي للإسلام في الحج، قبل أن وضح للعالم إلى أي حد سيكون مثل هذا المركز هاماً لنشر الإسلام بين أجناس كثيرة وفي أمم

---

(٦٠) الميسر هو القمار، الأنصاب هي الأصنام، والأزلام قدامح الاستقسام أي سهاماً مكتوباً عليها نصائح مختلفة، فإذا أراد أحد أن يفعل شيئاً هاماً سحب سهاماً، ثم عمل بما هو مكتوب عليه، والرجس هو الخبث والنجاسة.

متعددة. ثم كان منع السكر في الإسلام قبل أن أصبح السكر مصيبة عامة، كما هي في أيامنا هذه، بزمن طويل.

### أثر اللغة في حفظ الدين

واسمحو لي الآن أن أؤكد أنه لم يتح لنبي من قبل، ولا من بعد، أن ينتصر انتصاراً تاماً كانتصار الرسول محمد. أن الإصرار على تفوق اللغة العربية - خاصة - أو على حاجة الدين إليها هو الذي جعل لها انتشارها الحاضر، ثم حفظ لها هذا التفوق قروناً عديدة. ولولا هذا الدفاع الضمني لقيت اللغة العربية لغة قليلة بلا قيمة عامة، أو لاضمحت تماماً، ولكان شأن العرب في ذلك شأن نصارى الشرق الأوسط الذين تركوا لغتهم المقدستين - السريانية والقبطية - حتى زالتا. من أجل ذلك لم يكن محمد نبي الإسلام فحسب، بل نبي اللغة العربية والثقافة العربية، على اختلاف أجناس المتكلمين بها وأديانهم.

### سرعة انتشار الإسلام

ولقد قبلت القبائل العربية الدين الجديد بسرعة مذهشة. وهكذا وجدت هذه القبائل نفسها للمرة الأولى في تاريخ وجودها موحدة على أساس متين، على أساس الدين. ومن الأدلة الصحيحة على القبول السريع للإسلام وضع التقويم الهجري والتاريخ الجديد (١٥ يونيو ٦٢٢)، ولكن غير المسلمين لا يستطيعون أن يقدروا ذلك حق قدره! لقد بدأ المسلمون التاريخ بالسنة الإسلامية بعد سبع عشرة سنة فقط من الهجرة، على حين احتاج النصارى إلى ألف عام لوضع التقويم المسيحي. ولا ريب أنه مما سهل وضع التقويم

الإسلامي ورود الحث عليه في القرآن الكريم<sup>(٦١)</sup>، ولذلك كان جزءاً أساسياً من الإسلام<sup>(٦٢)</sup>.

وفي هذه الأثناء اتسعت رقعة الإسلام بالسيف<sup>(٦٣)</sup>. ولقد كان الفاتحون

---

(٦١) كانت الأشهر العربية في الجاهلية قمرية، وكانت السنة مؤلفة من اثني عشر شهراً. ولكن بما أن دورة القمر حول الأرض تتم في نحو تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم، فإن السنة القمرية تقصر نحو أحد عشر يوماً عن السنة الشمسية، فتختلف مواقع الأشهر القمرية في الفصول بين عام و عام. من أجل ذلك كان العرب يجعلون كل سنة ثلاثة ثلاثة عشر شهراً حتى يظل التوافق بين السنتين القمرية والشمسية قريباً - فيما يتعلق بالفصول. وهذا الشهر الثالث عشر في كل سنة ثلاثة كان يسمى النسيء (أي المتأخر). ولقد حرم الإسلام النسيء، ورد السنة الهجرية قمرية بحتاً. جاء في سورة التوبة (٩ : ٣٦ وما بعدها)، "إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً.... إنما النسيء زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلون عاماً ويحرمونه عاماً، ليوطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله زين له سوء أعمالهم، والله لا يهدي القوم الكافرين"، (ع.ف).

(٦٢) الفرق بين القرآن والإنجيل عظيم جداً، وهو يرجع إلى أن القرآن الكريم قد صدع به النبي نفسه... وإلى أن القرآن يشتمل على جميع الأسس الضرورية للحياة الإسلامية، الدين والفقه والتشريع والتقويم واللغة. أما الإنجيل فلم يتعرض للغة. ونحن إذا صرفنا النظر عن نحو ألف لهجة نقل إليها الإنجيل وجدنا أن الكنيسة الكاثوليكية قد نجحت تقريباً في استبدال لغة الإنجيل الأصلية بلغة ثانية (مقدسة) هي اللغة اللاتينية. ثم أن الإنجيل لم يوجد تقويماً، والتاريخ المسيحي (الميلادي) وضعه راهب سيثي اسمه (يونيسيوس أكسيغوس) نحو عام ٥٢٥م. ولقد كان قبول هذا التاريخ بطيئاً وتدرجياً حتى أن البلاط البابوي نفسه لم يستعمله استعمالاً دارجاً إلا في القرن العاشر الميلادي.

(٦٣) معظم المؤرخين الغربيين يجهلون موضع السيف في الفتوح الإسلامية، والنص أن العرب لم يكن يقبل منهم إلا الإسلام، فإن لم يدخلوا في الإسلام قوتلوا، وعلى هذا، الحديث: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله. وعليه الآيات الواردة من السورة التاسعة من القرآن الكريم، (النصارى واليهود) من غير العرب فكان سورة التوبة أو براءة. (ما أهل الكتاب من

في ذلك محظوظين، بقدر ما كانوا شجعاناً. إن انتصارات العرب لم تكن نتيجة لقوتهم الذاتية، ولا لحميتهم التي كانت بلا ريب عظيمة، بقدر ما كانت نتيجة لضعف خصومهم واختلاف كلمتهم. ولقد كانت الإمبراطوريتان البيزنطية والفارسية متزعزعتين تريدان أن تنقضا منذ قرون سبقت، كما أن كل واحدة منهما أضعفت أختها بالحروب التي لم تتوقف بينهما قط. ثم إن إدارة البيزنطيين الدينية والسياسية كانت أزهدت نصارى آسيا، وبلغت في معاملتهم من الاحتقار والظلم حداً جعل أولئك النصارى متأهبين لأن يخونوا سادتهم من أبناء ملتهم، حينما يجرؤ على أرضهم عدو ما. إنه لم يكن بإمكان إحدى تينك الإمبراطوريتين (الفارسية والبيزنطية) أن تثبت في وجه العاصفة. وهكذا نجد أن قصة الفتوح الإسلامية الأولى قد سارت في الشرق القديم كما سارت فتوح هتلر خلال أوروبا في عصرنا الحاضر: سقطت دمشق في عام ٦٣٥؛ ثم كانت معركة القادسية، في العراق في العام نفسه، كما أن القدس استسلمت، ثم اجتاحت بلاد ما بين النهرين في عام ٣٦٧ للميلاد. وكذلك فتحت مصر ما بين عام ٦٤٠ وعام ٦٤١، ثم انتهى فتح فارس في عام ٦٤٢ م. أما فتح الأندلس فتأخر عن ذلك قليلاً، إذ تم في عامين اثنين بين ٧١٠ و ٧١٢ للميلاد، أي بين سنة ٩١ و ٩٣ للهجرة. وهكذا تمت جميع هذه الفتوح في أثناء القرن الأول للهجرة<sup>(٦٤)</sup>.

---

حقهم أن يظلوا على اليهودية أو النصرانية. إذا دفعوا جزية - ضريبة مقطوعة لبيت مال المسلمين - مقابل الدفاع عنهم وعن أموالهم، ومقابل إعفائهم من فريضة الجهاد، أي الذهب مع الجيوش الإسلامية إلى الحرب). (ع.ف).

(٦٤) راجع تفاصيل ذلك في Philip Hitti: History of the Arabs (London 1937, Isis 28 : 503 - 04), fourth edition (1949).

## صراع بين الحديث والقديم

ولكي نستطيع أن نقدر هذه الحوادث حق قدرها يجب أن نذكر أن العرب لم يكونوا إلى ذلك الحين هجروا حياتهم البدوية تماماً، ولذا شبه بعض المؤرخين الفتوح العربية في آسيا وأفريقيا وأوروبا بهجرات البرابرة (الهنود والقوط والوندال وسواهم)، وهي الهجرات التي قوضت أركان الإمبراطورية الرومانية الغربية (٤٧٦م)، ثم استمرت في تدمير معالم المدينة في أوروبا قروناً كثيرة بعد ذلك. إن البدو لم يكونوا مختلفين عن الهنود الحمر - في محاسنهم ومساوئهم. ولقد يبدو لبعضنا مع النظرة الأولى أن فتح العرب للبلاد التي بلغت الذروة من المدينة (فارس واليونان) كان أمراً يحمل في نفسه تناقضاً شديداً، أمة متأخرة في ركاب المدينة تحمل مشعل الحضارة والرقي الروحي إلى بلاد بلغ أهلها الذروة من الحضارة والرقي. لتتخيل مثلاً أن الهنود الحمر قد نجحوا في إخضاع الأوربيين الذين طرأوا على أمريكا، ثم ذلّوهم في خدمتهم. (فهل في ذلك شيء معقول؟). على أن هذه الموازنة (بين العرب وبين الهنود الحمر) قد تفيد في تبيان الفارق بين الفاتحين وبين ضحاياهم<sup>(٦٥)</sup>، ولكنها غير صحيحة في أساسها. إن الفاتحين العرب كانوا بلا ريب أميين، ولكنهم كانوا موحدين تماماً؛ وكان يعمر قلوبهم إيمان وطيد، وفي هذه أيضاً انتصر النبي انتصاراً بيناً. إن الفتوح العربية لم تكن نتيجة صراع بين

---

نقلت الطبعة الرابعة من كتاب الدكتور فيليب حتى إلى العربية بعنوان: تاريخ العرب (مطول) في ثلاثة أجزاء بيروت، دار الكشاف للنشر ١٩٤٩ - ١٩٥١ (ع.ف).

(٦٥) يقصد المؤلف أهل البلاد المفتوحة، مع أن جميع المؤرخين وفيهم الدكتور سارتون نفسه يعدون فتح العرب للشرق الأوسط إنفاذاً لأهله راجع ص ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ (ع.ف).

برابرة جيع، وبين سكان مدن أخذوا يتقهقرون في سلم المدينة، بل كان في الأكثر صراعاً بين دين جديد وثقافة جديدة ناشئة في المحل الأول، ثم بين ثقافات منحلة متعادية قلقة في المحل الثاني. هذه الفتوح كانت إلى حد بعيد تتخذ طبيعة حرب ضد الصليبيين، ولذا كانت انتصاراً للهِلال على الصليب.

هذه التفاصيل لتلك الجهود المدهشة في الفتح الإسلامي تهم المؤرخين السياسيين، ولكن الحالة النفسية للأسس التي تقوم عليها تلك الفتوح فيما يتعلق بالجانبين (بالعرب ثم بالروم والفرس) هي ذات أهمية كبرى لمؤرخي العلم. لقد سبق للإيمان المسيحي أن تزلزل بالمنازعات اللاهوتية التي امتدت قروناً عديدة، وبالحرمان<sup>(٦٦)</sup> المتبادلة، وأدى ذلك إلى استقبال النصارى في الشرق الأوسط جيوش الفاتحين المسلمين على أنها منقذة لهم من استبداد الكنيسة الأرثوذكسية. ثم إن الإسلام - من ناحية أخرى - كان لا يزال غصناً موحداً، كما أن المجاهدين المسلمين كانت تملك عليهم لبهم آمال عظيمة بالثروة والسلطة في هذا العالم، وبالثواب الخالد في العالم الآخر. وكان الإيمان في الإسلام بسيطاً، كريماً ومعتدلاً، ومع ذلك فقد كان بالإمكان أن تشيع فيه الحماسة حين البأس إلى حد بعيد، فينقلب المجاهدون حينئذ ذوي حمية إما أن يبلغوا بها الظفر، أو أن يسقطوا دونه شهداء؛ لقد كان الظفر والاستشهاد عندهم سيان. ومع أن الشعوب الإسلامية لم تكن عاجزة عن التسامح، فإن قوتها كانت في الدرجة الأولى نتاج الشعور بالتفوق

---

(٦٦) الحرمان تعبير كنسي مسيحي مؤداه أن تصدر سلطة دينية على أحد الأفراد التابعين لها - عملياً أو نظرياً - حكماً تعد به هذا الفرد خارجاً عن نعمة الكنيسة وعن حمايتها، فتحظر معاملته ودفنه .. حتى يتوب. (ع.ف).

الذي خلقه في نفوسهم النصر السهل الذي فتحوا به البلاد، كما أنه كان أيضاً نتيجة احتقار أصيل فيهم للدخلاء<sup>(٦٧)</sup>.

## تسامح العرب

ولم يستطع الغزاة المسلمون في بدء فتوحهم أن يمنعوا في التضييق على أهل البلاد المفتوحة، لأنهم كانوا بحاجة إلى التعاون معهم<sup>(٦٨)</sup>. لقد كان أبناء البادية<sup>(٦٩)</sup> شديدي الجهل إلا بدينهم وبأشعارهم، ولو لم يتصفوا بالتسامح لما قدروا على إدارة البلاد التي فتحوها. ولقد كان من حسن حظ المسلمين أن وجدوا - في البلاد التي فتحوها - نفراً من اليونان، والسرمان، واليهود، والأقباط، وأهل العراق، وأهل الأندلس، وسواهم يريدون أن يخدموهم على أننا إذا قلنا أن العرب قد احتاجوا إلى المعونة العادية من هؤلاء الأجانب، فإن قولنا

---

(٦٧) أظن السير توماس أرنولد (٦٤ - ١٩٣٠م) في وصف التسامح عند الشعوب الإسلامية نحو غيرهم من الشعوب، وذلك في كتابه: *The Preaching of Islam, A History of the Propagation of the Muslim Faith (London 1896; reprinted 1913)* ، رغبة منه في أن يظهر بمظهر الصديق لهم أما المجادلون عن الإسلام فيستشهدون عادة بالآية ٢ : ٢٥٧ : "لا إكراه في الدين". ولكن ثمة إشارات كثيرة في القرآن والحديث تصرح فريضة الجهاد ومقاومة المشركين (Introd. 3 : 1274, 1722, 1862) وهكذا يستطيع الإنسان - فيما يتعلق بالتسامح - أن يظهر المسلمين في صورة وضاعة (كما فعل أرنولد)، أو في صورة حالكة شديدة الظلمة؛ وهذا يصدق أيضاً على النصارى.

(٦٨) إن سبب تسامح المسلمين كان حثاً من دينهم على ذلك، ولم يكن لسبب مادي كالتعاون مثلاً مع أهل البلاد المفتوحة. (راجع الحاشية السابقة)، (ع.ف).

(٦٩) يخطئ معظم المؤرخين الغربيين حين يظنون أن العرب كلهم كانوا أهل بادية، إذ كان فيهم أهل مدن أيضاً، ولقد أنجبت البادية كما أنجب الحضرة! (ع.ف).

لا يعبر عن الحقيقة القائلة بأن الإمبراطورية الإسلامية شيدت على التعاون مع اليونان والفرس والأقباط وغيرهم، نصارى ومجوساً وصائبة ويهوداً. والعرب لم يحتاجوا إلى معونة هؤلاء في الدين الآداب - أو هكذا خيل إليهم - ولكنهم أدركوا بسرعة مدهشة أن التفوق الثقافي الذي امتاز به الأجانب إنما كان راجعاً في الأكثر إلى جهازهم الفني والعلمي.

هذا الإدراك هو الذي فسح المجال لما يجوز أن نسميه معجزة العالم العربي، وأوردت كلمة معجزة لترمز إلى تفسير ما بلغ إليه العرب في الثقافة والعلم، مما يخرج تقريباً عن نطاق التصديق. وليس لذلك شبه في تاريخ العالم كله، ما عدا حسن اكتساب اليابانيين للعلم الحديث، والبراعة الفنية في أثناء العصر الميجي<sup>(٧٠)</sup>. إن هذه الموازنة مفيدة، لأن الموقف كان في الحالين واحداً. إن قادة الثقافة بين العرب قد أدركوا الحاجة الماسة إلى العلم اليوناني، بقدر ما أدرك اليابانيون في الجيلين السابقين حاجتهم إلى العلم الأوربي الحديث. ولقد كان خير المعلمين لكلتا الأمتين الحاجة، الحاجة

---

(٧٠) يشير المؤلف هنا إلى زمن الإمبراطور مو - تسو - هي - تو (١٨٦٨ - ١٩١٢)، قريب من نصف قرن. هذه المدة كانت أقصر من المدة التي قضاها العرب في اكتساب الثقافة اليونانية، غير أن هذا كان طبيعياً جداً، فإن كل شيء كان في العصور الوسطى أبطأ سيراً، ولم يكن عند العرب أيام نهضتهم الثقافية تلك الأدوات العجيبة التي تستعجل الخطوات التربوية (الطباعة، والمحركات البخارية، والتلغراف وسواها). إن اكتساب اليابانيين للثقافة الصينية كان موازياً في طول المدة لاكتساب العرب للثقافة اليونانية، ولكنه (أي الاكتساب الياباني) وقف عند ذلك الحد، بينما الاكتساب العربي كان حلقة في تطور ثقافتنا (الغربية). من أجل ذلك يمكننا هنا في الغرب أن ندع دراسة الثقافة اليابانية جانباً، ولكننا لا نستطيع فعل ذلك بالثقافة العربية إلا إذا أردنا أن يتحمل شيئاً من الخسارة.

الملحة. على أن تينك الأمتين قد اتصفتا بالإدارة، وينوع من النشاط الروحي الذي يتغلب على المصاعب الشاقة؛ وإنه لم يكن لأبناء تيك الأمتين اختبار كاف ولا اضطبار على التوقف للتأمل في المصاحب فيخافوا منها، بل أنهم هجموا عليها هجوماً. وكل شيء يصيح أهون في أعيننا إذا لم نتوقف لتتخيل ما فيه من صعوبة.

### نهضة العرب العلمية

ويجب أن ندرك أن ذلك التطور الذي لا يكاد يصدق في العلم العربي لم يبدأ إلا منذ القرن الثاني للهجرة. أن الرسول كان عظيم الاهتمام بالآخرة، وبفضايا الأخلاق والدين مما يتعلق بهذه الحياة الدنيا، حتى إنه لم يستطع أن يصرف اهتمامه إلى العلوم<sup>(٧١)</sup>. على أن نفرأ من المعتذرين عن الإسلام في العصر الحديث حاولوا أن يقرؤوا أعداداً من الآراء العلمية في القرآن. ولكن هؤلاء لا يستطيعون ذلك إلا إذا خلعوا على بعض الكلمات معاني لم يكن بالإمكان أن تخطر لأحد في عهد الرسول، ولا لمن جاء بعد ذلك بقرون كثيرة<sup>(٧٢)</sup>. وكذلك الخلفاء الراشدون، فإنهم لم يكونوا أكثر اتجاهاً نحو

---

(٧١) سبق أن ذكرنا رأي الجاحظ في هذا الموضوع. راجع أيضاً مقدمة ابن خلدون (المطبعة الأدبية، الطبعة الثالثة ١٩٠٣، ص ٤٩٤) : "فإنه صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات...". (ع.ف).

(٧٢) أوضح الأمثلة على مفارقة حسن التعليل في ذلك ما وقع فيه الشيخ طنطاوي جوهرى في تفسيره الكبير (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) (٢٦ جزءاً، طبع عام ١٩٢٢م وما بعدها)، وفي غيره من الكتب مثل التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم (١٩٠٦م) وهو - فيما يظهر - اختصار لكتاب آخر أكبر حجماً، وقد نقل إلى الفارسية والتركية، راجع Charles Clarence Adam: Islam and Modernism in Egypt (1933) p. 245. وقد

العلوم من الرسول، لاشتغالهم مثله بما كان أعظم شأنًا: بنشر الدعوة وبالفتوح. وهكذا يبدو لنا أن اليونانيين الذين كانوا في خدمة العرب كانت معرفتهم بالأعمال والإدارة أكثر من معرفتهم بالعلوم، كما يبدو لنا أيضاً أن هؤلاء كانوا قد فقدوا تذوقهم للرفي الفكري الذي حققه أسلافهم.

### عبقرية العرب العلمية

وخلاصة القول أنه لم يكن ثمة علم في المدينة، أو في مكة، أو في دمشق؛ ومعجزة النهضة العربية لم تكشف عن نفسها قبل تأسيس الخلافة العباسية في بغداد. ولكن ماذا حدث هنالك؟ لقد نشطت العبقرية العربية بفعل الخميرة الإيرانية. إن محاسن الأمتين العربية والفارسية (ومساوئهما) كان بعضها يتمم بعضاً. وهكذا نرى أن معجزة العلم العربي كانت ترجع في الأكثر إلى الأثر<sup>(٧٣)</sup> الذي حدث بفعل النشاط والجد العرييين، وبفعل الإيمان الإسلامي في الفضول والجدل الفارسيين. أو بكلمة أعم، أن العالم العربي كان ثمرة للعبقرية السامية التي خمرت بالعبقرية الفارسية. ومع أن هذا التعبير عام جداً، فإنه يساعدنا على تفهم ما حدث في بغداد على وجه التقريب، حيث استطاع الحكام المسلمون في مدى قرنين (٧٥٠ - ٩٥٠م) أن يدفعوا رعاياهم من أولئك الذين يلمون بلغات متعددة - وأكثر هؤلاء نصارى أو يهود - لنقل المعارف اليونانية إلى اللغة العربية.

---

تفضل بنقل هذه المعلومات إلى زميلي في جامعة كولومبيا (Arthur Jeffery)، في رسالة مؤرخة نيويورك ١٥ مارس ١٩٥٠.

(٧٣) استعمل المؤلف لفظة Catalization، وهي لفظة مستعارة من مختبر الكيمياء، فإن التعبير Catalytic agent يقابله في العربية التعبير "عامل مساعد"، أي "الخاصة التي تكون في مادة فتؤثر في مادة أخرى (تحللها) من غير أن تتأثر هي". (ع.ف).

يحاول نفر من المؤرخين أن يبخسوا قدر هذا الإنتاج العظيم بإدعائهم أنه لم يكن فيه ابتكار ما، وبأن العرب لم يكونوا سوى مقلدين. إن هذا الحكم ينكشف عن خطأ فادح، فمن بعض الوجوه ليس ثمة شيء يمكن أن يعد ابتكاراً صحيحاً أكثر من ذلك الظمأ الذي تملك على القادة العرب حواسهم، في سبيل المعرفة. على أننا لا نشك في أن قسماً من هذه المعرفة احتاج إليه العرب حاجة مباشرة للإدارة وللحكم، غير أنهم مروا مراراً سريعاً من هذا التطور النفعي إلى تطور أسمى منه. فالتطب، كما يقال، كان فناً عملياً؛ وكذلك الفلك، إذا أريد به التنجيم فقط. ولكن العرب نقلوا إلى لغتهم شيئاً كثيراً من الرياضيات والفلسفة، مما يعد في أسمى المعاني الأفلاطونية<sup>(٧٤)</sup>. ولقد يعترض معترض فيقول أن النقلة كانوا في الأكثر أجنب غير مسلمين، وغير عرب في الأغلب أيضاً. وهكذا وجب أن يكون كل فضل لهؤلاء النقلة وليس لهؤلاء الذين استأجروهم. لا، أن الفضل يجب أن يكون للفريقين. لقد كان النقلة أجنب لسبب بسيط، هو أن عملية النقل تحتاج إلى شيء من المعرفة بلغات متعددة، مما لم يتوفر للفاتحين. أن الناقل من لغة إلى لغة يجب أن يكون قديراً جداً في اللغتين معاً، وتلك الميزات اللغوية التي توفرت في الأجنب كانت ضرورية، ولكن لم تكن كافية. أن كل عمل - وخصوصاً إذا كان طويلاً ومرهقاً - لا يمكن أن ينهض به ما لم يكن ثمة أحد يحتاج إليه

---

(٧٤) الأفلاطوني هنا (نسبة إلى أفلاطون) هو الروح الخالص من العلائق المادية أو الأسباب النفعية، ويمكن أن يقابله في العربية الحب العذري، الميل العذري، الاتجاه العذري، المعنى العذري، الخ. نسبة إلى بني عذرة - إذ اشتهر بنو عذرة بالحب الروحي البعيد عن الصلات المادية. (ع.ف).

حاجة ملحّة، وما لم يكن فوق ذلك مستعداً لأن يرزق الشخص الذي يريد أن ينهض به. والحكام العرب كانوا راغبين في عمل النقلة، وكانوا كثيراً ما يتنافسون في ذلك منافسة شديدة، أي كانوا هم البادئين والبادئ أفضل.

## الابتداع والتقليد

ويحسن بنا أن نقف هنا قليلاً لنسأل أنفسنا: ما التقليد؟ كلنا طبعاً نقلد أبويناً وأساتذتنا وأبطالنا، غير أن الأدعياء منا يقلدون تقليداً رديئاً، فيحكمون ما ظهر من الأشياء. أما الرجال العباقر، فإنهم يقلدون تقليداً خيراً، ثم يبدعون منه أشياء جديدة. إن غاية التهذيب على الحصر هي التقليد الحكيم لأحسن الأمثلة، أنه تقليد المناهج لا تقليد النتائج. التقليد العربي كان على مراتب متعددة، وكان أنواعاً متنوعة منها الجيد ومنها الرديء.

أما مهمة نقل الآثار الفلسفية العلمية من اللغة اليونانية، أو من اللغة السريانية، إلى العربية، فهذه انطوت على صعوبات عظيمة. فالنقلة الأولون - حتى المتأخرون منهم أمثال حنين بن اسحق الذي شهد النصف الثاني من القرن التاسع للميلاد - اضطروا إلى خلق كلمات جديدة لم يسبق أن اتفق التعبير عنها في اللغة العربية. وكان هؤلاء النقلة إذا أتوا مثلاً إلى نقل شيء من آثار أفلاطون، أو أرسطو، أو أقليدس، أو أرخميدس، أو أبقراط، أو جالينوس، ثم اصطدموا بمعنى جديد عليهم عمدوا في التعبير عن ذلك المعنى أما إلى إيجاد مصطلح جديداً، أو التجنوا إلى تعبير تفسيري أعسر للمصطلح الأصلي<sup>(٧٥)</sup>. وكذلك كانوا، إذا استحال عليهم هذان الأمران معاً، يشبتون

---

(٧٥) التعبير التفسيري هو أن نعبر عن معنى كلمة واحدة بألفاظ متعددة (ع.ف).

الكلمة اليونانية بلفظها الأصلي ولكن بالحروف العربية<sup>(٧٦)</sup>. غير أن هذا العمل لإيجاد الألفاظ والمصطلحات الجديدة، كان لحسن الحظ ميسوراً إلى حد ما، لمطوعة اللغة العربية مطوعة شديدة لاشتقاق الكلمات (كما رأينا من قبل)، فإن عدداً كبيراً من الكلمات الجديدة يمكن الإتيان به من جذر قديم. ومع أن هذه الكلمات لم ترد في القرآن أو في الحديث، فإنها تنطبق على قواعد اللغة العربية انطباقاً يصعب علينا معه أحياناً أن ندرك أنها جديدة، حتى أن أحدنا ليكاد أن يحكم بأن هذه الكلمات قديمة قدم اللغة العربية نفسها، وأنها - ولو لم تكن استعملت من قبل - موجودة بالقوة، ويمكن اللجوء إلى استعمالها عند الحاجة<sup>(٧٧)</sup>.

---

<sup>(٧٦)</sup> نجد في النقول القديمة وفي الكتب الفلسفية المتقدمة تعابير أجنبية كثيرة، أمثال جيومتريا، أسطرونوميا، وأبيديميا (الهندسة، ثم نحن لا نزال اليوم نقول جغرافيا)، (ع.ف).

<sup>(٧٧)</sup> للاطلاع على عدد من هذه الصعوبات في إيجاد المصطلحات العلمية أنظر:

**Amelia Marie Goichon: Lezique de la Lanque Philoosophique d'Ibn**  
**Sina, 510 Paris, 1938; Isis 33 : 326 - 29**  
العربية تعود اليوم إلى الظهور بشكل واضح جداً، وعلى الرغم من القوى الكامنة في اللغة العربية لاشتقاق الكلمات الجديدة ونحتها، فإن الحلول الصالحة غير متيسرة دائماً. وهكذا نجد اللغة العربية الحديثة مملوءة بالكلمات الهجينة، كما هو الحال في اللغة الإنجليزية تقريباً. أما فيما يتعلق بالمصطلحات الطبية فأنظر القاموس المستفيض الذي نشرته وزارة المعارف المصرية: **Mohammad Sharaf: English Arabic Dictionary of Medicine, Biology and Sciences. (quarto, 1048 pp. Cairo 1929; Isis 14 : 537).**

ومن المؤكد أن عدداً من هذه الصعوبات ينجم من جديد، كلما أريد نقل مجموع من المعلومات إلى لغة ليست معدة لمثل هذا النقل. فالعلماء الذين باشروا النقل من العربية إلى اللاتينية في العصور الوسطى واجهوا تلك الصعوبات، وكذلك علماء العصر الميجي (راجع الحاشية ٧٠) الذين نقلوا من اللغة الإنجليزية (ومن غيرها من اللغات الأوربية) إلى اليابانية وجدوا أنفسهم أمام

## رسالة العرب في العلم

معظم النقول العربية نقلت من اللغة اليونانية، إما مباشرة أو بتوسط النقول السريانية. وبعض هذه نقلت من السنسكريتية. وربما من لغات شرقية أخرى. غير أن معرفتنا بما استعاره العرب من اللغة السنسكريتية وغيرها من اللغات الشرقية لا تزال ناقصة، لأن العلماء الذين عرفوا العربية والسنسكريتية (والفارسية والصينية وسواهما) كانوا قليلين، وهذا يدل على مظهر آخر من مظاهر الابتكار والمبادهة<sup>(٧٨)</sup> عند العرب. إن العرب لم يستغلوا الآثار اليونانية فحسب، بل أغلب الظن أنهم لم يدركوا أول الأمر ما في تلك الآثار من القيمة العالية.

لقد كانوا يتشوقون إلى أن ينهلوا من كل مورد؛ ثم أنهم لم يتأخروا كثيراً قبل أن يتفهموا تلك المعرفة ويستنبطوا منها أشياء جديدة.

وأعظم الابتكارات العربية في الرياضيات والفلك شيئان: علم الحساب الجديد، وعلم المثلثات الجديد. ومما تحسن الإشارة إليه هنا أن هذين العلمين قاما على أساس مزدوج من الآثار السنسكريتية واليونانية. ومثل ذلك كان شأن الطب، إذ عرف الطب من طريق الهند ومن طريق اليونان معاً. وشاهد ذلك في كتاب فردوس الحكمة لعلي بن ربن الطبري الذي عاش في

---

المشكلة ذاتها. وهكذا نجد أن كل حال تساعد تبيان الأحوال التي سبقت. أما في ما يتعلق باليابان خاصة فارجع إلى: sir George Bally Sansom: The Western World and Japan (pp 399 - 404, New York 1950, Isis 41).<sup>(٧٨)</sup> المقصود بهذا اللفظ الإقدام Initiative على عمل الأشياء، والعمل بها قبل الآخرين. (ع.ف).

النصف الأول من القرن التاسع<sup>(٧٩)</sup>. وبعد بضعة قرون رأينا رشيد الدين الصوري الذي شهد النصف الأول من القرن الرابع عشر، وكتب في الفارسية أكثر مما كتب في العربية - وهذا صحيح - يوحى إلينا أنه استعار أيضاً من العلوم الصينية. غير أن أولئك الذين ينكرون محاسن العرب، ويخسونها قيمتها، ليحتجون مرة ثانية بقولهم: أن الأخذ من مصادر متعددة ليس، على كل حال، خيراً من الأخذ من مصدر واحد. تلك طريقة في المجادلة مضللة. وخصوصاً إذا كان الكلام يتناول الرياضيات. ثم إن الرياضيين العرب - في هاتين الحالتين المذكورتين آنفاً - لم ينسخوا من المصادر اليونانية والسكربتية نسخاً، ولو أنهم فعلوا ذلك لما جاءوا بفائدة؛ ولكنهم جمعوا بين المصدرين، ثم ألقوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية. وإذا لم يكن هذا الذي فعله العرب ابتكاراً، فليس في العلم إذن ابتكاراً على الإطلاق، فالابتكار العلمي في الحقيقة إنما هو حياكة الخيوط المتفرقة في نسيج واحد؛ وليس ثمة ابتكارات مخلوقة من العدم.

ولعل معترضاً آخر يقول: إن العلماء العرب لم يفهموا مدى اكتشافاتهم تمام الفهم ولقد بينت أنا مثلاً<sup>(٨٠)</sup> أنهم لم يستخدموا الأرقام الهندية (العربية)

---

(٧٩) علي بن ربن الطبري هو غير محمد بن جرير الطبري المشهور الذي عاش في النصف الأول من القرن العاشر وصاحب التاريخ العام المستفيض "تاريخ الرسل والملوك" والتفسير العظيم. إن تعليقي على كتاب علي بن ربن الطبري (Intro, 1 : 574) لم يكن وافياً، لأنني لم أعرف فردوس الحكمة إلا عام ١٩٢٧م، إذ نشر الكتاب في العام التالي بعناية م. ز. صديقي برلين ١٩٤٨. أنظر تحليل ماكس مايرهوف لهذا الكتاب: (Isis 16 : 6 - 54) أما تعليقي على رشيد الدين، وقد ظهر بعد عشرين عاماً، فقد كان أوفى وأكثر دقة. (Intro, 3 : 969 - 76).

(٨٠) Intro, 3 : 133; 797 - 98

في المناسبات التي يمكن أن يكون استخدام هذه الأرقام فيها أحسن نفعاً، في الألواح الفلكية والجغرافية مثلاً، ولكن ماذا في ذلك من الغرابة؟ أن ما تنطوي عليه الاكتشافات - وخصوصاً إذا كانت تلك الاكتشافات هامة فعلاً - يكون عادة مختلف المظاهر متسع المدى إلى درجة أنه ما من عالم، مهما كانت عبقريته عظيمة، يستطيع أن يفهم تمام الفهم كل ما يفعله. إن استثمار الآراء العلمية يقوم به عادة رجال أقل قدرأً من الذين اكتشفوا الآراء، ولكن يكونون أحسن استفادة عملية منها. وعلى أساس هذه الحقيقة استغل زنوبي جرام آراء فاراداي، وطبق ماركوني آراء كلارك ماكسول<sup>(٨١)</sup>.

---

(٨١) فاراداي Faraday (ت ١٨٦٩م) عالم إنجليزي في الطبيعيات والكيمياء قام بأول تجربة بدائية لانتشار الغازات، ولضغط الغاز وتحويله إلى سائل، واستطاع السيطرة على المجرى الكهربائي وإثارة مجار كهربائية بالمجاورة من شريط إلى آخر أو بواسطة المغنطة، مما قاد إلى تحقيق المحرك الكهربائي. وله أيضاً قانون التحليل الكيماوي.

وزنوبي جرام Gramme (ت ١٩٠١م) عالم بلجيكي اخترع عام ١٨٦٧م آلة تسيير بالمجرى الكهربائي المتبدل والمتناوب، ثم قاده ذلك إلى تسيير الآلات بالمجرى المستمر. وفي عام ١٨٧٢م استطاع جرام أن يبني الدينامو (المحرك الكهربائي) لتوليد القوة المحركة ولتوليد الضوء.

وكلارك ماكسول (ت ٢٨٧٩ In the Enc. Br.: James Clarc Maxwell) عالم اسكتلندي اشتغل بالطبيعيات، وبدا بحثه في احتكار الغار؛ وهو صاحب قانون توزع سرعة الذرات، وضع مباحث كثيرة في الكهرباء والمغناطيس موضع الانتفاع، ودون ملاحظات فاراداي في الكهرباء بعلاوات رياضية، أي أنه تمكن من أن يجعل لآراء فاراداي النظر قيمة عملية صناعية وتجارية.

أما ماركوني Marconi (ت ١٩٣٧) فهو عالم إيطالي سجل اختراعه للتغراف اللاسلكي في لندن عام ١٨٩٦م، ثم استغل ذلك تجارياً.

لنرجع أن العراق في العصور الوسطى. أن غرابة العلم العربي وخصبه معاً يرجعان في الحقيقة إلى أن ذلك العلم جمع العناصر اليونانية إلى العناصر الشرقية، وخلق منها مركباً جديداً، أو أنه جعل خلق هذا المركب مسكناً في المستقبل. ولقد كان بالإمكان أن ينتقل العلم اليوناني على يد أوروبا لو لم تكن النصرانية الكاثوليكية مفصولة تماماً عن النصرانية الأرثوذكسية بجدار من التعصب وسوء الظن والبغض. وبما أن هذا الجدار كان لسوء الحظ موجوداً. فإنه لم يكن من سبيل إلى اتصال للعلم اليوناني السابق باللاتيني اللاحق إلا من طريق المنحنى العربي. وإذا نحن نظرنا إلى العلم العربي من وجهة نظر التطور الإنساني عموماً وجدنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت ذات أهمية بالغة، لأنها تؤلف الصلة الأساسية بين الشرق الأدنى وبين الغرب، ثم بين الشرق الأوسط وبين آسية البوذية.

### الشرق مهد الثقافة الأوروبية

إن الأهمية العظمى التي يتمتع بها الشرق الأوسط، وهي أنه أم للثقافة الغربية قد قام البرهان عليه فيما تقدم هنا. ولكن حب الحقيقة يحملنا على أن نبدي تحفظاً، أو كما يقول المحامون: أن تقدم اعتراضاً. أن الثقافة العربية التي كانت الثقافة الزعيمة منذ القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر، ثم بقيت على غاية من الأهمية ثلاثة قرون آخر (ولنذكر أن ستة قرون ليست شيئاً يسيراً) قد درجت من مهدها، لا شك في ذلك. ولكن الفتوح الإسلامية حملت هذه الثقافة شرقاً إلى الهند وأواسط آسيا حتى الصين، ثم غرباً إلى أسبانيا ومراكش، أي إلى طرف العالم. فإذا نحن سمينا هذه الثقافة إذن ثقافة الشرق الأوسط فحسب، فإننا نكون جئنا شيئاً غربياً، إذ أن تلك الثقافة كانت

امتدت في العصور الوسطى من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى. ولندكر أيضاً أنه كان لهاتين التسميتين قبل كولومبوس واكتشاف أمريكا قيمة مطلقة، لأن العالم المعروف يومذاك لم يكن يتجاوز هذين الحدين. ففي القرن العاشر للميلاد أصبح القطر الأندلسي والقطر المغربي مركزين أصليين للثقافة العربية. عبارة أخرى كان جزء أساسي مما تدعوه بالشرق الأوسط يومذاك في المغرب الأقصى، في المغرب الأقصى تماماً، آخر العالم غرباً. وهكذا نجد أن التعبير "الشرق الأوسط" تعبير مضلل<sup>(٨٢)</sup>، فنحن دائماً شعوب شرقية بالإضافة إلى جيراننا الغربيين، وغربون بالمقارنة إلى الشعوب التي تعيش إلى شرقنا<sup>(٨٣)</sup>؛ ولكننا نقبل هذا التعبير كما نقبل كلمات أخرى كثيرة على أنها بقايا من جاهليتنا الماضية.

## ذروة الفلسفة العربية

أما ذروة الفلسفة العربية والحكمة العربية فبلغت مبلغها على يدي رجلين مغربيين. ومن غريب الاتفاق أن يولد هذان الرجلان في مدى بضع سنوات وفي مدينة واحدة، هي قرطبة التي كانت أعظم المدن في غرب أوروبا

---

(٨٢) إذا اعتبرنا الشرق الأوسط تعبيراً جغرافياً، فهو يقع شرق البحر الأبيض المتوسط، ولكن إذا عدناه تعبيراً دالاً على جهود المسلمين في العصور الوسطى في العلم والفلسفة فإنه حينئذ يتناول المشرق والمغرب معاً، وهذا ما عناه الدكتور سارتون بقوله أن الشرق الأوسط (من الناحية الثقافية) تعبير مضلل. (ع.ف).

(٨٣) يصف بعض الأمريكيين سكان ولاية ماين Maine في الولايات المتحدة بأنهم يعيشون "هنالك شرقاً" ومن الناحية الثانية نجد الكتب الصينية التي تتكلم عن أواسط آسيا والشرق الأوسط تحمل أمثال هذا العنوان: هي - يو - ت أو - تشي؟ (أخبار البلاد الغربية). أنظر:

Introd. 3 : 2113 ثم أنظر عناوين كتب آخر تبدأ بكلمة هسي (غرب) Introd. 1 : 476

بهاء وعظمة والتي كانت المنافسة الغربية لبغداد<sup>(٨٤)</sup>. ولد ابن رشد في قرطبة عام ١٢٦م، وولد موسى بن ميمون بعده بتسع سنوات في المدينة نفسها. والواقع أن ابن ميمون اضطر إلى الهجرة إلى المشرق بعده ثلاثين عاماً من مولده (١١٦٥م)، وأنه دون أكثر آثاره في القاهرة. ولكن هذا لا يبدل من الحقيقة شيئاً، وهي أنه كان مغرباً كابن رشد. على أن ابن ميمون لم يكن مسلماً بل يهودياً، وفي أثناء العصور الوسطى كانت اللغة العربية فعلاً أكثر اللغات انتشاراً. ولم يتكلم اللغة العربية ويكتب فيها شعوب من أمم مختلفة (في الشرق والغرب) فحسب، بل (وهذا بخلاف اللاتينية) شعوب تدين بأديان متعددة.

لنرجع إلى ابن رشد وابن ميمون قليلاً حتى نرى أن نتائج الفلسفة في العصور الوسطى قد عبر عنها هذان الرجلان، رجل مسلم ورجل يهودي. وبعد قرن كامل من الدهر قام بالتعبير عنها من جديد رجل مسيحي، هو القديس توماس الأكويني<sup>(٨٥)</sup>. هؤلاء الرجال العظماء الثلاث، وقد ولدوا كلهم في

---

(٨٤) كان العصر الذهبي لقرطبة أثناء الخلافة الأموية في الأندلس (٧٥٦ - ١٠٢١م)، وخاصة في القرن العاشر. ومن عام ١٠٩١ إلى ١١٤٧م دخلت قرطبة في حكم المرابطين، وهم من البربر سكان شمال أفريقيا. وكان ثالث ملوك المرابطين علي بن ناشفين الذي حكم من ١١٠٦م إلى ١١٤٢م، وفي أثناء حكمه ولد ابن رشيد وموسى بن ميمون.

(٨٥) للتوسع في ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨م) أنظر 61 - 225، Intro. 2: 225، وللتوسع في ابن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤م) أنظر 80 - 369، Intro. 2: 369، أما القديس توما الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) فهو من جنوبي إيطاليا. أنظر 21 - 914، Intro. 2: 914، ولقد سبق لنا أن تكلمنا عن قرطبي آخر هو سنكا الفيلسوف الروماني. ومن المميزات لمدينة واحدة أن تقدم للعالم ثلاثة رجال لهم مثل هذه العظمة، وأغرب من ذلك كله أنه لم يكن فيهم أحد مسيحي!

جنوب غرب أوروبا، يمثلون الثلاثة الأديان البارزة واللغتين البارزتين في العصور الوسطى. ومن السهل أن نذكر أسماء مغاربة آخرين ليسوا قليلين من أولئك الذين زادوا الثقافة العربية مجدداً على مجدها، ولكن هذين الاسمين هما في هذا المقام فوق الكفاية.

بلغت جهود ابن رشد وابن ميمون بالثقافة العربية الذروة، تلك الثقافة التي أخذت بالانحدار تدريجاً بعد القرن الثاني عشر الميلادي. ومع أن هذه الثقافة ظلت تترك روعة في النفوس في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، فإنها كانت قد بدأت بالانحدار. ولم يكد الشرق الإسلامي يدرك جنوح الثقافة العربية نحو الغروب إلا بصعوبة، لأن غروره كان يزداد بنسبة ما يصيب جلائل أعماله من التناقص (وتلك قاعدة عامة تنطبق على الشعوب كما تنطبق على الأفراد). ثم أن الغرب أيضاً لم يقطن لبدء انحدار الثقافة العربية، لأن الواجهة العربية ظلت على حالها، مع أن العرب يومذاك كانوا يبعدون شيئاً فشيئاً عن أن يكونوا خليقين بها<sup>(٨٦)</sup>.

---

وابن ميمون من اليهود الذين كانوا يعيشون في دار الإسلام تحت حكم المسلمين، وكان أولئك اليهود يكتبون بالعربية ولكن بحروف عبرية، ذلك لأن اللغة العبرية كانت مخصصة بالأمور الدينية، حتى كتب النحو العبرية فإنها كانت تكتب بالعربية: كما أن الغالب فيها اليوم في الولايات المتحدة أن تكتب بالإنكليزية.

(٨٦) كان أول النقلة الممتازين من العربية إلى اللاتينية قسطنطين الإفريقي الذي شهد النصف الثاني من القرن الحادي عشر. ولد قسطنطين في قرطاجة قرب تونس الحالية، واشتهر أمره في دير جبل كاسينو في إيطاليا منذ نحو ١٠٦٥م إلى وفاته في ١٠٨٧م. ولقد ظلت الكتب العربية طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر تنقل تدريجياً إلى اللاتينية، وهكذا أتيح للشهوة اليونانية العربية (في الفكر) أن تنتقل إلى الغرب المسيحي. وبنسبة ازدياد النقل من العربية إلى

وهذه أيضاً قاعدة أخرى من قواعد الحياة: هنالك أبداً انحراف أو ميل بين أعمال الإنسان (أو الأمة) وبين الشهرة الذائعة، فالشهرة لا تبدأ إلا متأخرة، وأحياناً متأخرة جداً، وفي وقت تكون فيه تلك الأعمال العظيمة التي استحققت هذه الشهرة قد توقفت. وهل يجوز غير ذلك؟ إن الزمن ضروري كيما يتسنى في خلاله للأعمال أن تشتهر وتقدر قدرها.

### أسباب تأخر المسلمين

إن المآثر التي قامت بها الشعوب التي تتكلم اللغة العربية - وذلك بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر - كانت عظيمة إلى درجة تخمل أفهامنا. على أن التأخر الذي أصاب المسلمين والعرب كان مستغرباً جداً في سرعته، كما كانت نهضتهم الرائعة مستغربة أيضاً. وسيحاول العلماء الدارسين أبداً تعليل ذلك، ولكن بلا جدوى من الناحية العملية على الأقل، ذلك لأن أشباه هذه المسائل معقدة جداً، ولأن الإجابة عليها بالأساليب العادية تقع في نطاق المستحيل.

ومما قيل أن التأخر الروحي في الإسلام قد عجل به أن المسلمين فقدوا قوتهم السياسية، وفي هذا القول شيء من الحقيقة. ولكن يجب ألا نبالغ في أهميته كثيراً<sup>(٨٧)</sup>، لأنه جزء صغير فقط من الجواب على ذلك السؤال

---

اللاتينية كانت تزداد الواجهة العربية في الغرب، ثم بلغت تلك الواجهة ذروتها عند بداية القرن الثالث عشر.

(٨٧) المعروف أن الغزو الوحشي الذي قام به تيمورلنك على الشرق الأوسط أواخر القرن الرابع للميلاد (74 - 1467 : 3 Introd) لم يفعل شيئاً أكثر من تهديم عدد من المدن الكبرى في الشرق الإسلامي (بغداد ودمشق وحلب وسواها)، وكان تقريباً ضربة قاضية على سورية وحدها. ولكنه لم يمس عدداً من البلاد الإسلامية بسوء، ومن هذه شبه جزيرة العرب مثلاً ومصر، ولا

المعقد. نحن نجد أن السلطة العثمانية قد ظلت عظيمة طوال قرون كثيرة؛ ومع ذلك فإن الثقافة لم تبلغ في تركيا ما بلغت إليه في عدد كبير من الدول الأوروبية التي كانت أضعف من تركيا كثيراً، والتي كانت تهرب تركيا رهبة الموت. إن ضعف الإيمان الإسلامي بين المسلمين ساعد على تدعيم الإمبراطورية العثمانية<sup>(٨٨)</sup>، ومع ذلك تقوضت أركان العلم العثماني<sup>(٨٩)</sup>. أن الأسباب الحقيقية لكل انحطاط تكون أسباباً داخلية، لا أسباب خارجية. فإذا اتفق أن شاهدنا شجرة تسقط بفعل العاصفة، فيجب ألا نلوم العاصفة على إسقاطها للشجرة، بقدر ما يجب أن نلوم الشجرة نفسها على تعفن باطنها.

وتلك الهزائم السياسية التي منى بها الإسلام لم تزعزع ثقة المسلمين بأنفسهم، بل هي على العكس زادت في غرورهم، غير أنها زادت في الاتجاه الخاطيء. لقد عيب المسلمون في وجه البحوث العلمية ونفروا منها، بسبب اعتقاد الفقهاء بأن ما يعرفونه هم من العلم يكفي لكل شيء، وهكذا وقف التقدم العلمي بسبب تعنتهم وعدائهم للتفكير في سبيل المعرفة. ونتج عن ذلك أن بعض هؤلاء العلماء ظلوا يقبلون على علاتها قصة خيالها التي كتبها

---

ضرورة لذكر المغرب، لأن تيمورلنك لم يصل إليه. ولم يكن بإمكان تيمورلنك أن يصيب الثقافة الإسلامية بمثل ما أصابها به لو أن تلك الثقافة نفسها كانت زاخرة بالحياة عند مجيئه.<sup>(٨٨)</sup> يقصد المؤلف، بلا ريب، استغلال بعض سلاطين تركيا لفكرة الخلافة والجهاد عند نشوب الأزمات السياسية بين السلطنة العثمانية والدول الغربية. (ع.ف).

<sup>(٨٩)</sup> لهذا السبب اتخذت تركية الحديثة موقفاً غير إسلامي. أن تاريخ الرياضات العثمانية قد كتبه صالح زكي (جزءان بالتركية، استانبول، 15 - 506 : 19 Isis) وكذلك كتب تاريخ العلم العثماني عبد الحق عدنان أديوار؟ (بالفرنسية باريس 1939 89 - 186 : 32 Isis) ولهذا الكتاب طبعة جديدة موسعة بالتركية (استانبول 1943 25 - 21 : 38 Isis)

علي بن الحزم بن النفيس<sup>(٩٠)</sup>. وجعل عنوانها فاضل ابن ناطق، تقليداً لقصة حي بن يقظان لابن طفيل<sup>(٩١)</sup>. وكتب ابن طفيل (ت ١١٨٦م) قصته المعقولة في وقت كان الإسلام لا يزال سائداً سياسياً، أما ابن النفيس، الذي توفي بعد قرن من وفاة ابن طفيل، فإنه كان طليعة من طلائع التقهقر، حين بدأت مآثر المسلمين بالنقصان وأخذ غرورهم بالنمو. ولقد كانت غاية ابن النفيس من كتابه أن يقول أن توالي الحوادث في ماضي المسلمين كان أمراً مقدوراً إلى حد أننا نستطيع أن نعيد حوادثه بخيالنا بداهة، أي لم يكن بالإمكان أن يجري تاريخ الإسلام على غير ما جرى عليه. وأشبه ابن النفيس في وهمه ما نجده عند رجل مسيحي مثل يوسيبوس<sup>(٩٢)</sup> الذي أعتقد أن سيادة النصرانية أمر راجع إلى العناية الإلهية، وإلى الفضل الذاتي في النصرانية نفسها. وكذلك ظن ابن النفيس أن الفتوح العسكرية والسياسة المدهشة التي اتفقت للشعوب

---

(٩٠) عاش ابن النفيس في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، كان طبيباً مصرياً أو سورياً، وتوفي في القاهرة (لا في دمشق) عام ١٢٨٨م. أنظر سارتون (1101 - 1099 : 2 : Introd) ثم ماكس مايرهوف Max Meyerhot "ابن النفيس ونظريته في الدورة الدموية الصغرى (Isis 20, 1935) - 100 : 23 ويعمل يوسف شاخ Joseph Schacht في طبعة لكتاب فاضل ابن ناطق وترجمة جزئية لها إلى الإنجليزية (194 : 37 : Isis).

(٩١) في ما يتعلق بابن طفيل في النصف الثاني من القرن الثاني عشر أنظر (2 : 354 : Introd). وأحسن طبعة لقصة حي بن يقظان هي التي أشرف عليها المرحوم ليون غويته Leon Gauthier، وجعل معها ترجمة فرنسية. بيروت ١٩٣٦ (30 : 100 : Isis).

(٩٢) عاش يوسيبوس Eusebius of Caesarea في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي، ولد في فلسطين وكان أسقفاً على قيسارية من عام ٣١٣ إلى وفاته عام ٣٤٠ (1 : Introd. 357) وهو أحد مشاهير المشاركة في العصر الروماني.

الإسلامية تحقيق لما سبق لتلك الشعوب في علم الله (٩٣).

## تأخر المسلمين روحي الأساس

قام البرهان مراراً وتكراراً على أن الانحطاط الروحي مستقل عن الهزائم العسكرية والكوارث السياسية. أن هولندا مثلاً - وقوتها المادية ليست سوى ظل للقوة التي تمتعت بها في القرن السابع عشر - لا تزال أمة من أمم العالم البارزة في ميدان الآداب والعلوم. وقام البرهان على ذلك في أمم أخرى، أمثال بلجيكا وسويسرا والدول الاسكندنافية التي لا تتمتع إلا بقوة يسيرة، على حين هي مع ذلك تقود العالم في الأمور الروحية من كل فن، ثم هي مراكز ثقافية من الدرجة الأولى.

لا، إن التقهقر في الإسلام لم يكن نتيجة لفقدان القوة المادية والسيادة السياسية، ولا لنقص فيهما، بل لأن القوة الروحية في نفسها ذهبت أن الشعور بالفوق، الذي تشعله فينا ذكرى الأعمال المجيدة التي قام بها أسلافنا أمر خطير جداً، وخصوصاً إذا رافق ذلك الشعور تقاعس في بذلنا للجهود. والشعوب التي تأتي بجلائل الأعمال لا تتشدد بالفخر بها، لأن وقتها يضيق عن ذلك؛ ولأنها تكون منصرفة إلى تحقيق غاياتها، لا إلى استجداء آراء الآخرين. ولكن الأمم إذا أقبلت على الهرم، ثم نسيت أداء رسالتها، فإنها ربما عادت إلى الاستغراق في الذكريات وفي التبجح بها. ولا يكون من ذلك

---

(٩٣) إن مثل هذا الجدل العقيم قد انغمس فيه عدد من الذين ينتمون إلى أمم سائدة في العالم، إذ يظنون أن سيادة أممهم ليس أمراً عرضاً، بل هو ثمرة تفضيل الله لهم على غيرهم. وهنالك مثال صالح على ذلك في كتاب: Bossuet: Discours sur l'Histoire Universelle (1681).

ضرر على الأفراد الذين يقضون على هذه الأرض حياة قصيرة؛ من أجل ذلك نتجاوز لهم عن مدد يسيرة ينامون فيها في الشمس قبل أن يودعوا هذه الحياة الدنيا. ولكننا نجد أن هذا أمر خطير جداً في حياة الأمم؛ فإن الأمر إذا أخذت بالنوم على أكاليلها، ثم شرعت تتبجح بماضيها من غير أن تعمل لمستقبلها شيئاً، فإن شمسها حينئذ تكون آذنت بمغيب - وتكون مقضياً عليها بالانحطاط.

### الأمم لا تموت ولكن تنحط

على أن هذه الأمم تظل موجودة، لأن الأمم في العادة لا تموت، ولكن يقضى عليها بأن تنحدر إلى مستوى الحياة اللينة الهينة. وهذا ما اتفق تماماً للإسلام، حين توقفت جهوده المبدعة، ثم أضيفت إلى ذلك مبالغة في الصلاح والتقوى وفي الاحتقار للآخرين. بعدئذ خبا ذلك النور الداخلي في المسلمين، حتى خسر إيمانهم قوته وصفاءه. حينئذ حلت الخرافة عندهم محل الدين، والحمية الجاهلية محل العقيدة، والحسد والكرهية محل الحب.

ويحسن أن نمد القول قليلاً على السبب الأساسي لذلك الانحطاط ليشمل الخرافات، لأنها أشد أسباب الانحطاط ختلاً، أي على غرة. ونمو الخلافات في الأمم ليس السبب الأساسي الوحيد للانحطاط، ولكنه أشد أعراض الانحطاط ظهوراً. فإذا نحن شهدنا هذا العرض في أنفسنا وجب علينا أن نأخذ حذرنا، وأن نبدأ بوقاية أنفسنا. والجدير بالذكر أن أهل العصور الوسطى لم يكونوا يدركون ذلك كما نذكره نحن اليوم، ولكن الخرافات تطيب دائماً للجهلة الذين يتطلبون أجوبة على أسئلتهم من النوع الذي يجيده

العرافون. كذلك كان شأن الناس دائماً من قبل في أدوار الانحطاط، وكذلك سيبقى أبداً. من أجل ذلك امتزجت الخرافات بالعلم نفسه، حين ضعفت الجهود العلمية في الإسلام، ومن هنا كان منشأ الداء القتال. إن الآثار العربية العلمية التي شرفت بعدد من روائع الإنتاج العقلي انحطت بسيل من الكتب في التنجيم والصنعة<sup>(٩٤)</sup> والسحر<sup>(٩٥)</sup>. ويبدو تسرب السحر إلى كتب الرياضيات في كتاب لمؤلف روحاني من الجزائر اسمه أحمد بن علي البوني، عاش في النصف الأول من القرن الثالث عشر. ولكن أحسن تعليل لهذه القضية، قضية السحر والخرافات والتنجيم عند المسلمين، ثم رفضها قد ورد عند مفكر من أبرز المفكرين في العصور الوسطى كلها شرقاً وغرباً، هو العالم التونسي عبد الرحمن بن خلدون الذي شهد النصف الثاني من القرن الرابع عشر<sup>(٩٦)</sup>. تأمل قوله عند الكلام على الهندسة<sup>(٩٧)</sup>.

---

(٩٤) الصنعة هي الكيمياء القديمة، وهي محاولة تحويل المعادن الخسيسة، كالنحاس والقصدير، إلى معادن شريفة، كالذهب والفضة. (ع.ف).

(٩٥) من المؤسف أن يكون ثمة كلمة تميز الصنعة الرديئة (راجع الحاشية السابقة) من الصنعة الصالحة أي الكيمياء، كما أن عندنا كلمة تنجيم التي هي كلمة فلك. ومع ذلك فإن عدداً من كتب العرب في الصنعة قد احتوت على ابداعات من علم الكيمياء الحديثة، بينما هنالك عدد آخر مملوء بأمر السحر. وربما وجدنا شيئاً من المعرفة الإيجابية وشيئاً من أمور السحر ممتزجين بها في كتاب واحد.

(٩٦) ابن خلدون (ت ١٤٠٦م)، أنظر 79 - 1766 : 3 : Introd. ولمناقشة آراء ابن خلدون في الماورائية، وفي أصناف المدركين من البشر بالفطرة والرياضة ... والوحي والرؤية - أنظر - المقدمة ص ٩١، وما بعدها 1772 : 3 : Introd.

"واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها إضاءة في عقله، واستقامة في فكره، لأن براهينها كلها بينة الانتظام جليلة الترتيب، لا يكاد الغلط يدخل أقيستها، لترتيبها وانتظامها، فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ، وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع<sup>(٩٨)</sup>. وقد زعموا أنه كان مكتوباً على باب أفلاطون من لم يكن مهندساً فلا يدخلن علينا، وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون: ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقدار، وينقيه من الأوضار والأدران<sup>(٩٩)</sup>، وإنما ذلك لما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه".

### فعل الخرافات

ومع كل ما في هذه العبارة من الأطناب فهي مما يدعو إلى الإعجاب به، لأنها إصابة لكبد الحقيقة. أجل، أن الخرافات تقوم في العقل الإنساني مقام الأقدار والطفيليات في الجسم الإنساني، ثم هي سبب لحجل فاضح. ولكن الناس الذين يصابون بالخرافات وبالقمل لا يدركون - لسوء الحظ - ما هم فيه من البلية، لأنهم ينساقون أبداً إلى أن يزيدوا ما هم فيه، وأن يصموا أنفسهم بذلك أشد الوصم. أما نحن فيجب أن نرجع إلى أنفسنا، وأن نغتفر للعرب تلك الخرافات التي ذهبت بثقافتهم،

(٩٧) مقدمة ابن خلدون (باريس ١٨٥٨م) ٣ : ١٠٢. الترجمة. الفرنسية (باريس ١٨٦٨م).

راجع: Introd. 3 : facing 1019, 1777 هذا النص في طبعة بيروت (المطبعة الأدبية،

الطبعة الثالثة، وكذلك ص ٤٨٦). (ع.ف).

(٩٨) المهيع الطريق الواسع الظاهر. (ع.ف).

(٩٩) الوضر الوسخ الناتج من الدسم كالتلوث بالزيت أو السمن، الدرر الوسخ. (ع.ف).

ذلك لأن ثقافتنا نحن في أمريكا لا تخلو<sup>(١٠٠)</sup> من الخرافات أبداً. فالمنجمون وقراء الكف والعرافون وسواهم من أصحاب الكهانة، تزدهر أعمالهم في مدننا المتخيلة بنفسها. أما أعمدة الجرائد المخصصة بالتنجيم فتدل على فقدان المبادئ، وعلى الفساد في أصحاب تلك الجرائد<sup>(١٠١)</sup>. وأن مناقشة ابن خلدون للخرافات المختلفة بين المسلمين - على الرغم من أنه لم يستطع إلا أن يصدق بعدد منها - أمر مفرد في آثار العصور الوسطى. غير أن الأمر تفاقم بعد عصر ابن خلدون، فحدث رد فعل متعاقب الحلقات، ينتقل به المسلمون من الأخذ بخرافة إلى الأخذ بثانية، فثالثة فأكثر. بعدئذ فتح الانحطاط الروحي في الإسلام الباب للخرافات شيئاً فشيئاً، ثم هدمت الحواجز العقلية التي تحول عادة دون الخرافات، بتأثير بعض الفقهاء الجهلة المتعصبين<sup>(١٠٢)</sup>. ثم إن الخرافات الجديدة زادت في سذاجة العامة وجهالتهم وغبائهم وتعصبهم، وهذه بدورها أدت إلى نشوء خرافات جديدة، وهلم جرا.

---

(١٠٠) المؤلفات في الخرافات العربية كثيرة. أنظر دائرة المعارف الإسلامية مقالة كاهن Kahin، وقيافة Kiyafa، وسحر Sihr، الخ (99 - 298 : 33 Isis). أنظر كذلك Walker: Folk Medicine Isis 24 : 294 وكذلك (in Modern Egypt, London 1934) ولمعرفة خرافات الصابئة التي تمثل جميع خرافات الشرق الأوسط أنظر: Drower (Ethel Stefana Stevens): The Book of the Modiae. (Royal Asiatic Society, London 1949).

(١٠١) فيما يتعلق بالخرافات الأمريكية أنظر: Go;ner; Se;des: The Stammering Century, New York, 1928. Charles Wright Ferguson: The Confusion of tongues, New York 1928, Bart J. Bok and Margaret W. Mayall: Scientists Look At Astrology, Scientific Monthly, March 1941 (Isis 35 : 181 - 182, 40 : 79 - 81).

(١٠٢) كان الحكام أحياناً أكثر تسامحاً من الفقهاء، ولكنهم كانوا مضطرين إلى الانحناء أمام عدم التفكير الشائع. مثل ذلك. أن أمراء الموحدين في الغرب - وكان يظن بهم التعصب - حموا الفلاسفة الكبار من عنت المتعصبين. راجع كتاب Leon Gauthier: Ibn Ruchd. Paris 1948 (Isis 41 : 104 - 06)

وتحرجت الحال تحرجاً شديداً، إذ بينما كانت الجهود العربية تتضاءل، والشعوب العربية تصبح فريسة للخرافات المتزايدة، حتى فقط الأمل بإنقاذها، اكتشفت الشعوب الغربية (اللاتينية) سرّاً من أسرار المعرفة والحياة الثرية<sup>(١٠٣)</sup>؛ ذلك السر الجديد هو العلم التجريبي الذي خلق في غضون بضعة قرون ثقافة جديدة، بل أحدث ثورة في العالم كله - في العالم الروحي وفي العالم المادي معاً<sup>(١٠٤)</sup>. ولم يكن للشعوب التي تتكلم العربية نصيب من هذا التقدم. إذ تقدمت الأمم الغربية بخطى واسعة جداً، على حين وقف العرب. وهكذا تأخروا يوماً بعد يوم تأخراً لا أمل بوقفه. أن الإسلام، وهو ينهض نهضته العظيمة رفع العرب إلى الذروة، أصبح محجوباً بالمسلمين في الهاوية.

### أمل العرب بالنهوض ثانية

على أن هذا الحكم ليس مبرماً على كل حال أبداً، بل يصح يتبدل بسرعة. أن شعوب الشرق الأوسط سبق لها أن قادت العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الإنساني - طوال ألفي سنة على الأقل قبل أيام اليونان، ثم في العصور الوسطى مدة أربعة قرون تقريباً، وليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية في المستقبل القريب أو البعيد.

(١٠٣) الثرة العين الغزيرة الكثيرة الماء والحياة الثرة ذات النعم العميمة (ع.ف).

(١٠٤) انتشرت خرافات كثيرة في العالم المسيحي في العصور الوسطى، ولوصف هذه الخرافات

أنظر: Lynn Thorndike: History of magic and Experimental Science, 6

Vols. New York 1923 - 41 (Isis 6: 74 - 89, 23 : 471 - 75; 33 : 691 - 712)

غير أن الخرافات المسيحية كان يقابلها على كل حال مجموعة من المعارف ومن الفقه العقلي

(وخصوصاً عند القديس توما). أما فلسفة ابن رشيد فانهزمت تماماً بين المسلمين، ثم قضى

عليها في الشرق، بينما حورها الغرب تحويراً يوافق المسيحية.

وفي المرحلة الأولى التي قاد الشرق الأوسط فيها العالم، وضحت العبقريّة المبدعة لتلك الشعوب، فكان من الشرق الأوسط أول البناة بالصخر، وأول الكاتيبين بالقلم؛ وذلك لأن تلك الشعوب استيقظت قبل سواها من شعوب العالم. وأما المرحلة الثانية فكانت أقصر مدى، ولكن كثيرة الخصب. وبذا سبقت شعوب الشرق الأوسط أهل اليونان في ميدان المآثر العلميّة، أو أنها أمكنتهم من الإتيان بتلك المآثر، ثم تبدلت الحال. لقد كانت الشعوب التي تتكلم العربية في الشرق الأوسط نقله العلم اليوناني إلى الغرب، غير أنهم لم يكونوا نقله فقط، ولكنهم على عكس ذلك زادوا ذلك التراث اليوناني، ثم أورثوه إلى الشعوب اللاتينية أغنى مما كان. ولم يكن تفوق العرب في ابتكارهم المبدع بقدر ما كان في ثباتهم وفي شدة حبههم للعلم، إذ فهموا يومذاك (وهذا ما نسوه بعد ذلك) أن المعرفة يجب أن تبنى على أساس صحيح، وأن جذور كل ثقافة إذا لم تكن عميقة عمقاً كافياً لا تلبث أن تذوى ثم تموت ولقد كانت جذور دينهم عميقة عمقاً كافياً، وجذورهم العلميّة - لوقت ما على الأقل - الجذور اليونانية. وكذلك أدرك قادة الفكر فيهم بوضوح أن الإنسان إذا أراد أن يكتسب المعرفة العلميّة، فإنه لا يستفيد من البدء بالقمة، من طريق استعارة التطبيقات العمليّة الأخيرة، بل يجب أن يشرع من الأساس بالمبادئ الأولى. وأنه لمن السهل أن نجني الفواكه اللبانعة من أعالي الشجرة - وكل أحرق يستطيع ذلك - ولكن من الصعب أن نستنبت أشجاراً صحيحة تعطي فاكهة وافرة في أبنائها والدرس الذي يجب على شعوب الشرق الأوسط أن تتعلمه من جديد هو أنه ليس إلى العلم طريق مختصرة. إن

من السهل أن تدرس علم الحيل<sup>(١٠٥)</sup>، وقد لا يكون من الصعب أن ندرس المهندسين؛ ولكن تربية الإنسان على العلم مهمة شاقة طويلة الأمد. إن الإتيان بالمآثر المبدعة في العلم وفي التعليم تقتضي تفانياً متصلاً طوال سنين عديدة، بل طوال حياة كاملة. غير أن الحياة قصيرة، وكل رجل علم يورث أولئك الذين يأتون بعده مشاكل تنتظر حلولاً.

ليس ما يمنع الشعوب العربية اليوم من أن تباري أسلافها، وأن تستعيد ثانية مكانتها الأولى في قيادة العالم، ومع أن ذلك ليس سهلاً - ثم هو يصبح أشد صعوبة يوماً بعد يوم - فإنه ممكن.

### بدء التجدد

إن براءة حميدة قام بها في الميدان الديني الشيخ محمد عبده<sup>(١٠٦)</sup>، وهكذا أخذ الجو الإسلامي يصفو. وكذلك اليهود والنصارى في الشرق الأوسط ينالون عناية أكبر من تلك التي نالوها في الماضي بينما المستوى التهذيبي قد ارتفع كثيراً، في بلاد عديدة. ومما يدخل السرور على قلبي أن قسماً كبيراً من ذلك المنهاج التهذيبي قام به أمريكيون، وأنا أردد هذا القول مشيراً إلى الجامعة الأمريكية في بيروت التي كان ظراً لرجال صالحين، ونبعاً

---

(١٠٥) علم الحيل هو علم استعمال الآلات لرفع الأجسام الثقيلة أو تحريكها، وهو المعروف في

اللغات الأوروبية باسم الميكانيكا Mechanics

(١٠٦) الكلام علي محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٥٠ م) انظر دائرة المعارف الإسلامية Enc. Of

Islam وهناك أيضاً ترجمة لرسالة التوحيد، باريس ١٩٢٥. (Isis 9 : 456 - 57)

دائماً لحسن النية<sup>(١٠٧)</sup>. إن الجامعة الأمريكية في بيروت، والكليات الأمريكية في القاهرة واستانبول وبغداد لم تقتصر ببلاد الشرق الأوسط على نشر روح طيبة فحسب، بل خلقت فيه أيضاً منافسة خيرة، إذ دفعت المدارس الأخرى إلى تحسين طرق التعليم فيها. من أجل ذلك لا يستطيع الإنسان أن يفني المشرفين على هذه المعاهدة الأمريكية حقهم من الشكران، وكذلك القائمين بإدارتها على ما أولوه من هبات مباشرة وغير مباشرة في سبيل العلم. ثم إن الاستقلال السياسي ملاً لجميع البلاد بروح الطموح، وليس ثمة ما يمنع طموح تلك البلاد أن يتحقق إذا أتيح له سند من الأعمال والتضحيات المتوالية، لا من الكلمات فحسب. هنالك مشاكل يجب أن تنتظر حلولاً، ولكنك حيث تجد إرادة فأنت واجد طريقاً؛ وهذه الطريق يمكن أن تكون طويلة، ولذلك كانت الحاجة إلى الصبر كبيرة. أما النقطة الأساسية في الموضوع فهي أن ندرك أن الأعمال العلمية يصعب القيام بها، وأن على الإنسان أن يشمر عن ساقه لبيذل جهوداً جبارة في سبيل ذلك أما الذين يخدعون أنفسهم، فيفكرون بأن التغلب على المصاعب أو الاحتيال عليها سهل، فأولئك كتبت عليهم الخيبة. أن الجهود اليسيرة تضع دائماً.

والمدينة ليست مرضاً حتى يمكن الشفاء منه، بل هي كفاح علينا أن نجالد فيه مرة بعد مرة، ثم هو كفاح لا يخلو من أخطار. إن حريتنا ومعارفنا وما في حياتنا من النعم كلها لنا ولكنها لنا "تحت التجربة". لذلك يجب علينا

---

<sup>(١٠٧)</sup> أنظر (Isis 19 : 322 - 29, 1933) وكذلك. Stephen B. L. Penrose, Jr: That they may have life, the story of the AUB 1866 - 1941, New York 1941 (Isis 34 : 40 - 41; 39 : 7).

دائماً أن نبرهن على أننا نستحقها، أو نخسرها. وإذا اتفق أن ضعفت عزائمنا فإننا نبدأ حالاً في الانحدار، لأن كفاح الظلم والخطأ والقبح والفقر لا يجوز أن يهدأ.

## والتقدم أيضاً روجي لا مادي

أنا لا أزال أؤمن بالتقدم كما آمن سنكا<sup>(١٠٨)</sup>، لا كما يفعل أنصاف المتعلمين الذين يقيسون التقدم بالشاقول<sup>(١٠٩)</sup> أو بمقدار ما فيه من الرفاهية. ولكن التقدم المادي الخالص مدمر، وهو ليس تقدماً على الإطلاق، بل تأخر أساسي. إن التقدم الصحيح - ومعناه تحسين صحيح لأحوال الحياة - لا يمكن أن يبنى على وثنية الآلات ولا على العتلات<sup>(١١٠)</sup>، ولكن يجب أن يقوم على الدين وعلى الفن، وفوق ذلك كله على العلم، أي العلم الخالص، ومحبة الله ومحبة الحقيقة، وحب الجمال، وحب العدل. وهذا يبذلوا لنا جلياً حينما تلقي نظرة واحدة إلى الماضي. من هم أولئك الذين كانوا رجالاً عظاماً في التاريخ؟ من هم أولئك الذين أحسنوا إلينا؟ ومن هم أولئك الرجال الذين نحن مدينون لهم بمسرات حياتنا ونعمها؟ لقد كانوا رجالاً أمثال أفلاطون، وأرسطو، وأقليدس وأرخميدس، في تاريخ اليونان. أما أثناء العصور الوسطى فكانوا رجالاً من أمثال الفارابي، وابن سينا، وابن الهيثم، والبيروني، والغزالي، وابن رشد، وموسى بن ميمون، وأبي الفداء، وابن خلدون. هؤلاء الرجال لم يكونوا

---

(١٠٨) راجع ما سبق هنا، ص ٨، حاشية ٤ في الصفحة نفسها.

(١٠٩) الشاقول آلة يقياس بها استواء السطوح القائمة، والمقصود بذلك قياس التقدم قياساً مادياً لا روحياً. (ع.ف).

(١١٠) العتلة أداة تحرك بها الأشياء الثقيلة، والمقصود الأساس النفعي المادي. (ع.ف).

يعيشون في فراغ اجتماعي (في معزل عن الناس)، وفي أيامهم كان الحكام ورجال المال أكثر شهرة منهم. ولكن الحقيقة أخذت تتجلى تدريجاً، وها هم أولاء (وأندادهم) هم وحدهم الذين يذكرهم الناس اليوم، أما الملوك والسلاطين والوزراء فقد عفى عليهم النسيان. إن الحكام وموظفيهم كانوا يعملون ليومهم ولستهم؛ أما العلماء ورجال العلم فكانوا يعملون للخلود. وها نحن أولاء نشعر شعوراً مكيناً بالدين الذي لهم في أعناقنا، ونجزبهم على ذلك بعرفان الجميل. إن ما نراه واضحاً حينما ننظر إلى الماضي يجب أن يكون واضحاً أيضاً حينما نسد نظرنا إلى الأمام، فيهدي خطانا إلى المستقبل.

### قيمة الشرق بين الشرق والغرب

من الناس من يتكلم عن الفرق بين الشرق والغرب. هذا الفرق موجود، ولكنه أقل أهمية من الفرق بين المادية والنفعية من جهة وبين المثالية من جهة أخرى. وهذه الموازنة الثانية بين المادية والمثالية مستقبلة عن المكان والزمان. إنها وجدت من قبل، ويمكن أن توجد في كل زمان ومكان. غير أن هنالك نفراً من الناس يريدون منا أن نعتقد أن سكان الشرق مثاليون، وإن سكان الغرب ماديون، وهذا ما يعلل عندهم لماذا كان الأولون أغنياء والآخرون فقراء. ولكن هذا بعيد عن الحقيقة، فهنالك فقر كثير في الغرب، وهنالك غنى كثير في الشرق. ولعل البون الشاسع بين الغنى والفقر - إذا اعتبرناه من كل ناحية - أعظم في الشرق منه في الغرب. إن الأفراد الأغنياء في الغرب هم على العموم أكثر كرمًا، وأوسع إحساناً، وأرجح حكمة في توزيع إحسانهم، ومن أولئك الشرقيين الذين يمتزج إحسانهم في أكثر الأحيان بحب الظهور وتطلب الوجاهة.

## الشرق مهد الدين والعلم والفن

ومع أن الشرق الأوسط كان مهد ديننا، ومهد مثلنا العليا في العلم والفن، فليس من الحق أن نقول أنه اليوم أكثر مثالية من الغرب. ولو أننا قلنا ذلك لكان ذلك منا ملقاً لا صدقاً، والملق يضر أكثر مما ينفع. أما اعتقادي الخاص، فهو أن رجال الشرق لا يختلفون اختلافاً أساسياً من رجال الغرب. فنحن نجدد في كل بلد جميع طبقات الناس، ما بين صرح القداسة وبين هوة الرذيلة. هنالك طبقة نزره العدد من الصالحين، ثم طبقة نزره العدد مثلها من الطالحين. أما الجمهور الغالب من الناس فهم ضحايا اختلاف أحوال العيش، ولكن يمكن إصلاحهم إلى حد بعيد بالعدل واللطف، كما يمكن إفسادهم بسهولة إذا فتحنا عليهم أبواب الشقاء والشر والكذب. إن المشكلة الأساسية في عالمنا اليوم (وفي كل يوم) هي مشكلة رفع المستوى الروحي لمجموع الناس<sup>(١١)</sup>، فإذا نحن خبنا في رفع المستوى الذي ينبغي أن يحيا عليه الناس كلهم فإن جميع حسنات مدينتنا تصبح حينئذ نقمة عليهم. ثم تنحدر بهم وتهلكهم، ونحن إذا جعلنا القيم الأساسية التي نأخذ بها في حياتنا العدل والإحسان والصدق، فإننا قد نجونا. أما إذا جعلنا تلك القيم الأساسية هي الرفاهية والمال، فسوف نكون من الهالكين.

## رسالة الشرق المقبلة

أقول مرة أخرى هنا إن المدنية ليست مرضاً، ولكن من الممكن أن تنقلب عند أهل الجدل شراً وفساداً. والمدنية ليست شرقية ولا غربية، وليس

---

(١١) مجموع الناس يضم الأغنياء والفقراء. على السواء.

مكانها في واشنطن أكثر مما هو في بغداد. إنها يمكن أن تكون في كل مكان يكون فيه رجال صالحون ونساء صالحات، يفهمونها ويعرفون كيف يستفيدون منها، من غير أن يسيئوا استعمالها.

والشرق الأوسط (إذا جاز لنا استعمال هذا الاسم) كان مهد الثقافة، ومنه جاءت أسباب إنقاذ العالم أثناء العصور الوسطى، حينما بدأ الستار الحديدي في أوروبا يشطر العالم شطرين: العالم المسيحي اليوناني الأرثوذكسي، والعالم المسيحي اللاتيني الكاثوليكي. وها نحن أولاء اليوم ننظر إلى ماضي الشرق الأوسط بعين من عرفان الجميل، ثم نرنو إلى مستقبله بعين من الأمل الحلو.

# الفنون والآثار الإسلامية

تأليف

ريتشارد إتنجهازون

ترجمة

محمد مصطفى زيادة

يقول العارفون أن لغة الفن "هي اللغة العالمية الوحيدة التي استطاعت البشرية أن تخرعها"<sup>(١١٢)</sup>. ومن الدليل على صحة هذا القول أن اختلاف الألسنة يحول بيننا وبين أفكار الفلاسفة والشعراء في لغة غير لغتنا، أو في بلد غير بلدنا، إلا عن طريق الترجمة، وأن هذه الأفكار - حتى بعد ترجمتها - لا تستغني عن التفسير التوضيحي الطويل. أما مبتكرات المعماري، والمصور، والخزاف، والنساج، وغيرهم من أرباب الصناعات الفنية، فهي على اختلاف بلادها سهلة النطق والفهم لإشباع حاسة الجمال فينا، ولو أن هذه المبتكرات تعوزها بعض شروح الأخصائي، لإدراك ما فيها من فنانة وإبداع.

وهذه الحقيقة تنطبق على فنون جميع الحضارات، وعلى فنون الحضارة الإسلامية ضمناً، ولم تكفد الفنون الإسلامية تصبح معروفة في غرب أوروبا حتى غدت موضع تقدير، بل لم تلبث نماذجها التي وصلت إلى أوروبا ثم أمريكا أن احتلت مكانة ممتازة عند المعنيين بالفنون. غير أن الفنون الإسلامية لم تصبح موضع الدراسة الفاهمة إلا بعد اثني عشر قرناً من ظهور الإسلام، وهذه الدراسة لا تزال حتى العصر الحاضر في دور البداية. ومع هذا يحق للباحث الأوربي والأمريكي كل منهما أن يغتبط لقيام الغرب على البحث التمهيدي من الدراسة والاستقصاء من أجل الشرق، وأن يحمد للغرب اجتهاده الباكر في هذا الميدان، لا في جمع الميسور من المادة التاريخية والأثرية فحسب، بل في استنباط القواعد الفنية لتقدير منتجات الفنيين المسلمين.

---

(١١٢) أنظر: Morey: The Fine Arts in Higher Education, p. 4.

ظل إمام الغرب بفنون الشرق الإسلامي ضيقًا محدودًا طوال العصور الوسطى، حين وقف الإسلام والمسيحية كل منهما في معسكر مضاد لأخيه، ليس بينهما من الاتصال السلمي سوى النزر المتقطع. وبالرغم من ذلك استقبلت بلاد المسيحية نماذج الفنون الإسلامية بتقدير كبير، وغدت المنتجات الفنية التي أبدعتها أيدي المسلمين موضع تشریف في أوساط مسيحية، خالتهما جدرة بأن تقرن بأعظم أدوات القداسة في الكنائس. من الدليل على ذلك أن أعظم كاتدرائيات المسيحية استخدمت بعض المنسوجات الرفيعة، من مختلف دور الطراز الإسلامية، غطاءً شفافًا لحفظ مخلفات القديسين المسيحيين (شكل ٤) أو طراحة أسقفية للصلوات الدينية (شكل ١)، بل صارت بعض هذه المنسوجات بذاتها موضع قداسة (شكل ٢). وفي كثير من الأحوال اشتملت هذه المنسوجات على كتابات عربية بعضها تسيحات باسم الله، ولكن هذه الدلائل على أصولها الإسلامية لم تمنع من الإعجاب بها، واستعمالها في طقوس كنسية مسيحية. وأكثر من هذا أن المصورين المسيحيين أواخر العصور الوسطى، وأوائل عصر إحياء العلوم في أوروبا، درجوا على زخرفة أذيال الملابس في صور العذراء غالبًا بأشكال وتزيينات من الكتابة العربية، وهذا كلما قصدوا أن يصورا العذراء في ملابس ذات جلال خليق بمقامها<sup>(١١٣)</sup>.

ولا يقل عن ذلك أهمية ومعنى أن بعض الكنائس المسيحية في العصور الوسطى استأدت - في طقوسها الدينية - أدوات وأوعية من البلور الصخري

---

(١١٣) ربما ظن أولئك المصورون بعض الأحيان أنهم أخذوا هذه الكتابات من أصول عبرية، ولكن مما لا شك فيه أنهم كانوا يقلدون الكتابة العربية في تصويرهم.

المزوق، مما يرجع أصل صنعه إلى مصر على عهد الإخشيديين والفاطميين، في القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي، وذلك بوضع هذه الأشياء الأثرية الإسلامية أو أجزائها في الأدوات والأوعية الكنيسية وضع الأحجار الكريمة في المعادن المصوغة، بدليل بعض الصلبان الكبرى الخاصة بمواكب الأعياد والمواسم، وأحقاق الغفران المتعلقة بالعشاء الرباني، وتركيبات الإضاءة في الكنائس. مثال ذلك أن حلقة هلالية الشكل، منقوشة باسم الخليفة الفاطمي أبو الحسن علي الظاهر لإعزاز دين الله (١٠٢١ - ١٠٣٦م) تحولت من حلقة لرقبة فرس الخليفة على الراجح إلى أعلى جزء من حق للغفران (Monstrance) من الفن القوطي المحدث (شكل<sup>(١١٤)</sup>).

وأغلب من هذا استعمالاً أن أواني إسلامية من البلور الصخري صارت أوعية دينية في الكاتدرائيات والكنائس، وأشهر هذه الأواني التي غدت من تحف بيوت العبادة المسيحية وعاء الدم المقدس **Reliquiario (de Sangue Miraculoso** بكاتدرائية القديس مرقص بمدينة البندقية بإيطاليا، إذ يحتوي سطحه الأسطواني على زخرفة عربية، فضلاً عن كتابة كوفية فيها اسم الله، ولم يمنع ذلك من استعماله وعاء لحفظ الدم المقدس. (شكل ٥). الواقع أن عددًا

---

(١١٤) من المحتمل كذلك أن هذه الحلقة البلورية استخدمت أولاً قمة العصاة أسقفية أو لصولجان، قبل أن توضع في حق الغفران المصور هنا  
أنظر:

Lamm: Mittelalterliche Gläser und Steinschnittarbeiten aus dem Nahen Osten, Berlin, 1929-1930, vol. 1, p. 213, no. 21.

من الكنائس المسيحية يملك كثيرًا من هذه الأوعية البلورية الشفافة، وهي مستعملة لحفظ مخلفات العذراء، أو حنا المعمدان، أو مريم المجدلية، وغير أولئك من القديسين والقديسات. أما موضع الأهمية في ذلك كله فهو أن هذه الأشياء الإسلامية لم تستخدم لأنها أواني زعيمة بحفظ مخلفات مقدسة، بل لأنها بسبب شفافتها دلت عقول الناس في العصور الوسطى على رمز من رموز ميلاد المسيح من العذراء الطاهرة. أليس من الوارد في كتب السلف أن المسيح تجلى في رؤيا للقديسة بردجت، وقال: "إني صرت لحمًا ودماغًا دون خطيئة أو شهوة، إذ مررت في رحم العذراء كما يمر شعاع الشمس في حجر كريم"<sup>(١١٥)</sup>.

ونحن نستطيع أن نذكر أدوات كنسية أخرى من أصول إسلامية، وهي مصنوعة من مواد مختلفة، مثل العاج والمعدن، لندل على مدى ما بلغ الإسلام من التأثير في فنون الغرب المسيحي عن طريق هذه التحف، ولكننا نمسك عنها خشية الإطالة. وكذلك لسنا بحاجة إلى الإطالة في شرح أشباه الكتابة العربية في مختلف المواد والأدوات الفنية في الكنائس (شكل ٦-٧)، ولا سيما أن هذا النوع من التحلية في العصور الوسطى ظل موضع الدراسة منذ مائة ونيف من السنين<sup>(١١٦)</sup>. على أن واحدة من هذه التحف-

---

<sup>(١١٥)</sup> وردت هذه العبارة في قصة أول رؤيا روحية لهذه القديسة الايرلندية، انظر:

Meiss: *Light as Form and Symbol in Some Fifteenth Century Paintings*, Art Bulletin XXVII, 1945, p. 177).

<sup>(١١٦)</sup> يتضح من شكل ٧ هنا أن تقليد الكتابة العربية مكتوب بطريقة الحفر والتشهير (hatching)، وهذا الشكل رقم ٧ مأخوذ من كتاب عنوانه

Longprier: *L'Emploi des Caractères Arabes dans l'Ornementation chez les Peuples Chrétiens de l'Occident*. Revue Archéologique, 11, 1845-1846 .

وهي السجادة الشرقية- تستحق التخصيص بإشارة عابرة، لأنها خلقت في الغرب إعجابًا متصلًا منذ أواخر العصور الوسطى إلى العصر الحاضر، إذ ازدانت الصور الإيطالية من أوائل القرن الرابع عشر الميلاد فصاعدًا بأنواع من السجاد الشرقي من مختلف العصور الإسلامية تحت عرش العذراء، أو تحت أقدام القديسين، أو فوق أرضية الغرف والدهاليز، أو فوق الموائد والمقاعد، أو غير ذلك من مواضع التشريف في هذه الصور. (شكل ٨-٩). ثم أضحت صور هذا السجاد الشرقي من الأهمية الفنية بمكان، لأنها حفظت لنا نماذج سجادية لا وجود لأصولها في العصر الحاضر.

وفي عصر إحياء العلوم في غرب أوروبا لم تكن الفنون الإسلامية ميدانًا مغلقًا مجهولًا، برغم انصراف العقول في ذلك العصر إلى الفنون اليونانية والرومانية القديمة، بل أعجب الفنانون الأوروبيون بطرق الزخرفة في الإسلام، ولا سيما الزخرفة النباتية (arabesque<sup>(١١٧)</sup>). من الدليل على ذلك، ما

---

p. 700. – Reich: "Une Inscription Mamlouk sur un Dessin Italien du quinzième siècle", Bulletin de l'Institut d'Egypte, XXII, 1940. p. 127.

حيث توجد قائمة بجميع المصادر في هذا الموضوع. وتنبغي الإشارة إلى أن Reich قصر بحثه في تلك المقالة (ص ١٢٣-١٣١) على صورة نقل فيها مصورها الأوربي- وهو من أساتذة التصوير في البندقية في القرن الخامس عشر الميلادي- نص كتابة عربية من مشكاة مطلية بالمينا للسلطان الملك المؤيد شيخ (١٤١٢-١٤٢١م)، وهذه الصورة وإن لم تكن فريدة في نوعها فهي نادرة، وهي محفوظة الآن في متحف اللوفر بباريس.

(١١٧) لم يصطلح علماء الآثار في بلاد العربية على ترجمة واحدة لهذه الكلمة المحدثنة في اللغات الأوروبية، فهي عند بعضهم الزخرفة النباتية، أو التوريقية، وهي كذلك "الزخرفة الحاملة"، بل أقترح بعضهم ترجمتها إلى "الزخرفة الساكنة" تمييزًا لها من الزخرفة بصور الكائنات الحية،

حدث حين قدمت جماعة من أرباب الصناعات المعدنية من الشرق الأدنى إلى البندقية في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي) إذ أخذت هذه الجماعة تصنع أواني وصحائف (أطباق) ذات زخارف نباتية بديعة التوزيع والتفريع، فلم يلبث الفنانون البندقيون أن حكوا هذا النوع من الزخرفة. (شكل ١٠-١١). ثم لم تلبث الزخرفة النباتية برغم تفرعاتها والتواءاتها وتعاريجها أن صارت أسلوبًا محبوبًا لدى الفنان في ذلك العصر الأحيائي، حتى أن المصور الألماني هو لباين الصغير - على أستاذيته وجلالته - لم يتردد في استنباط نماذج للزخرفة من هذا الأسلوب. (شكل ١٢ - ١٣) (١١٨).

ومن المعروف كذلك أن المصور العظيم رامبراندت الهولندي - وهو أستاذ ميدانه وزمانه - كان من أوائل الذين اجتذبهم علو المستوى الفني في تصوير الأحياء في بعض الصور التي وصلت إلى يده من إحدى البلاد الإسلامية، إذ امتلك منها رامبراندت مجموعة عددها خمس وعشرون منمة مغولية تيمورية، وبلغ من إعجابه بها أن صور لنفسه نسخًا منها، حين اضطرتة

---

نظرًا لما غلب على الزخرفة الإسلامية من استبعاد أشكال الأحياء، في الزخرفة والفنون عامة. زيادة.

(١١٨) انظر:

**Jessen. Der Ornamentstich Geschichte der Vorlagen des Kunsthandwerks seit dem Mittelalter, Berlin, 1 20, pp. 63, 103, 105, 73, and figs. 41, 42, 72**

وعن هذا الشكل الأخير نقلنا شكل ١٢ هنا. انظر كذلك شكل ٧٣، في كتاب (Jessen). وتدل زخرفة غلاف الكتاب المتقدم على مبلغ الاهتمام بالزخرفة النباتية في أوربا في عصر إحياء العلوم، إذ نقل المؤلف هذه الزخرفة من كتاب مطبوع في زيورخ عام ١٥٤٩، وهو

**Maureskenbuch Floetner:**

وللتعريف بهذا الكتاب أنظر كتاب (Jessen)، ص ١٠٥.

ضائقة أحواله المالية إلى بيعها سنة ١٦٥٦<sup>(١١٩)</sup>م. ومن هذه المنمنمات المنسوخة واحدة في متحف اللوفر في باريس، ويتضح منها ومن أخواتها أن رامبراندت استنسخها كلها في سرعة، مع إدراك خارق لكل ما فيها من تفاصيل فنية هامة. وهذه المنسوخة تصور أشخاصًا من السلالة التيمورية اللامعة، ففي وسط الجزء الأيمن من الصورة تيمور لنك نفسه جالسًا تحت الجتر، أي المظلة السلطانية، وهي من شارات الملك، وأمامه السلطانان أكبر وجهًا كبير راكعان، ووراءه من ناحية اليسار ثلاثة سلاطين آخرين، لعلهم عمر شيخ، وبابر، وهمايون. (شكل ١٤).

ومما يدل على أن امتلاك رامبراندت لهذه المجموعة من المنمنمات الإسلامية لم يكن من دافع نزوة شخصية، بل من دافع إعجاب وتقدير، أن كثيرًا من عظماء المصورين الإنجليز في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي، وأوائل القرن التاسع عشر كذلك، تداولوا امتلاك هذه المنسوخات وأصولها، وأن سير جوشوا رينالدز، رئيس المعهد الملكي للفنانين (Royal Academy) في لندن، أعجب بجموعه أخرى من منمنمات فاخرة، وهي الآن من كنوز المتحف البريطاني في العاصمة الانجليزية.

لكن الاهتمام الأوربي العلمي بالآثار الإسلامية بدأ منذ القرن الثامن عشر الميلادي.. ومن أول ما وصل إلى أوروبا من هذه الآثار مجموعة من نقود

---

(١١٩) انظر:

Sarre: "Rembrandts Zeichnungen nach indisch- islamischen Miniaturen".

ذوات سكة كوفية من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر الميلادي. وكانت هذه النقود وأشباهها مطلوبة أشد طلب في الشمال الشرقي من أوروبا أوائل العصور الوسطى، ولذا كثر ظهورها في القرن الثامن عشر الميلادي في أعداد كبيرة بكثير من البلاد الواقعة حول شواطئ البحر البلطي، وفي بلاد اسكندناوة، وشمال ألمانيا، وفي روسيا كذلك. وأدى ظهور هذه المسكوكات إلى بحوث جديدة في النميات (النقود) الإسلامية، وتألفت حولها مؤلفات غير قليلة. ففي سنة ١٧٢٤م ظهر في ليبزج بألمانيا بحث من تأليف جورج ياكوب كير<sup>(١٢٠)</sup>، وهو بحث أطلق عليه علماء الآثار اسم التأليف الأول في علم النميات الإسلامية، لصحة قراءة المؤلف للكتابة فضلاً عن جزالة الشروح؛ وهذا البحث هو الأول كذلك في علوم الآثار الإسلامية عامة<sup>(١٢١)</sup>.

على أن هذا القرن الثامن عشر الميلادي لم يختتم حتى صار لدينا قوائم (كتالوجات) لمجموعات من النميات الإسلامية بمختلف البلاد الأوروبية، ومن هذه المجموعة الكوفية في متحف بوجيا في روما، ومجموعة متحف نانيانو في بادوا، وكلاهما بإيطاليا، ثم مجموعة المكتبة الملكية في

---

(١٢٠) انظر:

**Kehr: Monarchiae Asiaticae-Saracenicae Status qualis VIII et IX .**

(١٢١) انظر:

**Mayer: The Rise and Progress of Moslem Archaeology (in Hebrew)**

**Jerusalem, 1935, p. 6 .**

وجدير بالذكر هنا أن ماير تفضل على مؤلف هذه السطور بترجمة إنجليزية لتلك المقالة، وهي أول محاضرة له في كرسي الأستاذية في تاريخ الفنون والآثار بالشرق الأدنى، بالجامعة العبرية بيت المقدس. ولكتاب جورج ياكوب كذلك فضل كبير في إعداد هذا الفصل.

جوتنجن بألمانيا، ومجموعة استوكهلم بالسويد. ثم انتهت هذه المرحلة الأولى من مراحل الدراسة في الآثار الإسلامية بتأليف فرايهرن أوائل القرن التاسع عشر الميلادي كتابًا رتب فيه النقود الإسلامية ترتيبًا تاريخيًا. وهو على ما فيه من أخطاء تفصيلية صغيرة ما برح غير مسبوق في ميدانه، بل لم يقم أحد بأية محاولة جديدة في تأليف آخر يحل محله<sup>(١٢٢)</sup>.

ولا يزال البحث في دراسة النميات قائمًا حتى العصر الحاضر، إذ جعلها هذا السبق في الطليعة بالقياس إلى الفروع الأخرى من الفنون والآثار الإسلامية. ففي السنوات الواقعة بين ١٨٧٥ و ١٨٩٥م أخرج ستانلي لينبول كتالوج النقود الشرقية بالمتحف البريطاني، في أحد عشر مجلدًا. وأعقبته كتالوجات مشابهة في مجلدات أقل عددًا لمجموعات بطرسبرج في روسيا سنة ١٨٨١ م، والمكتبة الأهلية في باريس (١٨٨٧-١٨٩٦م)، والمتحف السلطاني العثماني (١٨٩٤-١٩٠٣)، والمتحف الملكي في برلين (١٨٩٨-١٩٠٢ م). الواقع أن كثيرًا من المستشرقين وعلماء النميات ظلوا يعملون في هذا الميدان طوال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلادي، ولا حاجة لذكر أسمائهم أو أسماء اللامعين منهم، ولا سيما بعد أن أخرج ليو ماير كتاب كشاف النقود الإسلامية **Bibliography of Muslim Numismatics** لندن ١٩٣٩ م، وأحصى جميع مؤلفات هذا الموضوع حتى سنة ١٩٣٤ م. واجتذب ميدان النقود جماعة من علماء الولايات المتحدة الأمريكية، ودل كتاب تاريخ مدينة الري من مسكوكاتها،

---

(١٢٢) انظر المرجع السابق، ص ٦-٧.

تأليف مايلز (نيويورك، ١٩٣٨م) على طرق جديدة في ترتيب النقود الخاصة بأحد المراكز الإسلامية الكبرى، وموازنة حقائقها بأخبار المؤرخين المسلمين. غير أنه من المعروف الذي لا يحتاج إلى بيان أن النقود الإسلامية- على أهميتها من الناحية الأثرية- لا تستطيع أن تدخل في عداد الإنتاج الفني، لأن غالبيتها العظمى لا تحتوي على شيء فني سوى الكتابة ثم إن النقود المصورة، وهي التي تحتوي على صورة خليفة أو أمير، لا توجد إلا في النادر الشاذ. ومع هذا فالنقود فرع من الفروع المساعدة في هذا الميدان، لأنها تمد الباحث بحقائق تاريخية مادية.

ثم جاءت بعد البحث في النقود بحوث في نواح أخرى من الآثار الإسلامية تغلب عليها الصفة التاريخية، وأهمها النقوش والخطوط. ففي سنة ١٧٧٢ م أخرج كارستن نيبور قرآناً كوفيًا مزيّنًا ضمن كتابه وصف بلاد العرب (**Beschreibung von Arabien**)، لكن البحوث المنظمة في هذا الميدان لم تبدأ إلا بعد حوالي خمسين سنة من ذلك التاريخ. والواقع أن الكتابات الإسلامية لم تحتل مكانها من الأهمية العلمية إلا سنة ١٨٢٨ م، حين أخرج المؤلف رنيوه كتابه المسمى "وصف الآثار الإسلامية في مجموعة دوق بلاكاس"، وهو أول كتاب هام يبحث في مجموعة كاملة من الآثار الفنية الإسلامية الصغرى. وفي سنة ١٨٣٨ م أخرج المستشرق الفحل يوسف فون هامر برجشتال بحثًا في كتابة كوفية من مسجد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، بالقاهرة، كما ألقى سنة ١٨٤٨ م محاضرة جامعية في موضوع الأختام، وهذه طبعت فيما بعد. وفي سنة ١٨٤٠ م ألف ميخائيل أنجلو لانشي كتابًا في شواهد القبور الإسلامية، وأعقب ذلك سنة ١٨٤٥ - ١٨٤٦ بكتاب

عنوانه بحث في الصور الرمزية العربية، وفي تنوع الحروف الإسلامية في  
**Trattato delle simboliche** المواد المختلفة  
**e della varia generazione rappresentanze arabich**  
**de' musulmani caratteri sopra differente materie**  
**.operati**

وهو في ثلاثة مجلدات تبحث لا في مختلف أنواع الخطوط فحسب،  
بل في تنظيمات رموز الكواكب في نماذج الفنون الصغرى، والطلاسم،  
والتعاويد، والأسلحة، والرايات، والملابس.

وأخيرًا شهدت مطلع القرن التاسع عشر الميلادي يقظة الأوساط  
الأوربية إلى أهمية الآثار الفنية الإسلامية، ولا سيما الآثار المعمارية. وكانت  
إسبانيا أول البلاد التي أثارت هذه اليقظة فأدى ذلك إلى إنتاج مؤلفات  
ضخمة في مجلدات كبيرة. وأول رائد في هذا الميدان جيمس كافانا ميرفي،  
بكتابه الذي عنوانه الآثار الإسلامية في إسبانيا، وهو كتاب يتميز حماسة لكل  
شيء إسلامي، لا بتصويراته الجميلة للمباني الإسلامية وزخارفها وكتاباتها  
فحسب، بل بعنايته بصفحة العنوان، حيث سجل المؤلف السنة الهجرية  
(١٢٢٨ هـ) إلى جانب السنة الميلادية (١٨١٣ م) التي تم فيها طبع  
الكتاب (شكل ١٦). وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي  
نشط مؤلفون آخرون إلى البحوث الأثرية في إسبانيا، وأخرجوا نتائج بحوثهم  
في مطبوعات كثيرة. ومن أولئك دولابورد، وجيرو دبرانجي، جول جوروي،  
وأوين جوس، وغيرهم (شكل ١٧)<sup>(١٢٣)</sup>، وحوالي ذلك الوقت كانت فئة أخرى

---

(١٢٣) انظر:

من المؤلفين الذين امتدت بحوثهم إلى الآثار الإسلامية بجزيرة صقلية، وذلك عن طريق بحوثهم في الآثار الصقلية عامة.

وللقارئ أن يستفهم هنا عن السبب الذي أثار هذا الاهتمام الجديد بالآثار والفنون الإسلامية، وهذا السبب لا ريب هو المعروف في أوروبا باسم الحركة الرومانتيكية- أي الابتداعية- بما أثارته من الاهتمام بمعرفة المدنيات السابقة البعيدة عن زمنها ومحيطها. الواقع أن هذه الحركة التي أعجبت بتمثيل النبلاء اليونانيين، وصور الفرسان الأتقياء من الاقطاعيين، وشجعت إحياء النماذج اليونانية القديمة، والنماذج القوطية العصور الوسطى، لم تستطع إلا أن تعجب كذلك بالفن الإسلامي الذي أنتج عمائر باسقة مثل قصر الحمراء في غرناطة بإسبانيا الإسلامية، وهو "قصر طلته يد روحانية بحلة ذهبية، فصار كحلم من الأحلام، وشاع فيه الانسجام والتناسب"<sup>(١٢٤)</sup>

---

De Laborde: Voyage Pittoresque et Historique de l'Espagne. Paris, 1806-1820. De Prangey, G.: Monuments Arabes et Moresques de

وانظر للمؤلف

Grenade, Dessines et Mesurés en 1832 et 1833, Paris, 1836- 1839, Essai sur l'Architecture des Arabes et des Mores en Espagne, en Séville et en Brabarie, Paris, 1841 .

Goury and Jones: Plans, Elevations: Sections and Détails of the Alhambra, from Drawings Taken on the Spot in 1834, by the late Goury, in 1834, and in 1839 by Jones, (Arch, London, 1842-1845).

(١٢٤) جعل جودي وجونس هذه العبارة شعار الغلاف في الكتاب المشار إليه في الحاشية السابقة، وهذا الشعار مطبوع بحروف ذهبية كبيرة، وسط زخرفة الصفحة الأولى من المجلد الأول.

على أن هذا الاهتمام الجديد بالآثار الإسلامية لم يكن سوى فرع من تيار علمي أوروبي بدت ظواهره الأولى سنة ١٧٦٢ م، حين ظهر الجزء الأول من كتاب الآثار الأثينية، تأليف ستيوارت ورفت (Stuart and Revett) ثم غدت أهدافه واضحة فيما أعقب ذلك من جهود لكشف أصول الأفكار المعمارية في العصور القديمة. على أنه ينبغي أن نذكر هنا أن نوعاً من الاهتمام بالعمائر الأجنبية الغربية على الذوق الأوربي لم يكن معدوماً حتى قبل هذه السنة من القرن الثامن عشر الميلادي، مع العلم بأن الغاية من هذا الاهتمام في ذلك العصر المعروف في تاريخ الفنون باسم العصر الزخرفي المبهرج (Rococo)، لم تعد تنبيه الأذهان والأذواق الفنية إلى بناء العمائر الشبيهة بالشرقية، وابتكار المناظر البهيجة، ولا سيما في تنظيم الحدائق. ولعل أوضح الأمثلة على ذلك النوع من الاهتمام أن المعماري الإنجليزي سير وليام تشامبرز وضع تصميمات الحدائق والمباني ببلدة كيو- في إقليم صري قرب لندن حوالي سنة ١٧٦١، على أن يكون من هذه المباني مجموعة من الغرائب المعمارية، من معبد للأله اليوناني بان، وملهى للآلهة الرومانية أوجستا. وكاتدرائية قوطية، وبيت كونفوشيوسي، وباجودا صينية، وهكذا فضلاً عن بناء أطلقوا عليه اسم الهمبرا "الحمراء"، برغم خلوه من أية هندسة معمارية إسلامية إسبانية (moorish)، وفضلاً عن مسجد من الأسلوب المعماري التركي العثماني، وهو أول بناء من نوعه في غرب أوروبا. (شكل ١٢٥) ١٥). ومع أن سير وليام تشامبرز طلب إلى العالم الدكتور مورتون أن

---

(١٢٥) انظر:

يمده بكتابات عربية صالحة للمسجد، فإن عدم وجود محراب داخل ذلك المسجد دل على قلة معرفة ذلك العصر بما تكون عليه بيوت العبادة عند المسلمين. لكن الغرض الذي توخاه سير وليام تشامبرز لم يتطلب شيئاً سوى بهجة معمارية، مما تتصف به المباني التركية العثمانية (*turquerie*)، وبذا أحدث أسلوباً معمارياً جديداً شاع في أوروبا<sup>(١٢٦)</sup>.

---

**Chambers: Plans, Elevations Sections and Perspective Views in the Gardens and Buildings at Kew in Surrey, London 1763, pp. 5-6 pls. 20,**

**21, 27 and 28. ٨٢٤.** غير أن مبني الحمراء ومبنى المسجد في كيوتهدما قبل سنة ٨٢٤.

(١٢٦) أعقب مسجد حدائق كيو مسجد آخر شيده دوقات البلاطات في حدائق القصر في شفتزنجن بمدينة بادن قرب مانهايم بألمانيا، وقام على بناء هذا المسجد نقولا دي بجاجه سنة ١٧٧٨ م والسنوات التالية. والمسجد لا يزال قائماً، وأسلوبه الفني على وجه التعميم فرنسي اتباعي - أي كلاسيكي - وليس به من المعاني الشرقية التي أعجب بها ذلك العصر سوى المذنتين والكتابات العربية، ومع غموض الأسلوب الفني الإسلامي في هذا المسجد الألماني المعقد البناء، بالقياس إلى المسجد الانجليزي السابق له، فهذان المبان وأشبههما على جانب عظيم من الأهمية للدلالة على ميول الروح العامة الجديدة نحو الأساليب الفنية الإسلامية. انظر:

**Martin: Die Kunstdenkmäler des Amtsbezirks Mannheim, Stadt**

**Schwetzingen, Karlsruhe, 1933, pp. 289-312 .**

ومبنى إسلام آخر على طراز تركي مما أعقب مباني حدائق كيو هو كوشك - أي قصر - في حدائق هاجا شمالي ستوكهلم بالسويد، وكان تشييده بأمر من جستاف الثالث ملك السويد سنة ١٨٧٦ م، بعد عدة تصميمات قدمها إليه المهندس المعماري بيير. وهذا المسجد لا يزال قائماً. انظر:

**Sirén: China and Gardens of Europe in the Eighteenth Century, N.Y.**

**1950, P. 192.**

وكذلك اللوحة الملونة السابقة لصفحة ١٩٢، وكذا اللوحات ٣١، ١٦٤ - ١٦٦ من ذلك الكتاب. ثم إن الكتب الخاصة بالحدائق ذوات الأسلوب الجديد في القرن الثامن عشر

وثمة دافع آخر ليقظة الأوساط العلمية الأوروبية إلى دراسة الشرق الأدنى وفنونه وآثاره، وهو دافع التوسع الاستعماري والسياسة العسكرية في العصور الحديثة، مما يغفله الباحثون بعض الأحيان. مثال ذلك إحضار نابليون في حملته على مصر جماعة من العلماء لبحث شئون البلاد المصرية بحثاً شاملاً كاملاً، إذ أعد أولئك العلماء رسوماً تخطيطية للمدن، والمباني، والعمائر الأثرية، ورسموا مناظر معمارية للشوارع، والحارات، والمساجد، والدور، والحوانيت، والدروب، وأبواب الأخطاط؛ ورسموا كذلك مختلف الكتابات، والنقوش، والنقود؛ ولم ينسوا أن يعملوا صوراً توضيحية لأنواع الصناعات القائمة بمصر وقتذاك، فضلاً عن مختلف الأدوات المستعملة في هذه الصناعات، وكذلك الملابس والآلات الموسيقية، وهكذا. ونتج عن هذه الأبحاث تأليف ضخمة الحجم، وهو كتاب وصف مصر الذي استغرق طبعه من ١٨٠٩ إلى ١٨٢٨ م، في تسع مجلدات، وعشر أخرى للرسوم والصور التوضيحية، وأطلس للخرائط الجغرافية، وهذا الكتاب في مجموعه هو القاعدة الحقيقية والمنبع الحقيقي لمعرفة الآثار الإسلامية. (شكل ١٨-١٩). وبعد ذلك ببضع سنين، أي بعد أن استولى الفرنسيون على بلاد الجزائر، سنة ١٨٣٠ م، استطاع يوجين دلاكروا أن يقوم برحلة إلى مراكش

---

الميلادي لا تقتصر على نماذج من الأساليب الصينية الشائعة وقتذاك في أوروبا، بل تحتوي أحياناً على تصميمات ونماذج لمساجد وأكشاك تركية. انظر:

، وانظر Le Routge 1776- 1787. :Detail des Nouveaux Jardins Paris  
Lancaster: Oriental Forms in American Architecture, 1800-1870, Art  
Bulletin XXIX, 1947, pp. 185-90 .

لمعرفة ما تم من البحث في تأثير الأسلوب الفني الإسلامي في العمارة الأمريكية.

سنة ١٨٣٢ م، وهي الرحلة التي أودع في شرحها رسومه التخطيطية الشهيرة لمناظر الحياة في المجتمع المراكشي<sup>(١٢٧)</sup> الإسلامي، كما استطاع رافوازييه أن ينشر سنة ١٦٤٦ م كتابه الذي عنوانه "رحلة كشفية علمية ببلاد الجزائر في سنوات ١٨٤٠، ١٨٤٢، ١٨٤٣م". ومن هذه الحركة المازجة بين سيطرة دولة من الدول الأوروبية سياسيًا على بلد من بلاد الشرق الأدنى، وبين تشجيع هذه الدولة للبحوث الأثرية تشجيعًا ناشطًا في ذلك البلد، ما هو قائم حتى العصر الحاضر، بدليل تأسيس دائرة الآثار الفلسطينية على يد البريطانيين، سنة ١٩٢٠ م، بعد أن صار إليهم الانتداب على فلسطين، وإصدارهم مجلة ربع سنوية ذات قيمة علمية عالية أثرية منذ سنة ١٩٣١، ومهما تابنت الآراء بين النافع والضار التي أدت إليها السيطرة الأوروبية في الشرق، فإن هذا النشاط العلمي في ذاته أثمر أطيّب الثمر.

وفي أواسط القرن التاسع عشر الميلادي ظهرت دراسات تفصيلية أخرى في العمائر والمخلفات الإسلامية التي كشفت عنها جهود القوامين على الآثار الإسلامية في الجزء الشرقي من البلاد الإسلامية، وهي دراسات

---

(١٢٧) يوجد من هذه الكتب ذوات الرسوم التخطيطية ثلاثة في متحف اللوفر.

Paris, Musée National du Louvre, Exposition Eugene Delacroix...  
Juin-Juillet, 1 30, Paris No. 773-775

ويوجد كتاب رابع منها بمتحف كونديه في شانتيي. انظر:

Le Voyage de Eugène Delacroix au Maroc

جزء من مجموعة قصر شانتيي نشره Guiffrey في باريس سنة ١٩١٣. ومنذ بضع سنوات حصلت مكتبة بيربونت مورجان على الكتاب الخامس من هذه الكتب، وفيه رسوم غير مطبوعة.

انظر:

The Pierpont Morgan Library, Review of the Activities and Acquisitions  
of the Library, from 1936-1 40, N.Y, 1941, pp. 62-64, and p. 1. XII.

قام على معظمها مهندسون معماريون ورسامون. ومن أوائل هذه جهود باسكال كوست في كتابه الهندسة المعمارية الإسلامية، وهو الكتاب الذي جمع رسوماً لآثار مدينة القاهرة من مقاييسها، وتم طبعه سنة ١٨٣٩ م، بعد أن قام كوست على مسح هذا الآثار وقياسها من سنة ١٨١٥ إلى ١٨٢٥ م. وأعقب كوست كتابه هذا بسلسلة من الدراسات في الهندسة المعمارية الإيرانية، بالاشتراك مع المصور فلانندان، واستمر ظهور هذه السلسلة بين ١٨٥١ و١٨٦٧ م. ثم امتدت هذه الجهود إلى الآثار الإسلامية في مصر مرة أخرى، في مؤلفات بورجوان (١٨٧٣ - ١٨٩٢ م)، وكذلك بريس دافن (سنة ١٨٧٧ م)، وهي مؤلفات لا تقتصر على العمارة فحسب، بل تشمل مختلف الفنون الصغرى، فضلاً عن دراسة تفصيلية دقيقة للأشكال الهندسية في الزخرفة المعمارية، في مؤلفات برجوان. والرسوم التوضيحية في هذه المؤلفات تنم عن قيمة كبيرة ودراسة زعيمة بكل ثناء، برغم ما يتسم به بعضها من غلو الخيال، وبرغم قصور المتون في هذه المؤلفات نفسها عن مرتبة علمية عالية. ذلك أن هؤلاء المؤلفين لم تسبق لهم معرفة خيرة بالكتابات الواردة على المباني والأدوات التي تناولتها دراساتهم، ولم تتوفر لديهم الأساسيات التاريخية اللازمة للفهم التام، ولم تبلغ جهودهم مبلغ فهم اللزوميات المعمارية الإسلامية، بل غلب عليها تفضيل المتأخر المزوق عن المتقدم العاري عن التزييق والبريق، برغم التسليم باقتصار جهودهم على النواحي الفنية البحتة. مثال ذلك أن كوست عنى أكبر عناية بتصوير المباني في كتابه الخاص بالمعمار الإيراني، لكن تصويره لتصميم المسجد الأعظم في أصفهان أهمل الحجرة ذات القبة الصغيرة التي ترجع إلى سنة ١٠٨٨ م، وهي الحجرة التي

تعد في العصر الحاضر فخر الفنون المعمارية الإيرانية في العصور الوسطى<sup>(١٢٨)</sup>. ثم إن الرسوم التوضيحية على جمالها ورونقها في الأطلس الكبير الذي هو جزء من كتاب "رحلة في تركيا وإيران"، تأليف هومير دي هل (شكل ٢٠) تسر الناظر إليها على أنها انطباعات فنان من أهل القرن التاسع عشر الميلادي يزور إيران، لا رسوم ذات قيمة وصفية دقيقة للآثار المعمارية التي زارها، على وتيرة ما قام به المعاصرون له في رسوم المناظر الإيطالية. والواقع أن هذه الرسوم التوضيحية في أطلس هوميردي هل تشبه من هذه الناحية متبوع التقاليد في سابق الأطلس الكبيرة التي تصور الآثار الإسبانية وحولها جماعات من أهل البلاد، من باب الإضافة إلى زخرفتها. ومع هذا كله فلهؤلاء المؤلفين الأولين في فنون الشرق الأدنى فضل لا يغمط، وهو أنهم أودعوا مؤلفاتهم معلومات ذات قيمة علمية كبيرة عن مبان زالت بعد أيامهم تمام الزوال دون أن يبقى لها أثر.

أما مرحلة التحول النهائي نحو الدراسة للفنون الإسلامية فهي نتيجة جهود رجلين صرف كل منهما حياته في دراسة الناحية الأثرية من تاريخ هذه الفنون. وأول هذين الرجلين الاثنين يوسف فون كراباسك النمسوي (١٨٤٥ - ١٩١٨ م) الذي شمل اختصاصه، لا علوم النميات والنقوش فحسب، بل يرجع إليه الفضل في فتح ميادين بحثية جديدة، إذ هو المؤسس لعلم الأدوات الأوراق البردية العربية في الدراسات الإسلامية، وهو البادئ

---

(128) Coste: *Monuments Modernes de la Perse, Mesurés, Dessinés et Décrit*, Paris 1867, p. 1 IV .

لبحوث علم الرنوك الإسلامية. ثم إنه هو الذي افتتح البحوث الهامة في كتابات المنسوجات الإسلامية، حين عكف على قراءة هذه الكتابات في الأقمشة والملابس الكهنوتية بكنيسة مريم العذراء بمدينة داننترج (١٨٧٠ م)، وهو كذلك الأول في استخراج الحقائق والإشارات التاريخية من المراجع العربية والإيرانية لفهم أنواع السجاد الشرقي، كما هو واضح في كتابه التصوير الإيراني في صناعة السجاجيد (سنة ١٨٨١). وصفوة القول أن كراباسك هو الرائد الأول في سبيل إحياء الآثار الإسلامية محلاً تاريخياً واسع الآفاق، لأنه أدرك تمام الإدراك أهمية علم النقوش، فضلاً عن المراجع العربية نفسها، في تقدير الآثار الفنية. غير أنه من المؤسف أن نتائج البحوث التي قام عليها كراباسك جاء أغلبها ناقصاً، أو خاطئاً كل الخطأ، بسبب غلوه في الاعتماد على جامع الخيال. ولذا فليس مما يدعو إلى العجب أن إحدى خدماته الهامة غير المباشرة في ميدان التقدم في البحوث الأثرية الإسلامية جاءت عن طريق نقد جهوده، ولاسيما عن طرق البحوث والكشوف التي أثار هو معاصريه ولاحقيه إلى انتاجها. ثم إن كراباسك جدير بالاهتمام من ناحية أخرى، إذ بفضل جهوده صار علم الآثار لأول مرة من العلوم المحترمة في دوائر المعرفة، وتقديراً لهذه الجهود أنعمت عليه الحكومة النمساوية برتبة الفروسية، وعينته مديراً للمكتبة الملكية (Hofbibliothek) وسكرتيراً للمجمع النمساوي في فيينا<sup>(١٢٩)</sup>.

أما ثاني هذين الرجلين فهو ماكس فإن برشم السويسري (١٨٦٣-

(١٢٩) راجع.

١٩٢١ م)، وهو في شخصيته مختلف كل الاختلاف عن كراباسك، وفي أستاذه في النقوش العربية عميد لا نظير له. إذ بدأ حياته مستشرقاً مارنا أحسن مران، ولاسيما في التاريخ، مغرماً بالفنون الإسلامية أعظم غرام. ثم تحول فان برشم إلى الآثار الإسلامية تحوُّلاً طبعياً لعمله، بسبب ما تراءى له في الآثار من وسيلة للتعلم في الدراسة التاريخية، وكتب في ذلك سنة ١٨٩١ م يصف مختلف الفروع في الآثار الإسلامية- من معمار وفنون زخرفية وكتابات ونميات وأختام- بأنها "هي الوثائق التاريخية الدالة بأشكالها أو بكتابتها على المنشود من التاريخ، بالإضافة إلى المخطوطات التي تمد الباحث ببعض الحقائق". وبعد إقامته الأولى بمدينة القاهرة نوه فان برشم كذلك بأهمية هذا الميدان الجديد تنويهاً نصه: "انتهت إلى أهمية هذا الميدان من الدراسات التاريخية، وإلى المعونة الفريدة التي يستطيع هذا العلم على حدوثه وضالة أسسه أن يؤديها لتاريخ العادات والأفكار في الحضارة الإسلامية". على أنه أدرك كذلك أن البحث في الآثار الإسلامية يتطلب نوعين من العمل، وهما جمع الكتابات الواردة في الآثار الإسلامية في مصر والشام، حتى تيسر بذلك مجموعة من الكتابات التاريخية العربية ( *corpus inscriptionum arabicarum* )، ثم تأليف كتاب في الآثار الإسلامية من دراسة الآثار<sup>(١٣٠)</sup> نفسها. واختار فان برشم لنفسه النوع الأول من هذا العمل المزدوج، ونشر الكتابات التي جمعها هو في تأليف سماه بعض المواد

---

(١٣٠) هذا الاقتباس مأخوذ من فان برشم

#### Notes d' Archeologie Arabe, Monuments et Inscription Fatimites

المجلة الأسيوية، السلسلة الثامنة، ج ١٧ سنة ١٨٩١ ص ٤١١، ٤١٢، ٤٢٤.

اللازمة لمجموعة من الكتابات العربية (Matériaux pour un *corpus inscriptionum arabicorum*, Cairo) لأنه لم يرد أن يقصر جهوده على تأليف المجموعات الحاوية للنقوش وكفى، بل أراد أن تكون مواد هذه المجموعات بمثابة متحف أو خزانة مصرفية (clearing house) لتنظيم استثمار الحقائق الهامة في النقوش والتاريخ والآثار. غير أن ضخامة المواد التي جمعها فان برشم اضطرته أخيرًا إلى قصر جهوده على بحوث خاصة بالنقوش التاريخية، وتكوين هيئة علمية لمواصلة هذا العمل حتى النهاية. واختص فان برشم نفسه بإعداد المجلدات المتعلقة بالقاهرة وبيت المقدس، على أنه شارك خليل أدهم في إخراج الجزء الأول من المجلد الخاص بآسيا الصغرى، وهذا على حين اختص هرتزفلد بمدينة حلب وشمال الشام، واختص جاستونفيت بالمجلد الثاني المتعلق بمصر. وبالإضافة إلى الإشراف على هذا العمل الهائل، أخرج فان برشم عدة بحوث في نقوش مختلف العصور والأقاليم الإسلامية، من مراكش على عهد بني مرين إلى شوان شو بالصين على عهد المسلمين، دون أن يقلل ذلك من عنايته البالغة بمصر<sup>(١٣١)</sup> والشام. ثم توقف العمل في مواد هذه المجموعة الأثرية بسبب وفاة فان برشم سنة ١٩٢١ م، لكن جاستون فيت وسوفاجيه يعملان حتى

---

(١٣١) انظر: هرتزفلد وفان برشم، مجلة الإسلام (Der Islam) الألمانية، ج ١٢، سنة ١٩٢٢، ص ٢٠٦-٢١٣؛ وانظر كذلك:

Boissier In Memoriam Max Van Berchem في *Revue Archéologique*

الفرنسية، حيث توجد قائمة بمؤلفات فان برشم في السلسلة الخامسة، ج ٧، يناير- أبريل ١٩٢٣ ص ١٤٨-١٥٤.

الآن على إخراج مجلدات جديدة متعلقة بمكة، والمدينة، ودمشق، وربما امتد عملهما إلى بروصة واستانبول<sup>(١٣٢)</sup>.

وسوف يظل العمل مستمرًا في ميدان النقوش، بسبب ضخامة كمية المواد في مختلف البلاد الإسلامية، وسوف تزداد البحوث فيه عمقًا وتشعبًا، كلما تفتحت بلاد جديدة للكشف والدراسة. ويكفي أن نذكر هنا على سبيل البرهان أن قليلًا من غير المسلمين استطاع أن يدخل المساجد الإيرانية قبل سنة ١٩٢٠ م، وأن تصوير النقوش والكتابات الداخلية بهذه المساجد<sup>(١٣٣)</sup> تصويرًا شمسيًا (فوتوغرافيًا) كافيًا لأغراض البحث لم يبدأ قبل هذه السنة. ثم أنه فضلًا عن الكتب والمقالات الباحثة في نقوش المراكز الإسلامية الكبرى ظهرت مؤلفات أخرى لا تقل عن هذه أهمية، وهي تبحث في نقوش بعض بلاد الأطراف الإسلامية، ومثال ذلك كتاب النقوش الهندية الإسلامية (*Epigraphia Indo- Islamica*) تأليف هورفتر (١٩٠٩ - ١٩١٢ م)، وغلان يزداني بعده (١٩١٣ م)، ثم كتاب النقوش والكتابات العربية الاسبانية، تأليف ليفي بروفنسال (ليدن وباريس ١٩٣١ م)، فضلًا عن المطبوعات الخاصة بالنقوش والكتابات العربية في البلاد الروسية، والمجموعات التي نشرتها مدام فيرا كرتشكوفسكايا.

---

(١٣٢) انظر Sauvage: L' Archeologie Musulmane en France de 1939- 45. مجلة *Ars Islamica*، ج ١٣ - ١٤ "سنة ١٩٤٨" ص ١٥٧. وتوفي سوفاجيه فجأة بعد كتابة هذا الفصل، وسوف تتأثر هذه المشروعات بوفاته، بل يبدو الآن أن إكمال هذه المشروعات يتطلب جيلًا جديدًا من الأثريين.

(١٣٣) لاتزال جميع مساجد مراکش وبعض مساجد تونس ممنوعة على غير المسلمين، وهذا ما يجعل لمطبوعات مارسيه وتراس وغيرهما من الباحثين الفرنسيين أهمية كبيرة.

وحديثاً هيأ جاستون فيت مشروعاً عظيم الفائدة مشاركة مع اتين كومب وسوفاجيه، لإخراج المجموعة التاريخية للنقوش العربية التي ظهر منها حتى الآن ثلاثة عشر مجلداً تشمل جميع النقوش العربية المعروفة حتى سنة ٧٠٥هـ، أي ١٣٠٥ م، وعددها ٥٢٠٠ قطعة (القاهرة ١٩٣١ - ١٩٤٤). وأحدث من هذا مشروع لإصدار سلسلة من مطبوعات تشمل النقوش الشرقية عامة، لا النقوش الإسلامية فحسب، وتنشرها مدام كراتشكوفسكايا، ويحتوي العدد الأول (١٩٤٧ م) - وهو الذي وصل إلى العالم الغربي من هذه السلسلة حتى الآن - على مادة معظمها إسلامي. ومع أن رداءة الأسلوب اللغوي والرسوم التوضيحية في هذا العدد قللت من القيمة المنتظرة من هذه السلسلة، وهي رداءة غدت غالبية مع الأسف على كثير من المطبوعات الروسية الحديثة، ولاسيما بعد أن صارت خالية من الملخصات الفرنسية التي جرت العادة على تذييل المتون الروسية بها، فإن استمرار ظهور هذه السلسلة سوف يكون - على الرغم من ذلك كله - منيع فائدة لدراسة النقوش.

غير أنه على حين يبدو واضحاً مما تقدم هنا أن دراسات النقوش أضححت من الدراسات المستقرة القواعد بين الباحثين، لم تتعد البحوث في ميدان الخطوط مرحلة الطفولة الأولى، على قربها من ميدان النقوش. ومصدق ذلك أنه إذا استثنينا الدراسات العميقة للأوراق البردية العربية التي يحتل فيها أدولف جروهمان مكانة الأخصائي الراسخ البارز، فليس لدينا ما نستطيع الإشارة إليه في علم الخطوط سوى مجموعات لأنواع معينة من الكتابة العربية، جمعها كل من وليام رايت، ومورتر وشارل ايوار، وثيسران، وآرثر آربري، وكونيل، ودلافيدا، وغيرهم. وباستثناء بحوث الأنسة نبية أبوت

في أشكال الخط الكوفي في العصور الإسلامية الأولى، ولاسيما بحوثها في كتابها الذي عنوانه "ظهور الكتابة العربية في شمال بلاد العرب" (شكاجو ١٩٣٩ م) فليس يوجد لدينا من البحوث العلمية الفاهمة في عصور هذا الميدان سوى الضئيل القليل، وبخاصة فيما بعد القرن الثالث الهجري. وهذا يؤسف له كل الأسف، لأن علو مكانة الخط في البلاد الإسلامية ينبغي أن يجتذب دراسات متصلة في هذا الميدان الهام.

وثمة فرع آخر من فروع الدراسات التاريخية الداخلة في دائرة الآثار الإسلامية، وهو علم الرنوك، وهذا يستأهل تنويهاً خاصاً به في هذه العجالة القصيرة في الآثار الإسلامية، لأنه موضوع أصبح ميدانه معروفاً تمام المعرفة تقريباً، إذ بعد قيام يعقوب أرئين ببحوث تمهيدية فيه من سنة ١٨٨٧ إلى ١٩١٢ م أخرج ليو ماير سنة ١٩٣٣ م تأليفه النموذجي الذي عنوانه الرنوك الإسلامية (Saracenic Hleraldry)، وأودع فيه بحوثه الدقيقة في هذه المنشأة الأيوبية المملوكية، معتمداً على مختلف المراجع العربية التاريخية المعاصرة، وجميع ما كشفه الكاشفون حتى تلك السنة من الآثار والأدوات ذوات الرنوك. ثم أعقب ماير ذلك التأليف بمقالات تكميلية لبحوثه السابقة، مبتغياً من ذلك أن يشرح بعض الرنوك المستعصية شرحاً جديداً، وأن يضيف إلى مواده ما جد عليه من أدوات ذوات شارات رنكية.

ومن المعنيين بالآثار الإسلامية كذلك جماعة من العلماء أخذوا في دراسة مواد هذه الآثار من الناحية الفنية فقط، فاتبعوا بذلك طريقاً مختلفاً عن طرق سائر الذين تقدمت أسماؤهم في دراسة الفنون والآثار الإسلامية. ولم تتطلب بحوث هذه الجماعة من الحقائق التاريخية سوى أسماء الخلفاء

والسلاطين والأمراء، وتواريخ عهودهم ومنشآتهم، وأسماء الفنانين في قصورهم، ليجعلوا منها هيكلًا أو إطارًا لبحوثهم. أما المقاييس والوسائل التي استعانت بها هذه الجماعة على تقدير موادهم وشرح قيمتها، فهي الأسلوب الفني وعلم الصور (iconography) والصنعة. وأعظم شخصية بين هذه الجماعة فردريش زرده<sup>(١٣٤)</sup> (١٨٦٥ - ١٩٤٥ م) الذي عكف منذ سنة ١٨٩٥ م فصاعدًا على دراسة الآثار الإسلامية من إسبانيا إلى الهند، لا من نواحي المعمار والتصوير والفنون الصغرى فحسب، بل من نواحي الأصول الفنية السابقة لهذه الآثار الإسلامية تاريخيًا، أي نواحي علاقتها بالفنون والصناعات الفنية في أوروبا والشرق الأقصى، وذلك في نحو مائتين من الكتب والمقالات. وفي كثير من هذه البحوث الدقيقة التي اشترك معه غالبًا في إخراجها علماء ممتازون في النقوش، استطاع فردريش زره، أن يعين الوضع التاريخ والجغرافي لمجموعات من الآثار والأدوات الإسلامية تعيينًا آثر عليه بعض الأحيان معارضات لم يلبث أن ظهر بطلانها وعدم صحتها. ونظرًا لما انطوت عليه بحوثه في المعاني والأهميات أضحي من الطبيعي أن يكون أول باحث في هذا الميدان نشر لمؤلفاته المتعددة النواحي فهرس مشروح.

ولدينا في سالادان وجاستون ميجون شخصيتان أخريان ذاتا أهمية في هذا الميدان، إذ أخرجتا تأليفًا اسمه "كتاب في الفن الإسلامي" في مجلدين (باريس ١٩٠٧ م) وتناولتا فيه كل فن من الفنون الإسلامية على حدة، من معمار وتصوير وفنون صغرى، متبعين في ذلك طريقة البحث الباكر الذي قام عليه ستانلى لينبول

---

(134) Schmidt: Friedrich Sarre. Schriften, Berlin 1935

في كتابه "فن المسلمين في مصر". وهذان المجلدان اللذان أخرجهما سالادان وميجون قبل الأوان، نظرًا لقلة المواد المعروفة لهما وقتذاك، يدلان على مبلغ روح الاقدام في هذين الرجلين. بل الواقع أن بحوث سالادان في المعمار لم يستطع أحد أن يضيف إليها من الناحية العامة، وهي لا تزال موضع أهمية معينة، بدليل طبع هذا الكتاب طبعة ثانية سنة ١٩٢٧م. ومع أن كل فصل من فصول هذه الطبعة الثانية جاء ضعف حجمه في الطبعة الأصلية الأولى، لم يستطع القائمون على هذه الطبعة الثانية أن يستوعبوا فيها جميع المواد الأثرية التي أضحت في متناول الباحثين. مثال ذلك أن الفصول المعمارية الفائقة التي كتبها مارسيه لم تتعد المغرب وإسبانيا وصقلية الإسلامية، وأن المجلدين اللذين كتبهما ميجيون لم تخل محتوياتهما من بعض الخطأ. على أن هذا الكتاب الحافل أصبح نموذجًا ومنبعًا كذلك لكثير من المؤلفين في الفنون الإسلامية عامة، ومن أولئك ديتز (١٩١٧م)، وكونل (١٩٢٥)، وجلوك وديتز بالمشاركة (١٩٢٥م)، وآخرهم ديمان الذي جاء كتابه (١٩٣٠) أول تأليف في اللغة الإنجليزية في التصوير والفنون الصغرى، وكذلك أول تأليف يعتمد كل الاعتماد في مادته على مجموعة أثرية واحدة، وهي مجموعة متحف متروبولتان في مدينة نيويورك<sup>(١٣٥)</sup>. وفي بلاد العربية هذا زكي

---

Diez: Die Kunst der Islamischen (١٣٥) انظر:

Volker.

Kuhnel: Islamische Kunst, Berlin 1917. Kleinkunst, Berlin, 1925:

Gluuck and Diez: Die Kunst des Islams, Berlin 1925.

Diez: A Handbook of Mohammedan Decorative Art. New York.

حسن ذلك الحدو، في كتابه ذي الصور التوضيحية الجيدة في فنون إيران الإسلامية، وعنوانه الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي (القاهرة- طبعة ثانية- ١٩٤٦م<sup>(١٣٦)</sup>). ومن الملحوظ في هذه الكتب أن المعمار- وهو في بعض هذه الكتب لا كلها- يحتل فصولاً مستقلة عن التصوير والفنون الصغرى، وأن الفنون الصغرى نفسها مفصلة إلى مواد متنوعة لشرحها واحدة بعد أخرى. والواقع أن هذا الترتيب العام سرى إلى موسوعة الفن الإيراني التي قام على نشرها بوب عام (١٩٣٨- ١٩٣٩م) (Survey of Persian Art) وهي في ست مجلدات ضخمة استعرض فيها مؤلفوها- وعددهم تسع وستون مؤلفاً- مختلف أطوار الفن الإيراني من العصر الحجري إلى القرن التاسع عشر الميلادي. غير أن هذه الطريقة على الرغم من تسهيلها فهم التطور الفني في متنوع مواد الآثار، تجعل من المستحيل على الباحث أن يستخلص منها منظوراً تاريخياً صحيحاً، أو أن يستخرج منها صورة حقيقية للروح (zeitgeist) التي تنبئ عن نفسها في أسلوب مجموعة المواد الأثرية الخاصة بعصر على حدته، وهي على أية حال طريقة تشبه تنظيم المتاحف العامة في القرن التاسع عشر الميلادي.

---

والطبعة الثانية من هذا الكتاب عنوانها: Handbook of Muhammedan Art. وقام أحمد عيسى أمين المكتبة العامة بجامعة القاهرة على نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية لمؤسسة فرانكلين، والكتاب الآن تحت الطبع، وعنوانه الفنون الإسلامية. زيادة.

(١٣٦) ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٤٠م، وقبل ذلك- أي ١٩٣٥م- أخرج المؤلف الجزء الأول من تاريخ الفن الإسلامي في مصر، وهذان الكتابان اللذان أخرجهما زكي حسن، من مطبوعات متحف الفن الإسلامي في القاهرة (دار الآثار العربية سابقاً). وحديثاً أخرج هذا المؤلف كتاباً في فنون البلاد الإسلامية قاطبة، سماه: فنون الإسلام (القاهرة، ١٩٤٨) غير أن كاتب هذه السطور لم يطلع على هذا الكتاب الأخير.

وأول خارج على طريقة سالادان وميجيون من رجال الآثار هو كونل في الجزء الذي أسهم به في تاريخ الفن (**Handbuch der Kunstgeschichte**) الذي قام على نشره شبرنجر (سنة ١٩٢٩ م)، إذ عالج كونل في ذلك الجزء جميع الفنون لكل عصر بذاته من مختلف العصور، واستطاع بذلك أن يبين حلقات الاتصال من متنوع مراكز الفن، وكذلك حلقات الاتصال بين مختلف الأدوات الأثرية. وحديثاً أخرج مارسية وحده الكتاب الأول من هذا النوع، واسمه الفن الإسلامي (باريس ١٩٤٦ م)، وهو مدخل مختصر دقيق بالغ الفائدة في موضوعه.

أما أول الباحثين الذين مزجوا بين طرق البحث التاريخي والتحليل الفني فهو ارنست هرتزفلد (١٨٧٩ - ١٩٤٨ م)، وذلك لأنه تعلم تعليماً نظيمًا ليكون معماريًا ومؤرخًا للفنون ومستشرقًا، وبذا اجتمعت فيه صفات جعلته مؤهلاً أكمل تأهيل للمزج بين صرامة طرق البحث التاريخي المستند إلى فهم محتويات المؤلفات التاريخية والنقوش والنقود وبين التقدير الذاتي الخاص للمستوى الفني في الآثار. وعلى مقتضيات هذه الطريقة بحث هرتزفلد آثار إيران والعراق والشام، ولا سيما عمائرهما، وزخارفهما وتصاويرها، ونقوشها، في عدة رحلات إلى الشرق الأدنى، حيث قام على عدد من الحفائر والأعمال الاستكشافية؛ ومؤلفاته العديدة في مختلف الموضوعات الأثرية أضحت في الواقع مما لا يستغني عنه كل باحث في ميدان الآثار<sup>(١٣٧)</sup>.

غير أن الجنوح إلى التخصص الذي أصبح ظاهرة ملحوظة النمو في

---

(١٣٧) Miles: The Writings of Ernest Herzfeld

في مجلة Chrs, Islamica ج ٧ سنة ١٩٤٠، الصفحات ٨٢ - ٩٢ وسوف يظهر ملحق

بمؤلفاته في هذه المجلة ح ١٥ - ١٦ سنة ١٩٥١ م.

مختلف العلوم والبحوث في هذا القرن العشرين الميلادي، أصبح ظاهرة ملحوظة كذلك في ميدان الفن والآثار الإسلامية. والدليل على ذلك جماعة الباحثين الذين يقصرون أنفسهم على إقليم واحد، أو مادة أثرية واحدة. ومع ما في هذا التطور الجديد من وجوه النقص نتيجة ما يحتمل من إغفال الصلات الفنية بين مختلف مراكز الآثار الإسلامية، فضلاً عما يحتمل كذلك من قلة التقدير للأفكار الفنية المتبادلة بين أرباب الصناعات، فلا محيص عن التخصص في بعض الفروع الكبرى في ميدان الآثار، أي المعمار، والتصوير، وفنون المنسوجات. بل يبدو أن هذا التطور عامر بالفائدة إلى حد معين، نظراً لكثرة عدد المطبوعات الواصفة للآثار والأدوات الفنية الأثرية كثرة مستمرة. ومن طليعة هذه الفئة الجانحة إلى هذا التخصص كرزويل مؤرخ العمارة الإسلامية، ونتائج معظم بحوثه واضحة في مؤلفه الضخم الذي عنوانه المعمار الإسلامي في صدر الإسلام. في ثلاثة مجلدات (أكسفورد، ١٩٣٢-١٩٥٠) كذلك في مؤلفاته المرتقبة الظهور في المعمار الإسلامي المصري. ونحن مدينون كذلك بكثير من الفضل هنا لمؤرخ معماري آخر، وهو ألبير جابريل الذي أخرج دراساته في الآثار المعمارية في تركيا العثمانية في عدة مجلدات، ومنها كتاب الآثار التركية في الأناضول، في مجلدين (باريس، ١٩٣١-١٩٣٤ م)، وكتاب رحلات أثرية في تركيا، في مجلدين (باريس، ١٩٣٤ م)، وكتاب القصور التركية حول شواطئ البوسفور (باريس ١٩٤٣). وممن قام بخدمات جليلة كذلك في هذا الميدان جرترود بل، وجيرلت، ورويتز، وكولن- وينر، وتراسي، وجودارد وسوفاجيه، وسمث، وولبر، وغيرهم. ومن المؤسف أنه يستحيل على كاتب هذا الفصل القصير أن يذكر شيئاً من

فاتق البحوث التي قام عليها مختلف الباحثين في كل فروع الآثار، ولا بد من الاختصار على أسماء بضعة فقط من أولئك الباحثين. ففي شاسع ميدان الفنون الزخرفية نستطيع أن نشير أولاً إلى الجهود التي قام عليها والسن، وريجل، وبود، وثانياً إلى المطبوعات النموذجية التي أخرجها زره وكونل، وأخيراً إلى الدراسات العالية التي قام عليها مارتان، وكوشلان، ومارسيه، وفون فالكه، وريفشتال، وديماند، وأغا أوغلو، ولام، واردمان، وداي ولين، ورايس، وبهرامي، وغيرهم. واجتذب التصوير عقول كثير من الباحثين والخبيرين بالفنون، ومنهم بلوشيه، وشولتز، ومارتو، وفيفير، وسيرتوماس آرنولد، وساكسيان، وستوكين، ودي لوري، ومونيريه دي فيلار، ودياكوف، وشرويدر، وبوختال، وأولئك بالإضافة إلى بنيون وولكنسون، وجراي، الذين اشتركوا ثلاثتهم في تأليف كتاب المنمنمات الإيرانية (لندن، ١٩٣٣ م)، وهو أحسن كتاب في موضوعه.

وثمة جماعة أخرى من الجانحين إلى التخصص هي جماعة العامدين إلى وصف التراث الأثري في إقليم معين، ولهذه الجماعة ينتسب جوميز مورينو، وتوريس بالباس، وفرانديس، وهو الذي تركزت ميوله في الفن الإسباني المغربي (Hispano -Moresque)، ثم كومارازوامي، وبراون، وجوتز، وهو الذي وصف الفنون الإسلامية في الهند. وأنتج الاهتمام الحديث بالكشف عن الماضي جماعة أخرى من أولئك الأخصائيين وهم علماء الحفائر، وعلى رأسهم هرتزفلد الذي لا يدانيه أحد، ومنهم كذلك أيتون، وهاوزر وولكنسون، وأولئك الثلاثة من الولايات المتحدة الأمريكية، ولعل أكثر هذه الجماعة كلها توفيقاً ونجاحاً شلومبرجر الألماني.

على أن التطور والجنوح نحو هذه الميادين الأخصائية يدل في ذاته على ازدياد الاهتمام بالفن الإسلامي، واستمرار التوفيق في كشف مواد فنية جديدة، فضلاً عن جديد الإمعان في شرحها. وبرهان ذلك اعتقاد فون لسنج سنة ١٨٧٧ م- أي حين نشر كتالوج السجاد الشرقي في الصور الأوربية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي- أن أصول ذلك السجاد غير موجودة البتة. غير أن كتالوجًا مطبوعًا لخمسة سنوات بعد ذلك التاريخ اشتمل على صور ست سجاجيد قديمة محفوظة لدى أصحابها مقطوع بوجودها، حتى إذا وصلنا إلى سنة ١٨٠٠ م ألفينا عدد السجاجيد المعروفة، والمصنوعة قبل هذا التاريخ، تزيد على الألف، بل لدينا قطع صغيرة وكبيرة من سجاجيد يرجع تاريخها إلى أوائل العصور الوسطى. ثم أن المؤلفات في هذا الميدان أضحت من الكثرة بحيث أصبح الباحث في حاجة إلى كشف أو فهرس لإرشاده، مع العلم بأن دور التحليل والشرح في موضوع السجاجيد الشرقية لا يزال كذلك في دور الطفولة الأولى. وهذه الملحوظة لا تقتصر على الإشارة إلى دراسات الرسوم فحسب، بل إلى دراسات الكتابات النظامية الإيرانية.

ويتضح نمو مثل هذا الاهتمام في دراسة التصوير، ومن الدليل على ذلك أن فان برشم لم يذكر التصوير قطعاً سنة ١٨٩١ م، حين رتب فصول كتابه الذي أزمع تأليفه وتسميته "كتاب في الآثار الإسلامية، وذلك لأن شيئاً لم يكن معروفاً وقتذاك عن هذا الموضوع. والواقع أن التصوير الإسلامي لم يصبح ذا موضوع بين الباحثين إلا بعد أن كشف موزيل مجموعة الصور الحائطية في القصر الأموي في قصر عمره بالشام، سنة ١٨٩٨ م إذ أدى وصول أخبار هذه الصور إلى دهشة وحيرة بين المستشرقين الأوربيين، نظرًا لما هو معروف من

الكراهية التقليدية والتحریم الجامد للصور في الكتب الفقهية الإسلامية، كما أدى إلى جدل طويل حول الموقف الديني من التصوير في الإسلام. ثم أدت كشوف هرتزفلد لعدد من الصور الحائطية بعد ذلك بقليل في سامرا سنة ١٩١١م إلى اعتبار فن التصوير ناحية من نواحي الحضارة الإسلامية، حتى إذا عثر علماء الحفائر حديثاً على صور ذات مقاييس كبيرة في قصر الحير الغربي بالشام كذلك (١٩٣٦م)، وفي نيسابور بإيران (سنة ١٩٣٩م)، لم يبق وجود هذه الصور موضع دهشة أو حيرة بين الباحثين، بل تركز اهتمامهم في تحديد تواريخها، وأساليبها، وقيمتها التصويرية الفنية. وليس أدل على مدى تقدم معرفتنا بالصور الإسلامية في العصر الحاضر من وجود فهرس تاريخي لمؤلفات الباحثين في هذا الفرع من فروع الفن الإسلامي. فأول قائمة شاملة لمجموعة من المنمنمات، وهي مجموعة المكتبة الأهلية بباريس، هي التي ظهرت على ش كل كتاب، من تأليف بلوشيه، سنة ١٩٠٠<sup>(١٣٨)</sup> م. أما أول كتاب في التصوير الإسلامي ومدارسه المعروفة نقلاً عن المجموعات الكبرى للصور، فكان ظهوره سنة ١٩١٢، وهو من تأليف مارتان<sup>(١٣٩)</sup>. وشهدت السنة نفسها كذلك أول

---

(138) Erdman: *Orientalische Tierteppiche auf Bildern des XIV and XV, Jahrhunderts* Jahr. d. Pruess. Kunstsamml.: 1929, pp. 261-98.

٢٧ (مكررة في الأصل) انظر *Inventaire et Description des Miniatures des Manuscrits. Orientaux Conservés à la Bibliothèque Nationale, Paris, 1900*

(139) Martin: *The Miniature Painting and Painters of Persia, India and Turkey from 8th to 18th Century*, London 1912 .

كتاب يبحث في مخطوط مزين بالزخرفة<sup>(١٤٠)</sup>، ولو أن المؤلفات الخاصة بمخطوط بذاته لم تكثر إلا بعد سنة ١٩٢٥<sup>(١٤١)</sup> م. على أن أول تأليف يبحث في صورة واحدة بذاتها لم يظهر إلا سنة ١٩٤٨ م، وهو مؤلف مصري<sup>(١٤٢)</sup> من بلاد العربية، على حين أن جميع المؤلفات المتقدمة جاءت من غرب أوروبا، ومن مؤلفين أوروبيين.

وعلى مر السنين أدى ازدياد اليقظة إلى أهمية الفن الإسلامي - في مختلف البلاد الإسلامية - إلى أعداد القوائم الخاصة والكتالوجات المرتبة ترتيبًا علميًا، وهي قوائم المباني والعمائر، وكتالوجات الأدوات الأثرية. وأول هذه ما قام عليه جماعة العلماء الملحقة بجيش نابليون في مصر، مما تقدمت الإشارة إليه فيما سبق. ثم انقضى ما يزيد على خمسين سنة قبل أن يبدأ العمل ثانيًا في هذا النوع من البحث، والرائد الأول بين فئة الأثريين الذين وقفوا جهودهم على البحث في آثار إقليم واحد بأسره هو فيكتور جيران

---

وللمؤلف المتقدم كتاب: (140) Les Miniatures de Behzad dans un

Manuscrit Persan daté 1485, Munich, 1912.

(141) Glück: Die indische Miniaturen des Hamzae-Romanes ، راجع

Arnold: The Miniatures in Hilali's Poem, The King and the

Dervish, Vienna 1926 .

Martin: Miniatures from the period of Timur, Vienna 1926، وانظر كذلك

Martin and Arnold: The Nizami MS, Illuminated by Behzad وكذلك

Mirak and Kazim Ali, British Museum, Or. 6810, Vienna 1926.

(١٤٢) بشر فارس: منمنمة دينية تمثل الرسول من أسلوب التصوير العربي البغدادي، منشورات

المجمع العلمي المصري، ج ٥١، القاهرة سنة ١٩٤٨.

الذي أخرج بحثاً في كثير من المباني والمواقع الأثرية في فلسطين، ومهد بذلك لبحوث دائرة الآثار الفلسطينية<sup>(١٤٣)</sup>.

وتحققت مرحلة أخرى في هذا الميدان سنة ١٨٨١م، حين ألف جوليوس فرانز وروجرز لجنة حفظ الآثار العربية في مصر، بأمر الخديوي محمد توفيق، على أن تكون هذه اللجنة تابعة لوزارة الأوقاف. وتعينت أعمال هذه اللجنة في محضر أول اجتماع لها، أول فبراير سنة ١٨٨٢م ومن نصه:

١- إعداد قائمة بالمباني الإسلامية ذوات الأهمية المعمارية الفنية والتاريخية.

٢- مراقبة ترميم وحفظ هذه المباني، بتقديم مقترحات لوزير الأوقاف بشأن الأعمال اللازم إجراؤها لذلك، والإشارة عليه بالحالات المستعجلة.

٣- فحص مشروعات الترميم لهذه المباني، والتصديق عليها، والعناية بتنفيذها في دقة.

٤- تحمل المسؤولية في حفظ الأوراق لجميع هذه المشروعات في أرشيف وزارة الأوقاف والإشارة على وزير الأوقاف بما ينبغي نقله من الآثار المعمارية إلى المتحف الأهلي (وقتذاك) لحفظه<sup>(١٤٤)</sup>.

وهكذا لم تقتصر جهود هذه اللجنة على إعداد القوائم للآثار الإسلامية في مصر، بل تعدتها إلى القيام على ترميمها وحفظها. ولا تزال أعمال هذه

---

(143) Leo Mayer: Saracenic Heraldry, p. 12.

(١٤٤) لجنة حفظ الآثار الإسلامية: محاضر الجلسات، القاهرة سنة ١٨٨٤.

اللجنة مستمرة حتى العصر الحاضر، ومطبوعاتها الثمانية والثلاثون المشتملة على مراحل نشاطها (وتاريخ آخرها ١٩٤٤م) منابع هامة للمعلومات الأثرية.

ثم أخذت بلاد أخرى تحذو حذو مصر، فقامت في إيران مثلاً جمعية الآثار الأهلية (أنجمن آثار ملي)، وحديثاً قامت إدارات حكومية في عدة دول إسلامية على رصد آثارها، وتركيز العناية نحو الآثار الهامة المفترقة منها إلى الترميم بإنجاز هذا الترميم.

ومنذ ثلاثين سنة تقريباً قام جماعة من الباحثين فضلاً عن ذلك كله بإعداد القوائم المؤرخة (check lists) للآثار الهامة، وهذه القوائم أداة علمية عظيمة الفائدة للمعماري والمؤرخ معاً، ومنها (مؤرخة الآثار الإسلامية في مصر حتى سنة ١٥١٧م، تأليف كرزويل (١٩١٩م)، وكشاف المباني الأثرية في حلب، وعددها مئة وواحد وعشرون مبنى إسلامياً (١٩٣١<sup>(٤٥)</sup>)، وقائمة المباني الأثرية في اصفهان، تأليف جودارد (١٩٣٧م).

غير أن تأليف القوائم والكتالوجات لمختلف المجموعات الأثرية جاء أكثر صعوبة وتعقيداً من تأليف القوائم والكتالوجات للمباني والعمائر، بسبب تنوع مواد المجموعات وبعثتها في قارات الأرض، ولذا غدا ترتيبها ومضاهاتها بالمواد المشابهة من الصعوبة بمكان. وعلى الرغم من ذلك استطاع زره (مشاركة مع متفوخ) أن يخرج كتالوج مجموعته من الأدوات المعدنية سنة ١٩٠٦م، وهو كتالوج لا يزال مرجعاً هاماً في موضوعه. على أن الإدارة

---

(145) Sauvaget: Inventaire des Monuments Musulmans de la Ville d'Alep.

Etudes Islamiques, 1931, pp. 59-114.

الحكومية الوحيدة التي استطاعت أن تخرج سلسلة كبيرة من الكتالوجات هي إدارة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، إذ طبعت الآن ستة عشر مجلدا تتخللها رسوم متقنة وحواشي تفسيرية دقيقة إضافية، وذلك بفضل إرشاد جاستون فيت ومشاركته الناشطة في إخراج هذه السلسلة<sup>(١٤٦)</sup>. وهذه المجلدات أضافت إلى معلوماتنا إضافات طيبة في الفنون الصغرى، ولا سيما بإمدادنا بالحقائق التاريخية والنقشية المتعلقة بكل مادة من مواد هذه الفنون.

بقي علينا أن نذكر هنا أن كشوف الأثريين في بلاد الشرق الأدنى سبقتها طلائع كشفية يرجع الفضل فيها إلى مشاهير الرحالين منذ العصور الوسطى حتى القرن الثامن عشر الميلادي، وهم ماركوبولو، ومشاردان، وتافرنيه، وتقنوه، ودبروان، وپورك وغيرهم. لكن الملحوظات التي دونها أولئك الرحالون غدت ضئيلة تافهة بالقياس إلى ملحوظات الكشافين والأثريين أمثال ديولافوا. وموزيل، وياوسن، وسافنيك، وبرونو، وفون دورماسزوفكي، وجرتروود بل، وزره وهرتزفلد، وريفشتال. وبرغم قلة المظهر في كثير من

---

(١٤٦) مؤلفات جاستون فيت في هذه المطبوعات هي

Lampes et Bouteilles en Verre Emaillé, 1929.

Les objets en Cuivre, 1932.

Stèle funéraire, vols. II, IV; 1395, and Vols. V-X 1937, 1942 .

أما الجزء الأول والثالث فمن تأليف حسن الهواري و حسين راشد سنة ١٩٣٢، سنة ١٩٣٨.

وهناك مجلدات أخرى من تأليف

David Weill: Les Bois à Epigraphes jusqu'à l'époque Mamlouke, 1931.

وله كذلك Les Boisa à Epigraphues depuis l'Epoque Mamlouke, 1936.

Panty: Les Bois sculptés jusqu'à l'Epoque Ayyoubide, 1931. وكذا

Olmer: Filtres des Gargoulettes, 1932. وكذا

النقوش والأدوات التي سجلها وشرحها أولئك الأثريون، فهي في غير شك ذوات قيمة تاريخية عظيمة، وهذا القول ينطبق كذلك على المباني التي كشفوها، برغم ما ران على أغلبها من الخراب حين بدأ كشفها.

وفي عشرات السنين الماضية من القرن العشرين أضيفت إلى قديم الوسائل الكاشفة للآثار وسيلة جديدة، وهي الطائرة التي سهلت العثور على المواقع الأثرية وفحص تكوينها فحص الطائر، فضلاً عن تسهيلها دراسة الأشكال المختلفة في بناء المدن، ورؤية التطور المعقد في نمو الحواضر<sup>(١٤٧)</sup> الحواضر<sup>(١٤٧)</sup> (شكل ٢١ و ٢٣).

ولكي يستطيع الباحث أن يرى أعماق الحياة والحضارة الإسلامية في عز أيامها صار من المتعين المفروض عليه أن يحفر، وأن يكشف بعض المراكز الأثرية الشهيرة بالحفر العلمي. ولعل أول الأعمال الحفرية في موضع إسلامي بحت هو الذي بدأه پلانشييه سنة ١٨٩٨م، وعاد إليه جنرال بيليه سنة ١٩٠٨م، في قلعة بني حماد ببلاد الجزائر، وهي عاصمة الحماديين في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي. ثم بدأ فلاسكويز بوسكو في الحفر حوالي سنة ١٩١٠م، في خرائب عاصمة إسلامية أخرى، وهي مدينة الزهراء التي سكنها الخلفاء من الأمويين قرب عاصمتهم قرطبة بالأندلس. أما أعظم أعمال الحفر أهمية فهي التي قام عليها زره وهترفلد من ١٩١١ إلى ١٩١٣م، في سامرا عاصمة العباسيين بعد بغداد، لا لأن هذه الأعمال أنتجت

---

(١٤٧) أنظر: (Chicago 1940) Flights over Ancient Cities of Iran, Schmidt.

وفي هذا الكتاب معلومات ذات أهمية عظيمة للباحث في تاريخ الآثار الإسلامية.

معلومات فنية هامة فحسب، بل لأنها غدت بفضل دقة التواريخ في منتجاتها دليلاً لدراسة مراكز أثرية أخرى، ومرشداً لتحديد أزمنة أدوات لم يكن من السهل تحديدها. وثمة حفائر أخرى أجريت في مدينة الفسطاط، وهي العاصمة الإسلامية الأولى في مصر العصور الوسطى، وفي مدينة بركة سراي على نهر اثل (فولجا)، وهي عاصمة دولة القبيلة الذهبية المغولية، وفي مواضع إسلامية قديمة أخرى، مثل نيسابور، واصطخر، والرى، وترمد، وباليس، و تاهرت، وغيرها، فضلاً عن مواضع القصور الخليفية القديمة مثل خربة المنية، وقصر الحير الغربي، وخربة الفجر، وغيرها. وبالإضافة إلى ذلك كله أجريت حفائر في مواضع أخرى للكشف عن حضارات من التاريخ القديم تعلوها أكوام من الحضارة الإسلامية، إذ وجدت هذه الأكوام بعض الأحيان أثراً يفهمها ويعتني بتسجيل محتوياتها، وهذا هو ما حدث في سوسة، وملطية، وبعليك، وحماء، وأنطاكية، وعلى شار هيوك، وغيرها. ولكن نظراً لتشعب انتشار الحضارة الإسلامية وسعة توزيعها الجغرافي، فالواقع أن عدد المواضع التي تمت أعمال الحفر فيها حتى العصر الحاضر لا يزال قليلاً، وأقل من ذلك مع الأسف مستوى المطبوعات الناتجة عن هذه الحفائر، لأن هذه المطبوعات على ضرورتها لمواصلة البحث في كشفها لا تكاد تذكر شيئاً عن مفردات هذه الكشوف، ماعداً اسمائها، ولأنها لا تظهر إلا أجزاء في فيئات متقطعة. والمأمول أن تتطور هذه الحال إلى ما هو أحسن منها، ولو أن وفاة أصحاب هذه الحفائر يجعل هذا التطور أحياناً من المستحيلات الأسيفة. ومما يدعو إلى ضرورة الاتقان والدقة في الحفائر العلمية- زيادة عن ذي قبل- أن كثيراً من المدن الرئيسية مثل بغداد لا تبعث شيئاً من الأمل في حفائر مفيدة، وأن مراكز

أخرى هامة، مثل الرقة أو الري، عبثت بها أيدي أرباب الحفائر التجارية، وهم الذين أتلّفوا معظم المادة التاريخية في هذه المراكز.

وإذ نتج عن ازدياد الاهتمام بالفن الإسلامي وفرة من الأدوات الإسلامية في دور المتاحف والمكتبات العامة، لم يكن بد من قيام فئة من الأخصائيين المقيمين، وهم المعروفون في هذه الدور باسم الأمناء الفنيين، من أمثال كونل، وهويسون، وولكنسون، وديماند وجراي، وغيرهم، ممن أخذوا في ترتيب الأدوات الموكول إليهم حفظها وأمانتها، فعكفوا على دراستها وتحليلها وإصدار المطبوعات الوصفية لها. ومن المعروف أن المجموعات العامة في متاحف أوروبا تكونت مما حصلت عليه هذه المتاحف من البلاد الإسلامية في الشرق الأدنى التي أضحت دولاً مستقلة. أو من الكنوز التي بعثتها الأيام في الكنائس وبيوت الأمراء، أو من مشتريات السائحين والمقيمين بالشرق من الأوربيين أو من مجلوبات الأفراد الخبيرين أو المولعين بجمع الآثار، منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. أما تأسيس أقسام خاصة بالفن الإسلامي في متاحف الأمريكية فهو مما يلفت النظر، إذ بدأت أول علامات الاهتمام بالفنون الشرقية عامة بظهور مجموعات منها في بيوت عظماء الأغنياء من المالبيين الأمريكيين الذين اجتذبهم البذخ المتناهي في هذا النوع من الفنون، وهو بذخ جعل هذه المجموعات صالحة لزيّنة بيوتهم الشامخة. ثم نزل كثير من أولئك الأغنياء عن مجموعاتهم هذه للمتاحف العامة، ومن هؤلاء هنري والترز، وشارل فريبر<sup>(١٤٨)</sup>، على حين فضل آخرون أمثال حنا بيرينت مورجان، وجورج هويت مايرز، أن

---

(١٤٨) هذه المجموعات هي الآن متحف والترز للفنون في بليمور، ومتحف فريبر للفنون بواشنطن، بالولايات المتحدة.

يجعلوا لمجموعاتهم متاحف خاصة بها مفتوحة للجمهور<sup>(١٤٩)</sup>.

وفي أوروبا مجموعات كبيرة من أدوات الفنون الإسلامية توجد عادة في المتاحف العامة بالعواصم الأوروبية فحسب، على حين أن متاحف مدن الولايات المتحدة في طول البلاد وعرضها تحتوي على كميات من الأدوات الفنية الإسلامية. وليس يرجع هذا إلى وفرة الثروة الأهلية وسعة الاهتمام العام، بل يرجع كذلك إلى استطاعة عديد المتاحف بمختلف المدن إبان تأسيسها الحديث أن تشتري نماذج طيبة من الفنون الشرقية الواصلة إليها من آسيا، أو غيرها من القارات، للبيع بأثمان معتدلة، بالقياس إلى أثمان الصور والتماثيل الأوروبية التي أخذت طريقها سابقًا على أية حال إلى المتاحف الأمريكية الكبرى. والحديث في المجموعات الأثرية الإسلامية لا يكمل إلا بذكر المتاحف والمكتبات في عواصم الشرق الأدنى، وهي استانبول، والقاهرة، وبيت المقدس، ودمشق، وطهران، وبعضها متاحف قديمة في قصور بالية عتيقة، وبعضها متاحف حديثة في بنايات حديثة بنيت خصيصًا لأغراض متحفية. وينبغي أن يضاف إلى هذا العدد من المتاحف بعواصم الشرق الأدنى بضعة من المتاحف الإقليمية كذلك، وهي أحسن ضمانًا لحفظ الكنوز الأثرية المحلية، وأحفظ لها من الضياع والنسيان في زوايا حوانيت التجارة في الآثار. ثم أنه نظرًا لبعثرة مواد الفنون الإسلامية بين متاحف تفصلها مسافات جغرافية بعيدة بعضها عن بعض، لا يوجد في الواقع متحف واحد فيه من

---

(١٤٩) هذه المجموعات هي الآن مكتبة بيربونت مورجان في نيويورك، ومتحف المنسوجات في

واشنطن.

الغناء والوفرة في الآثار الفنية ما يعطي صورة كاملة للتطور الفني في هذه الآثار. ولهذا السبب فكر المعينون بالفنون والآثار عامة، منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، في إقامة معارض دورية أو شبه دورية للفن الإسلامي في بعض المدن العالمية، وأول هذه معروض الفنون الإيرانية الإسلامية في نادي برلنجنون للفنون الجميلة في لندن، سنة ١٨٨٥م. وظلت هذه الفكرة موضع التنفيذ منذ هذه السنة في معظم البلاد الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية والشرق الأدنى كذلك، حيث أقيم أول معرض من هذا النوع بمدينة الاسكندرية سنة ١٩٢٦م.

على أن أول معرض ذي معني هام هو الذي أقيم في مدينة ميونيخ بألمانيا سنة ١٩١٠م، إذ أعقبه تأليف حافل أسهم فيه جميع الأخصائين البارزين وقتذاك بمقالات متنوعة، ومن ذلك وحده يتضح مدى الحماسة الكبيرة التي أضفاها هذا المعرض على دراسات الفنون الإسلامية. وينطبق هذا القول على معرض الفن الإيراني في لندن، سنة ١٩٣١م، إذا أعقبته كذلك سلسلة كاملة من المطبوعات الهامة، المتصلة مباشرة أو غير مباشرة بهذا الفن. وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي كذلك أقام بعض أصحاب المجموعات وبعض أرباب الأرواح في الفنون معارض خاصة بمادة واحدة من المواد الفنية، ومن هذه المعرض العظيم الذي أقيم في متحف الصناعات (Handelsmuseum) بمدينة فينا سنة ١٨٩١م، لسجاجيد الشرق الأدنى. وترتبت على هذا المعرض بداية البحوث في هذا الميدان، على حين أدى أول معرض للمنمنمات الإيرانية والهندية والتركية، في متحف الفنون الزخرفية في باريس سنة ١٩١٢م إلى أول بادرة من بوادر الاهتمام العام بهذا

الميدان في دوائر أرباب المجموعات الفنية. وحديثاً أدى الجنوح والإمعان في التخصص إلى إقامة معارض في فرع واحد من مادة من المواد الفنية، مثل معرض السجاد المعروف باسم السجاد البولندي في متحف متروبوليتان (١٩٣٠م). ومعرض السجاجيد الصينية ذوات الرسوم الأفغانية ( dragon rugs)، بمتحف المنسوجات في واشنطن، عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية، (١٩٤٨م).

ومنذ أوائل الاهتمام بالفن الإسلامي درج الأثريون على إخراج نتائج البحوث الأثرية التي لم تصل أحجامها إلى مرتبة الطبع في كتاب مستقل، في مقالات تنشر في المجلات الخاصة بالدراسات الشرقية. ثم أنه نظرًا لازدياد المجموعات الأثرية في المتاحف العامة تعين طبع البحوث الوصفية لها، مثل بحوث زره وكونل في التقارير السنوية أو النشرات الدورية التي تصدرها هذه المتاحف. ثم أخذت مطبوعات المعاهد الأثرية الأوروبية في الشرق الأدنى تحتوي كذلك على عدد مطرد الزيادة من المقالات الخاصة بالعصر الإسلامي، على حين أخذت النشرات الرسمية الخاصة بدوائر الآثار التابعة لمختلف الحكومات بالشرق الأدنى تعلن عن اكتشافات جديدة أو بحوث أثرية حديثة في بلادها، ومثال ذلك مجلة آثار إيران التي يشرف على نشرها جودارد، ومجلة سومر العراقية<sup>(١٥٠)</sup>. وشجعت مجلة الفن الإسلامي ( Ars Islamica) مواصلة البحوث الأثرية تشجيعًا كبيرًا، وهي أول مجلة مخصصة لدراسة الفنون والآثار الإسلامية، ومؤسسها محمد أغا أوغلو، سنة

---

(١٥٠) تتولى دائرة حفظ الآثار في إيران طبع هذه المجلة المذكورة هنا، وتشرف الإدارة العامة للآثار القديمة في العراق على إصدار مجلة سومر العراقية.

١٩٣٤م، وتتولى إخراجها جامعة متشجان. وحديثاً بدأت الدائرة الشرقية بمتحف هرميتاج في لينينجراد نوعاً جديداً من المطبوعات الممتازة بخلوها من التخليط الذي تتصف به النشرات المتحفية الأوروبية، والأمريكية. وأصدرت هذه الدائرة بين سنتي ١٩٣٩ و ١٩٤٧ أربعة مجلدات عنوانها بحوث الدائرة الشرقية، وهي تبحث في فنون كل من الشرق الأدنى وآسيا عامة في العصور القديمة. وفي هذه المجلدات تشغل الفنون والصناعات الفنية في العصر الإسلامي والعصور السابقة له مباشرة صفحات كثيرة. ونظراً لاحتواء متحف هرميتاج وغيره من المتاحف الإقليمية في روسيا السوفيتية على كميات كبيرة من مواد أثرية هي على أهميتها غير معروفة للباحثين، فالمرجو أن تظل هذه السلسلة متصلة الظهور. وأخيراً ينبغي أن نذكر هنا مجلتي على جانب من الأهمية لدراسة الفن الإسباني المغربي، وهما مجلة الأندلس (AI-Andalus) التي تشرف على إخراجها معاهد الدراسات الإسلامية في مدريد وقرنطة ومجلة المذكرات الإسبانية (Notes Hispaniques) التي أخرجتها الجمعية الإسبانية في أمريكا من ١٩٤١ إلى ١٩٤٥م، ولكنها لسوء الحظ باتت محتجبة عن الظهور.

ومما ترتب على كثرة المطبوعات الأثرية الحديثة وتنوعها، فضلاً عن بعثة المؤلفين المعاصرين بين أقطار الأرض من الولايات المتحدة إلى الهند، أن صار إخراج المؤلفات الراصدة لهذه المطبوعات (Bibliographies) ضرورة علمية واضحة. وبعد جهود متقطعة في هذا السبيل خال الأثريون أن المشكلة انحلت حين أخرج ليوماير الدليل السنوي لمراجع الفنون والآثار الإسلامية منذ سنة ١٩٣٥م، غير أن قيام الحرب العالمية الثانية أمت هذا

العمل التعاوني، بعد أن ظهر منه ثلاثة مجلدات، والأمل غير قليل أن تعود الحياة إلى هذا العمل في المستقبل القريب. وثمة أمنية أخرى جدية بالتحقيق، وهي تأليف كتاب شامل للمطبوعات والبحوث المفردة التي سبق إخراجها في الفنون والآثار، لأن أخشى ما تخشاه دوائر الأثريين أن تغطي سرعة النسيان على كثير من البحوث والكشوف، ولا سيما ما نبع منها من روسيا وإسبانيا وبلاد الهند. وهناك حاجة ماسة إلى مرجع يحصى الجذاذات (الفيشات) الدالة على الأصول. والصور الشمسية، والنقوش المنسوخة، والرسوم التخطيطية، التي خلفها المؤلفون المتوفون. ومن هذه على سبيل المثال لا الحصر جذاذات فإن برشم في مدينة جنيف، وجذاذات ريفشتال في نيويورك، وجذاذات هرتزفلد في واشنطن، وحبذا لو امتد هذا المشروع إلى جذاذات الأحياء من المؤلفين. وسوف يظل كثير من البحث معتمداً على الاكتشافات التي تأتي بالصدفة، مستهلكاً للأوقات الطويلة في غير حساب، حتى يتم هذا المشروع بالذات، بل ربما يؤدي عدم إتمامه إلى تكرار البحث في موضوع سبق بحثه بحثاً نهائياً حسناً.

وهنا ينبغي أن نخصص بضع عبارات لمسألة تدريس الآثار والفنون الإسلامية، وذلك لأنه مع ما هو معروف من أن معظم الباحثين الذين تفوقوا في ميدان الفنون والآثار الإسلامية لم يتعلموا على أحد، بل علموا أنفسهم بأنفسهم (autodidacts)، فالغاية التي ينشدها الباحثون دائماً هي تكوين جيل جديد من الباحثين الذين يتلقون تمريننا باكراً في المؤهلات الخاصة والطرق الجديدة في البحوث الأثرية. وربما كانت جامعة فيينا أول جامعة تنشئ كرسيًا أستاذيًا خاصًا بدراسة "العلوم التاريخية الشرقية المساعدة"، نظراً

لاختصاصات أول أستاذ لهذا الكرسي، وهو فون كراباتشك. ومنذئذ قام آثريون معروفون في عديد الكراسي الأستاذية بمختلف الجامعات في أنحاء العالم، ومنهم فان برشم، وجوميز مورينو، ومارسيه، وكرزول، وريفشستال، وكونل، وأغا أوغلو، وماير، وسوفاجيه، وزكي حسن، وغيرهم. واعتبر آخرون، أمثال هرتزفلد وسير توماس آرنولد، أن الفنون والآثار الإسلامية موضوعاً واحداً من موضوعات دراساتهم. ومن الملحوظ حتى العصر الحاضر أن علوم الفنون والآثار الإسلامية - فضلاً عن المؤهلات الواسعة التي تتطلبها - دلت على أنها ليست مما يسهل اقتناصه واستيعابه في سرعة، بدليل أن من جمهرة الدارسين الذين تهلوا أحسن تأهيل في هذه العلوم والمؤهلات لم يصل منهم إلى مستوى أساتذتهم سوى القليل.

وهذه الحقيقة تجعلنا وجهاً لوجه أمام المسائل التي ينبغي مناقشتها، إذا أردنا النظر إلى المستقبل، وقصدنا إلى حساب حاجتنا المستقبلية، ومبلغ ما نأمل من التوفيق في تحقيقها. ويتضح للقارئ مما تقدم هنا أن دراسة الفنون والآثار الإسلامية تنبت وتستمد من أصلين اثنين، وهما المعرفة العامة بالدراسات الإسلامية، ثم المعرفة بتاريخ الفن. وفي المرحلة الأولى من مراحل التطور في دراسة الفنون والآثار الإسلامية نرى جماعة من النمين، والنقشيين، والمؤرخين، تأسسوا أحسن أساس، ولا سيما في اللغات، والأدب، والتاريخ؛ ولكنهم لم يمرنوا أي مران في تمييز الأساليب الفنية بعضها من بعض. ثم جاء من بعد أولئك فئة عارفة تمام المعرفة بتحليل الأسلوب الفني، ولكنهم أضفوا إلى عملهم كمية دافقة من الحماسة للأدوات والآثار الفنية، ولتفسيراتهم الشخصية لها، دون كمية متساوية من المعرفة بالحياة الدينية، والمراجع

الأدبية، والحقائق التاريخية. وكان مما لا محيص عنه أن يرتكب رجال هذه الفئة الثانية في بحوثهم أخطاء في التفاصيل التاريخية لا يغفرها رجال الفئة الأولى، برغم ما يكون في هذه البحوث من آراء وأفكار أساسية مقبولة. وانطبق هذا النقد في صورة خاصة على مؤلفات شتر زيجوفسكي في الفنون الشرقية، بما في ذلك الفنون الإسلامية، لأن هذا المؤلف خلق عددًا من النظريات المثيرة للدهشة، دون أية رعاية للحقائق الجغرافية والتاريخية، وذلك أوائل القرن العشرين، وهي سنوات المرحلة التكوينية في ميدان البحوث الفنية والأثرية. ومن ناحية أخرى لم يستطع الأثريون والنقشيون من رجال الفئة الأولى أن يبنوا نتائج بحوثهم دائمًا على حقائق تاريخية قاطعة، بل اضطروا أحيانًا إلى الاعتماد على أحاسيسهم وانطباعاتهم الشخصية، وأن يستخدموا التحليلات الأسلوبية استخدام مؤرخي الفن لها، وذلك كلما اصطدموا بأشياء فنية أثرية (artifacts) غير مؤرخة. وفضلاً عن ذلك لم تكن طرق المستشرقين في مؤلفاتهم بنجوة من النقد دائمًا، برغم ما تتسم به هذه المؤلفات من التزام الحقائق والصبغة العلمية. ونضرب لذلك مثلاً بالصور المنسوبة إلى بعض المصورين بعد قراءة مزعوم توقيعاتهم عليها، دون الانتباه إلى احتمال إضافة هذه التوقيعات إلى تلك الصور المختلفة تمام الاختلاف في أسلوبها عن الصور المقطوع بنسبتها لأصحابها من المصورين، وهو ما يتبين لمؤرخي الفن في وضوح بعد شيء من الفحص.

وربما قال قائل هنا أن نظرة خالصة إلى هذه الحال كان ينبغي لها أن تؤدي في هذه المرحلة من مراحل التطور في البحوث الفنية والأثرية إلى شيء من التمازج بين هاتين الطريقتين، كما حدث في كثير من التوفيق في ميدان

الفنون الغربية الأوروبية. غير أنه برغم ما استعرضنا هنا من المحاولات في هذا السبيل، سواء بقيام اثنين أو أكثر من الباحثين، على غرار المؤلفات التي أنتجها مشاركة كل من زره ومتفوخ، وزره وفان برشم، أو بتمرير شخص تمرينًا خاصًا، كما يتضح من مؤلفات هزترفلد وكونل وسوفاچيه، فالخلاف بين هاتين الطريقتين في التأليف أدى غالبًا إلى شيء من عدم الاعتبار وقلة الثقة بين الفئتين، وهذا بدوره أدى إلى شيء من تضاد الشخصية في أرجاء ميدان البحث في الفنون والآثار الإسلامية<sup>(151)</sup>. والواقع أن هاتين الطريقتين لا ينبغي انفصالهما، لأن كلا منهما تكمل الأخرى. ونحن ندرس الحضارة الإسلامية، لا لأجل أنها حضارة معينة قامت بل لأجل أنها حضارة ذات منتجات وأفضل خاصة على البشرية. ولهذا يجب علينا أن ندرس هذه المنتجات كلها، ما هو منها عام شائع، وما هو خاص نادر، في أدوار الحضارة الإسلامية، لأن لدينا كميات هائلة من المواد ذوات الأهمية والمعنى الأثري، وهي مواد تكشف لنا عن سالف العصور فحسب، دون أن تشبع شيئًا من حاسة الجمال فينا، كما أن لدينا مواد كثيرة تكتشف عن محاولات واضحة للخروج على النماذج الشائعة، وتنبي عن جهود عامدة ومقدرة على ابتكار قطعة فنية. ومواد هذا النوع الثاني هي وثائق تاريخية مثل غيرها من المواد، ولكنها تستأهل عناية خاصة، وتتطلب دراسة خاصة كذلك، إذا أردنا أن نصل إلى معانيها وصولًا تامًا، وهذا فضلًا عن أنها من مبتكرات الأفاضل من أساتذة الفن. ومن ذلك يتضح أن دراسة المواد الأثرية لحضارة من الحضارات يتطلب أولًا عدم

---

(151) Sauvaget: Introduction à l'Histoire de l'Orient Musulman, paris, 1943, pp. 51-53.

التقيد، لا بطرق الباحث الأثري فحسب، ولا بطرق مؤرخ الفن فحسب. ومن المعروف أن الفصل بين الطريقتين ليس في الامكان في متاحف الآثار، والغاية السليمة هي أن نعمل على الوصول إلى أحسن الطرق الصالحة لأنواع التحليل والتفسير، وأن نسمو عن المستوى الذي يغرق في الاعتماد على الإحساس الذاتي، لا الموضوعي.

وإذ نستطيع بعد ذلك أن ننظر إلى الأمام لنرى ما سوف تتمخض عنه الأيام من التطورات المستقبلية في ميدان البحوث في الفنون والآثار الإسلامية، فلعل من الأكيس والأحوط أن نصف هذه التطورات في عبارات عامة جرياً على المستوى التعميمي الذي وصفنا فيه تاريخ تقدم هذه البحوث في الصفحات السابقة. ويبدو أن هذا النحو من الوصف هو الأليق، ولاسيما بعد أن أخرج كونل تأليفاً حديثاً عين فيه ما يجب على الأثريين أن يقوموا به في المستقبل، وبخاصة المواضيع الأثرية المختلفة التي لا معدي للحفر فيها أن ينتج أطيب النتائج<sup>(١٥٢)</sup>. وفي محاضرة بجامعة برنستون بأمريكا أدلى كرزويل باقتراحات مماثلة لما أدلى به كونل في كتابه<sup>(١٥٣)</sup>.

الواقع أن استمرار العمل في ميدان الفنون والآثار الإسلامية عن طريق التنقيب، والاستطلاع والفحص، والدراسة الممعنة في الأشياء الأثرية، سوف

---

(152) Kühnel: Ergebnisse und Aufgabender Islamischen Archä- ologie in der Orient in Deutscher Forschung, Leipzig, 1944, pp. 255-259 .

Leipzig, وكذلك Beiträge zur Arabistik, Semitistik und Islamwissenschaft, 1944, pp. 254-263

(١٥٣) تنشر مجلة (Art Bulletin.) قريباً اقتراحات كرزويل في محاضراته.

يظل الواجب الأول أماننا. وليس في استطاعة أحد أن يعرف ما عسى تخبّئنا به مخبوءات الآثار والمخلفات الأثرية، أو مدى ما تغيره هذه المخبوءات والمخلفات بعد كشفها من معلوماتنا في الحضارة الإسلامية. ونسوق لذلك أمثلة واضحة من الماضي القريب، وهي حفائر القصور الأموية، بالشام وفلسطين، فهي التي أمدتنا لا بمعلومات جديدة في أصول المعمار والزخرفة الجصية (Stucco decoration) فحسب، بل ساعدتنا أكبر المساعدة على دحض خرافة انعدام النحت في تصوير الكائنات الحية في الفن الإسلامي. وعلى هذا كلما ازدادت المواد الأثرية لدينا ازداد استحضارنا للماضي دقة وسلامة علمية، ففي شبه جزيرة العرب وأفغانستان مساحات لم تمسسها أيدي الأثريين حتى العصر الحاضر، وفي استانبول وحدها ما يربو على مئة وأربع وعشرين ألفا من المخطوطات معظمها لم يدرسه أحد دراسة وافية بعد، وبعضها يحتمل أن يحتوي على منمنمات ذات أهمية بالغة. وفي استانبول كذلك كنوز عظيمة من المنسوجات، والأسلحة، ومختلف الأدوات العسكرية، من المغافر، والزرود، والتروس، وهكذا<sup>(١٥٤)</sup>، بل أن المجموعات المرصوفة في المتاحف الغربية من مختلف الأدوات لا تزال تنطوي على كثير من الجديد المثير للبحث والاستقصاء. وفي بلاد الأطراف الإسلامية، وهي تركستان الروسية، والقوقاز، وباكستان، والهند الإسلامية القديمة، وإسبانيا،

---

(١٥٤) انظر Tahsin O. P.: Türk Kuma ve Kadifeleri No. 1

استانبول، سنة ١٩٤٦

وكذلك Stocklein: Die Waffenschatze in Topkapu Sarayi Müzesi zu Istanbul. Ein Vorläufiger Bericht, Ars Islamica, I, 1934.

ينبغي أن يكون العمل في هذه البلاد مزدوجًا، لأنه يتحتم أولاً أن يقوم على الكشف والتنقيب المبدئي كشافون ونقابون من أهلها، ثم أن يقوم آخرون على نشر نتائج هذا الكشف والتنقيب، وبدون ذلك يخشى أن يظل العمل المبدئي في هذه الأقاليم مجهولاً لدى الأثريين الغربيين، مثلما حدث في كشف حفائر سراي برکه (شكل ٢٤-٢٥)، وخورزم، وغيرهما من البلاد.

وإذ وضح للقارئ أن من المفيد دائماً أن تكون نظرتنا إلى العالم الإسلامي شاملة لأوسع المعاني، بسبب سعته التاريخية والجغرافية، فلا ريب أن الفنون والآثار الإسلامية لا تستطيع كذلك إلا أن تتطلب هذا المستوى من سعة النظر والشمول. وعلى هذا ليس يكفي لفهم الفنون الإسلامية على وجه كامل أن ندرس أشكالها فحسب، لأن هذه الأشكال لا تدل وحدها على جميع المفاتيح اللازمة للوصول إلى أصولها وأوضاعها التاريخية، بل ينبغي علينا أن نوغل في بحث فنون الحضارات السابقة والمعاصرة لظهور الإسلام، وهي فنون أثرت في الفنون الإسلامية تأثيرات متنوعة. ومن هذه فنون مصر البيزنطية القبطية، وإيران الساسانية، وفنون الشام في العصر الكلاسيكي الأخير، وفنون سهوب وسط آسيا، فضلاً عن فنون الإمبراطورية البيزنطية نفسها، وأرمينية، والقوقاز، والصين. الواقع أن كشفًا أثريًا جديدًا واحدًا في أي من هذه الميادين يحتمل أن يحدث عكوسًا هامة في بعض القواعد المصطلح عليها في الفنون الإسلامية، والحاصل أن الدراسات المستقبلية في الفنون والآثار الإسلامية لا تستطيع أن تبقى في معزل عن دراسات الفنون والآثار في غيرها من الميادين، وأن الفنون والآثار الإسلامية يلزمها أن تقرن كشفها بكشوف الميادين التاريخية والجغرافية القريبة، وربما البعيدة كذلك.

ثم إننا إذا أردنا أن نتصور التيارات المستقبلية في البحث في الآثار والفتون الإسلامية، ففي استطاعتنا أن نقول أن هذه التيارات سوف تدرك إدراكًا مطردًا أن ليس يكفي أن نحلل أسلوب مبنى معماري، أو صورة، أو أداة من الأدوات الأثرية، وان ليس يكفي أن نعرف خاصيات هذا وذاك ونقوشه، أو بعبارة أخرى أن ليس يكفي أن ننظر إلى كل من هذه الأشياء الأثرية كأنما ننظر إلى شيء مستقل بذاته، دون أي اعتبار للأحوال والأفكار التي أسهمت في ابتكاره وتكوينه وإنتاجه. فالبيديهي أن هذه العمائر والأدوات تم بناؤها أو صنعها لغرض خاص، ولإدخال السرور إلى قلوب أصحابها، وأنها ابتكرت في أحوال وأجواء اجتماعية خاصة، لتحمل في أجزائها أفكارًا خاصة كذلك. ولهذا يتعين علينا أن ندرس الغرض الذي من أجله بنى المبنى، والمنفعة التي من أجلها صنع الشيء الأثري، وأن ندرس أحوال الحياة الاجتماعية والصناعية في عصر هذا وذاك، وأن نعرف المصدر الذي جاءت منه المادة الأثرية أو فكرتها، وكذا جميع المعاني التي ساعدت على ابتكار هذا المبنى وذاك الشيء الأثري، سواء أكانت هذه دينية، أو سحرية، أو تنجيمية، أو شعبية. ومن الواضح أنه مهما اتسمت به عمارة، أو صورة، أو أداة أثرية، من سمات عامة أو زخارف موقنة تسر العين، فواجب الباحث أن ينظر كذلك إلى ما تنطوي عليه هذه الأشياء الأثرية من المعاني الأوسع والمدلولات الحضارية العامة، ما دامت غايته معرفة المعنى الحقيقي والمغزى الكامن في أداة من أدوات آثار الماضي.

وليس في هذه الملحوظات التوجيهية التي تتنبأ بها للتيارات المستقبلية في بحوث الأثرين شيء جديد نقترحه هنا لأول مرة، إذ الواقع أن عددًا غير قليل من البحوث الحديثة يدل على ظهور هذا التيار. ونسوق من بضعة الأمثلة

للبرهان على ذلك دراسة تكوين مدينة إسلامية كبيرة دراسة تستمد من الآثار والمتون التاريخية معاً<sup>(١٥٥)</sup>، أو بحث أدوات معدنية معينة، بحثاً لا يقتصر على أشكال هذه الأدوات وزخارفها فحسب، بل يتعدى إلى بحث وضعيتها في المجتمع الإسلامي<sup>(١٥٦)</sup>، أو دراسة أصل رمز من الرموز الفلكية ومدى تطور هذا الرمز في الإسلام<sup>(١٥٧)</sup>. فهذه الأمثلة كلها تستمد من روح واحدة، ولو أنها تختلف في طريقة استمدادها من هذه الروح في سبيل حل مسائل مختلفة. ولا يخالجننا شك في أن التقريب بين ميدان تاريخ الفنون الإسلامية وميدان الآثار الإسلامية سوف ينتج نماذج كثيرة من هذه البحوث المتكاملة، وكما تنبأ فإن برشم سوف تضيف هذه البحوث إضافات عظيمة إلى مستوى معرفتنا بالحضارة الإسلامية التي يبلغ الفن فيها منتهي آيات الجمال.

ولعل من الواضح بعد ذلك أن هذه الروح الجديدة سوف تؤدي إلى ازدياد مدى معرفتنا واحساسنا بجمال العمائر والأدوات الأثرية الإسلامية ازدياداً بالغاً، وأنها سوف تفتح فضلاً عن ذلك ميادين جديدة البحوث لم تتناولها الأيدي إلا قليلاً حتى العصر الحاضر. ومن هذه ميدان علم التصوير (Iconology)، وهو علم يبحث في فن الملاءمة والجمع بين الخيال

---

(155) Sauvaget: *Alep, Essai sur le Développement d'une Grande Ville Syrienne, des Origines au Milieu du XIXe siècle*. Paris, 1941.

(156) Aga.Aglu *About a Type of Islamic Incense Burner*, (Art Bulletin XXVII, 1945, pp. 28-45)

(157) Hartner, W.: *The Pseudoplanetary Nodes of the Moon's Orbit in Hindu and Islamic Iconographies*, *Ars Islamica*, V. 1938, pp. 113-154.

والحقيقة في الصور وبين الأفكار المعاصرة البادية في الأدب. وثمة ميدان آخر هو علم الاصطلاحات الفنية (terminology) ولم نر منه حتى الآن سوى بحوث مبدئية متقطعة، ونحن فيه بحاجة إلى بحوث شاملة لا تزال في عالم الغيب. ويتضح من طبيعة العمل في ميدان الاصطلاحات الفنية أن المران والدراسة في فقه اللغات ليس يكفي، بل يجب استكمال هذا وذاك بمعرفة المواد الأثرية والطرائف الفنية معرفة تامة. وأخيرًا سوف تنشأ بحوث في الجمال المثالي الذي يسطع في الأدب، وتنعكس أشعته في الفنون الرفيعة. ولعل مما يساعد على الاهتمام إلى معان جديدة أن نقرن بين مستويات الجمال في الشرق ومثيلاتها في الغرب، وهي مستويات يغلب اختلافها بعضها عن بعض، نظرًا لاختلاف العقلية والمسافات الزمنية والجغرافية.

يتبقى بعد ذلك كله سؤال للاستفهام، وهو هل دراسة الآثار والفنون الإسلامية جزء كمال من الجهود السادرة في سبيل المعرفة، أو مظهر من مظاهر حب استطلاع الماضي، أم هناك معان أو أهميات أخرى لهذه الدراسة؟ الجواب على ذلك أن العلماء والفلاسفة المسلمين أثروا في العقل الأوربي في العصور الوسطى تأثيرًا بعيدًا عن طريق مؤلفات الرازي، وابن سينا، وابن رشد، وكثيرين غيرهم، وأن الآداب والأفكار الإسلامية غدت موضع إعجاب كبير في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي، بدليل الترجمات الكثيرة لقصة ألف ليلة وليلة، كلها أو بعضها، وأولهما ترجمة المستشرق الفرنسي جالاند التي ظهرت بين ١٧٠٤ و ١٧١٧م، وهذا فضلًا عن ديوان الشرق والغرب (Westostlicher Diwan) تأليف جيته الألماني، وقصيدة سهراب ورستم، تأليف ماثيو آرنولد الانجليزي، ورباعيات

عمر الخيام التي نقلها فتز جيرالد الايرلندي الأصل إلى الانجليزية. ثم أنه لا ريب أن للفن الإسلامي بالقياس إلى غيره من الفنون جاذبية قوية بين الغربيين من هذا الجيل، وأن هذه الجاذبية واضحة في كثير من الحالات. والواجب المتعين على مؤرخ الفن الإسلامي - في الغرب والشرق - أن يعمق الشعور بهذه الجاذبية إلى رغبة في فهم جميع نواحي الحضارة الإسلامية التي يعيش فيها عدد جسيم من البشرية.

وتستطيع الفنون الإسلامية وأربابها من الباحثين الغربيين أن يؤدوا خدمة كبيرة للعالم الإسلامي في العصر الحاضر، بعد أن أصبح واضحاً أن هذه الفنون هي المعمل الثقافي الذي صادف هوى وإعجاباً عند الغربيين، وذلك بأن ينصرف أولئك الباحثون إلى أحيائها انصرافاً يتعوض الشرق به مؤقتاً عن تأخره الحالي، في العلوم النظرية والصناعات المكنية، مما لا تستطيع حقول البترول الخام أو أهميات الموقع الجغرافي أن تعوضه. ومهما يكن من شيء فلن يوجد سفير للسلام والوئام بين الأمم أذكى من الفن، وهذه الملحوظات وغيرها إذا اتسعت دوائر فهمها اتساعاً جديراً فسوف يقوم الفن الإسلامي بدور هام في مصائر المستقبل.

# السياسة الدولية في الشرق الأوسط

تأليف

كوينسي رأيت

ترجمة

جعفر خياط

بعد الاعتراف بالأمم البلقانية دولاً أوروبية مستقلة، وبعد قيام الحرب العالمية الثانية، أضحى اسم الشرق الأوسط هو الساري في المصطلح الدولي الحديث، للدلالة على منطقة من أهم مناطق الأرض، وهي معظم ممتلكات الدولة العثمانية التي كانت في آسيا وأفريقيا، فضلاً عن مساحات أسيوية وأفريقية أخرى. وعلى هذا يشتمل الشرق الأوسط على ثلاثة أقاليم جغرافية، أولها إقليم الهضبات الأسيوية الممتدة من بحر ايجيه إلى باكستان، فيضم أفغانستان وإيران وتركيا، ويحتوي على ربع مساحة الشرق الأوسط، وفيه ما يقرب من ثلث سكانه، وهم مسلمون في الغالب. أما الإقليم الآخران - أي إقليم بلاد العرب والهلال الخصيب وإقليم أفريقيا الشمالية، فيؤلفان معاً ثلثي المساحة. ولكنهما يشتملان على ٣٩% فقط من سكان الشرق الأوسط كله. وهؤلاء السكان الذين يبلغ عددهم ستة وستين مليوناً هم في الغالب مسلمون كذلك، ويتكلمون اللغة العربية وتسود بينهم المدنية العربية. غير أن عرب أفريقيا يختلفون عن عرب آسيا، فعلى حين يجرى كثير من دم العرب الفاتحين الذين جاءوا من الجزيرة العربية في عروق الأفريقيين، فإن هذا الدم اختلط على مقاييس مختلفة بكل من الدم المصري والسوداني والبربري والأوروبي. وفي الساحل السوري نرى الدم العربي والحضارة العربية مختلطين بدماء السكان الأصليين اختلاطاً ساعدته الأوضاع والجيرة الجغرافية والحوادث التاريخية معاً. والبلاد العربية تقرب في مساحتها من الولايات المتحدة الأمريكية، ويمكن تشبيهها بأرخبيل جزائره العراق، والساحل السوري، وساحل البحر الأحمر، وجنوب شبه جزيرة العرب، ووادي النيل، وساحل بربرة. وتفصل بين هذه الجزائر وديان يسكنها حضر" مستقرون في

الوحدات، وبدو متجولون في الصحاري على ظهور سفن البادية، أي الأبل.

ويمتد الشرق الأوسط في ثلاث قارات، ولا ينفصل عن أية من هذه القارات بحدود جغرافية، ولكن أجزائه تنفصل عما يجاورها من كل من هذه القارات من الأقاليم. يوضح ذلك أن جبال القفقاس والبحر الأسود والبحر الأبيض تفصل الشرق الأوسط عن أوروبا، وجبال البامير ووديان جيحون والسند تفصله كذلك عن سائر القارة الآسيوية والصحراء الكبرى، ومرتفعات الحبشة تفصله كذلك عن سائر القارة الأفريقية.

وتقلصت حدود هذا الشرق الأوسط واتسعت تبعاً لمشيئات الحرب والسياسة خلال تاريخه الطويل، وهو في الواقع أطول تاريخ، لأن الشرق الأوسط يحتوى عن مواقع أقدم المدن، وأقدم المدن التي استنبطت الكتابة، وأقدم السجلات، فضلاً عن أعرق النظم السياسية. وأقوام الشرق الأوسط هي التي أنشأت وتعهدت المدن المصرية والبابلية، والآشورية والحثية، وتاجرت وتفاوضت وتحاربت فيما بينها في هذه المنطقة الشاسعة أثناء الألف الثانية قبل الميلاد. وعلى غرار ذلك فعل اليونانيون والفرس، والرومانيون والسوريون، والمسيحيون والمسلمون، في القرون المتأخرة. وظل طابع هؤلاء وأولئك جميعاً مطبوعاً في حاضر المنطقة، في أشكال مختلفة.

وفي الجلسة الخاصة التي عقدتها عصبة الأمم في ٢٦ مايو سنة ١٩٣٧ أشار رئيس الجلسة التركي إلى كثير من هذا التاريخ القديم السالف إشارة رمزية، عندما رحب بمصر عضواً في العصبة، حيث قال أن أقدم معاهدة سياسية في العالم هي التي عقدت بين قدماء المصريين والحثيين الذين

يعددهم الأتراك أسلافهم الأقدمين. ثم أعقب ذلك خطب التهنتة من ممثلي العراق وإيران واليونان، فأشار كل منهم إلى قديم العلاقات التي تربط مدينة بلاده بالمدينة المصرية. وكان هذه الجلسة الخاصة رمزية كذلك، إذ حضرها مندوبون عن خمسين دولة من مجموعة الدول الأعضاء في العصبة، وعددهم وقتذاك ثمانية وخمسون عضوًا، منها عشر دول من الشرق الأوسط، أي أن هذه الجلسة كانت أقصى ما توسعت إليه العصبة.

وبرغم إعدام الوحدة الجغرافية والدينية والحضارية بدأ الشرق الأوسط متحدًا سياسيًا، فالإمبراطورية الفارسية على عهد دارا، والخلافتان الأموية والعباسية، والامبراطورية العثمانية بعد سليمان القانوني، كل منها اتجه في فتوجه نحو الشرق، وكل منها حكم معظم هذه المنطقة. وكذا كان اتجاه اسكندر المقدوني والرومانيين والبيزنطيين من الغرب الأوربي نحو الشرق، وبذا تناوب الشرق والغرب السيطرة على الشرق الأوسط. غير أن تاريخ الشرق الأوسط في العصور الحديثة نابع من تفكك الوحدة السياسية التي خلقها المتأخرون من أولئك الفاتحين، وهم الأتراك العثمانيون، ويرجع هذا التفكك فيما يرجع إلى قوى القومية والإمبريالية والدولية، وهذه كلها نشأت في الغرب، وامتدت روحها نحو الشرق الأوسط، فكونت لسكانه المشكلة الغربية.

حكمت تركيا منذ أواخر عهد سليمان القانوني، أي منذ أوائل القرن السادس عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، جميع البقاع الداخلة في الشرق الأوسط، ماعدا مراكش، وجنوب شبه جزيرة العرب وإيران، وأفغانستان. وفي أثناء القرن التاسع عشر الميلادي، احتلت فرنسا الجزائر وتونس، كما احتلت بريطانيا مصر. وفي خلال القرن العشرين احتلت إيطاليا

طرابلس الغرب. وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى تم الاعتراف باستقلال الحجاز ونجد، وهما الآن المملكة العربية السعودية، كما تم الاعتراف باستقلال مصر واليمن. أما فلسطين والأردن وسوريا ولبنان والعراق، فصارت كلها تحت انتداب عصبة الأمم. ثم تحررت العراق من الانتداب سنة ١٩٣٢م، واستقلت كل من سوريا ولبنان خلال الحرب العالمية الثانية، كما استقلت الأردن وإسرائيل بعد انتهائها. ونتج عن ذلك كله أن تركيا أضحت مقتصرة على شبه جزيرة الأناضول وأجزاء معينة من أرمينية وكرديستان في آسيا، فضلاً عن بقعة صغيرة من أوروبا حول استانبول. ونشأت في تركيا جمهورية وطنية حديثة بفضل عبقرية كمال أتاتورك.

وهذه الحوادث المعروفة في التاريخ الأوربي باسم المسألة الشرقية لم تكن سوى تصفية للدولة العثمانية، وتحلل هذه الحوادث نمو القومية في مصر وبلاد العرب وسورية ولبنان وتركيا وإيران، كما تخللها خصومات امبريالية ونشاط دبلوماسي دائب في دوائر وزارات الخارجية الأوربية، فضلاً عن عدد من الحروب. يضاف إلى ذلك أن هذه المسألة الشرقية أضحت مشكلة المشاكل بين الدول الأوربية الكبرى، وتطلب حل أزمتها صداقة هذه الدول بعضها نحو بعضها الآخر. وعلى هذا أضحى الشرق الأوسط ميدان السياسة الأوربية الامبريالية، حتى إذا انتهت الحرب العالمية الأولى ورثت عصبة الأمم هذه المشاكل، وبدا اتصفت هذه المشاكل بصفة الدولية.

ثم تولت هيئة الأمم المتحدة هذه المشاكل بذاتها، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. غير أن نفوذ الشرق الأوسط في الدوائر الدولية ازداد في الوضوح والاضطراد منذ أواخر الحرب العالمية الأولى، فعلى حين كانت تركيا وإيران هما

الدولتان المستقلتان الوحيدتان في هذه الرقعة من الأرض، أضحت دول الشرق الأوسط عشراً ذوات عضوية في عصابة الأمم. وفي هيئة الأمم المتحدة ازدادت هذه الدول حتى صارت اثنتي عشر دولة، وتؤديها في هذه الهيئة بعض الأحيان ست دول أسيوية، ودولتان من دول أفريقيا الوسطى، فضلاً عن عشرين دولة من أمريكا اللاتينية. وهذه المجموعة من الدول تستطيع أن تصبح ذات نفوذ فعال، لأنها تؤلف ثلثي أعضاء المجلس العام في هيئة الأمم المتحدة.

وأهمية الشرق الأوسط ترتكز إلى تاريخه ووضعه الجغرافي معاً، فهو منبع الديانات العظمى، ومصدر أقدم المدن التي اجتذبت إليها الأثريين والحجاج من جميع الأمم، وترجع لتاريخ الشرق الأوسط قيم لا تخضع للتقدير بالمقاييس الاقتصادية أو التعاريف القانونية، وهذه القيم التي لا يريد الغرب الامبريالي أن يعترف بقوتها هي التي جعلت التوفيق صعباً بين المطالب القانونية والاقتصادية والمطالب القومية التي لا محيص عن احترامها في الشرق الأوسط. ثم إن الشرق الأوسط يصل بين ثلاث قارات ويربط بين بحرين عظيمين، ويحتوي على نפט وافر. ولذا فهو كذلك موضع اهتمام الاستراتيجيين، فضلاً عن الامبرياليين وأصحاب رءوس الأموال.

وليس يشبه الشرق الأوسط في الوضع السياسي العالمي سوى منطقتين أخريين من مناطق الأرض، وهما إقليم البحر الكاربي، وإقليم بحر الصين الجنوبية وجنوب شرقي آسيا. ووجوه الشبه بين هذه المناطق الثلاث أن كلا منها يمر فيه طريق مائي ضيق، وهي قناة السويس وقناة بناما، ومضيق مالقا، وإن كلاً من هذه المناطق يعوزه الفحم والحديد اللذان يغديان التصنيع في السلم والحرب الحديثة.

وكانت كل منطقة من هذه المناطق جزءًا من إمبراطورية قديمة، وهي الإمبراطوريات العثمانية والاسبانية والمانشوية الصينية، كما احتوى كل منها على ترسبات نفطية ومنتجات استوائية هامة. ونتج عن ذلك كله أن أية منطقة من هذه المناطق غدت مسرحًا للخصومات السياسية بين الدول الكبرى. ففي خلال القرون الثلاثة الأخيرة تورطت إسبانيا وبريطانيا وفرنسا وهولاندا والولايات المتحدة في حروب متكررة من أجل منطقة البحر الكاريبي. ثم استطاعت الولايات المتحدة بفضل قربها الجغرافي، وسيادتها على قناة بناما وپورتريكو وجزر العذراء، وبحكم مبدأ منرو الساري على جميع الدول الأمريكية، أن تسيطر على هذه المنطقة خلال القرن العشرين. لكن ألمانيا تحددت هذه السيطرة بغواصاتها خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية.

أما إقليم بحر الصين الجنوبي وجنوب شرق آسيا فتورطت فيه الصين والبرتغال وهولاندا وبريطانيا وفرنسا وإسبانيا والولايات المتحدة، ثم استطاعت بريطانيا بفضل سيطرتها على سنغافورة وهونج كونج وبتعاونها مع الولايات المتحدة في مانيلا بجزائر الفلبين، أن تسيطر هي كذلك على هذه المنطقة في القرن العشرين. ثم تحددت اليابان هذه السيطرة البريطانية، ونجحت في تحديها أثناء الحرب العالمية الثانية. وعندما استفحلت الحرب الباردة في منتصف هذا القرن العشرين أضحت الصين الشيوعية تحمل لواء التحدي القديم في هذه المنطقة.

وفي الشرق الأوسط اشتركت تركيا وروسيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والنمسا والولايات المتحدة في منازعات عديدة خلال القرن التاسع عشر، فكان في وسع بريطانيا صاحبة القواعد الحربية في جبل طارق ومالطة

وعدن وقبرص والسويس والخليج الفارسي أن تهيمن على الموقف كله، بأن آزت تركيا ضد روسيا، كما حصرت الأسطول الروسي في البحر الأسود. ثم أدت السياسة التي انتهجتها بريطانيا في الحرب العالمية الأولى إلى إضعاف تركيا العثمانية، وتأييد العرب ضد الأتراك، وترسيخ أقدامها في مصر وفلسطين والعراق. على أن القوات الألمانية تحددت هذه السيطرة الشامخة في الحرب العالمية الثانية بحركة كماشية جبارة في ليبيا وروسيا، فضلاً عن حركة اندفاعية أزمعتها ألمانيا عن طريق تركيا. وهدفت ألمانيا بذلك كله أن تصل جيوشها إلى نפט القوقاز والموصل، وإلى قناة السويس والخليج الفارسي. لكن بريطانيا صامدت هذا التحدي حتى كادت تزهق، واضطرت بعد أن خرجت منهكة القوى من الحرب أن تشرك معها الولايات المتحدة في مصائر المنطقة ومعالجة المطالب التي عزمت القوميات المحلية الثائرة على تحقيقها، وهي القوميات التركية والإيرانية، والعربية و الصهيونية. وكان من نتائج ذلك أن أضحت البلاد العربية كتلة سياسية هي جامعة الدول العربية.

والمعروف أن الأهداف السياسية والاجتماعية التي أزمع الشرق الأوسط تحقيقها منذ نهضته القومية تغيرت بتغير الأحوال، وهي لا تزال حتى العصر الحاضر في تغير وتطور نحو الكمال، بل إن ما يعنيه الشرق الأوسط في المستقبل من التغيرات والتطورات لا يمكن تعريفه أو التكهّن به. ولأجل أن نحكم على هذا المستقبل يجب أن تأخذ بعين الاعتبار قوى القومية والدين في الشرق الأوسط من ناحية، ومن ناحية أخرى قوى الإمبريالية الغربية، فضلاً عما سوف ينتج عن تناحر الكتلتين الديمقراطية والسوفييتية في الحرب الباردة داخل هيئة الأمم المتحدة وخارجها.

غير أن التنبؤ بالمستقبل يكون على درجة كبيرة من الصعوبة برغم معرفة حقيقة القوى السياسية المحلية والعالمية، وبرغم القدرة على تصور وقع بعضها على بعض. ذلك أن الأمر هنا ليس كما يقيس الفلكي تأثير الشمس وتجاوب الكواكب والقمر بعضها في بعض، لتقدير سيرها وتعيين منازلها المقبلة. إنما الذي يحدث في القوى السياسية أنها تتأثر في كل عصر من العصور بالأفكار الدينامية التي يؤيدها رأي عام، وبطريقة الانتقاء يصبح بعض هذه الأفكار هو السائد، كما يصبح البعض الآخر قليل الأهمية، لأن الناس يبدلون رأيهم تبديلاً غامضاً، ولذا يصبح التنبؤ بالمستقبل أشد غموضاً وإبهاماً. وعلى هذا يتحتم علينا أن نجمع بين اعتبار الاتجاهات التي تسير فيها القوى الكائنة حالياً، واعتبار رغباتنا في المستقبل، فضلاً عن خططنا التي توضع لتحقيق هذه الرغبات. وكلما أصبح العالم منظمًا تنظيمًا سياسيًا، كلما تصبح السياسة العالمية جهودًا لتحقيق الخطط المختلفة الناتجة عن ذلك التنظيم، لا نتيجة القوى المتناحرة في السياسة العالمية. ولذا نسأل إذا أردنا التكهن بمستقبل الشرق الأوسط: ما الذي تنطوي عليه سياسة هيئة الأمم المتحدة المعبر عنها في الميثاق بشأن هذه المنطقة. الجواب هو أن الرأي العالمي العام إذا عيى تعبئة منظمة وراء ميثاق هيئة الأمم المتحدة، وإذا وضع رجال السياسة والحرب خططهم لمنع الخراب والدمار، وكبح استغلال القوى للضعيف، فإن تقدمًا مستمرًا سوف يؤدي بالشرق الأوسط إلى تحقيق أهدافه. ولهذا يتعين علينا هنا تحليل القوى السياسية، واتجاهات الرأي العالمي العام، والمؤسسات الدولية وسياسة هيئة الأمم المتحدة.

## ١ - القوى السياسية

أكثر القوى تأثيراً في مصير الشرق الأوسط هي التي تصدر عن الكتلتين المتخاصمتين، وهما كتلة الديمقراطيات الغربية، وكتلة الدكتاتوريات السوفيتية. وتقوم سياسة الديمقراطيات على قاعدة الاعتراف بالأمني القومي والوطنية، وكفالة الحريات الأساسية للإنسان، في كل مكان، كما تقوم على سياسة التنظيم الدولي والزام ما تقرره التنظيمات الدولية، رغبة في استتباب السلم العام والأمن والاصلاح. أما سياسة الاتحاد السوفيتي فيبدو أنها تصبو إلى تكتيل الأمم جميعاً بواسطة الكومترن الذي يسيطر عليه الكرملين في روسيا، وذلك لإحداث ثورة انقلابية في البناء الاجتماعي، وفي الصناعة والإنتاج والاستهلاك، بغض النظر عن المنفعة الفردية كائنة ما كانت.

ومما لاشك فيه أن الوسائل والأغراض المحلية التي لا تنسجم مع هاتين الكتلتين المتخاصمتين سوف تجعل التأثير العاجل لأية واحدة منهما في الشرق الأوسط شيئاً صعباً، وهذا على فرض أن تحرز إحدى الكتلتين المتخاصمتين انتصاراً تاماً في حلبة التنافس الدولي. ولذا سوف يظل مستقبل الشرق الأوسط متأثراً زمنياً طويلاً بسير الحرب الباردة.

وربما كانت بلاد الشرق الأوسط أقل قبولاً لاتخاذ موقف إيجابي معين من إحدى الكتلتين المتخاصمتين ومناهجهما من قبولها موقف الرغبة في تحاشي التورط، في أي نوع من منازعات الحرب الباردة، نظراً لما يربط بعض الدول في الشرق الأوسط بدولة ما من الدول الكبرى، أو بسبب الإغراء أو التهديد الذي تستطيعه إحدى هذه الدول الكبرى في المستقبل العاجل. من

الأمثلة على ذلك أن تركيا انضمت إلى جانب ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، ثم بقيت على الحياد إلى قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية، ثم أكدت صداقتها لبريطانيا وفرنسا عشية نشوب القتال ضد المحور، وذلك مقابل التنازل لها عن القسم الشمالي من الانتداب الفرنسي في سوريا، ومن أجل خشيتها من روسيا. وبعد أن احتلت القوات الألمانية جزءًا كبيرًا من روسيا سنة ١٩٤١ عقدت تركيا مع ألمانيا معاهدة تجارية، ولكنها أخذت تميل ميلاً واضحاً نحو الأمم المتحدة حتى انضمت إليها، عندما أضحي النصر وشيخاً ضد الدول المحورية. أما الولايات المتحدة فعاضدت تركيا في مقاومتها للسياسة السوفيتية وأهدافها ضد الأراضي التركية، ولذا انضمت تركيا واليونان إلى منظمة معاهدة شمال الأطلسي.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية عرفت بلاد العربية وإيران من الإمبريالية البريطانية والفرنسية ما لم تعرف من الإمبريالية الألمانية والابطالية، وأمعنت محطات الإذاعة في دول المحور في إظهار مساوئ الاستعمار، كما أن مفتي القدس ورشيد عالي الكيلاني رئيس وزراء العراق ورضا بهلوي شاه إيران حاولوا التقرب إلى دول المحور أملاً في التخلص من مختلف ربقات الاستعمار. لكن التدابير العسكرية السريعة التي اتخذتها بريطانيا بمساعدة روسيا قضت على حركات المحور في إيران، كما قضت تدابير سريعة أخرى على الحكم الفرنسي الفيشي في سورية ولبنان. ومما ساعد على نجاح ما قامت به بريطانيا في سوريا ولبنان أن العرب الذين انضموا إلى الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، وحصلوا على شيء من الاستقلال لبلادهم وقتذاك مالوا إلى جانب بريطانيا في الحرب العالمية الثانية. وعملت السياسة

البريطانية على استرضاء أولئك العرب بالاعتراف باستقلال كل من سوريا ولبنان، وبالجامعة العربية وبالعزم على إنهاء الانتداب والخروج من فلسطين. ثم أصبحت سوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية أعضاء أصليين في هيئة الأمم المتحدة.

وفي سنة ١٩٣٦ تم الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة، ومع أن مصر ظلت إلى جانب بريطانيا في الحرب العالمية الثانية، ورضيت أن تكون المعقل الرئيسي للقوات البريطانية وغيرها من القوات في الشرق الأوسط، بل صارت أرضها مسرحًا للحرب فعلاً، فإنها لم تدخل الحرب رسمياً ضد الدول المحورية حتى سنة ١٩٤٥، ثم أصبحت مصر عضواً أصلاً في هيئة الأمم المتحدة، ولكنها اختلفت مع بريطانيا حول تفسير معاهدة سنة ١٩٣٦، وأدت أحوالها الداخلية إلى نزول الملك فاروق عن العرش؛ وتأسيس حكومة جمهورية يرأسها اللواء محمد نجيب سنة ١٩٥٢. وحافظت مصر التي هي أقوى الدول العربية على نوع من الزعامة بين هذه الدول في هيئة الأمم المتحدة.

وفي ليبيا وتونس والجزائر ومراكش تكشفت أهميات استراتيجية للحلفاء بعد احتلالهم شمال أفريقيا، سنة ١٩٤٢. ولما كانت هذه البلاد خاضعة لحكم استعماري ليس فيه إلا القليل الضئيل من الحكم الذاتي، فإنها لم تكن متيقظة لأحوالها السياسية، بالقياس إلى مصر وسائر البلاد العربية. غير أن عرب ليبيا لم يكونوا راضين عن السياسة الإيطالية التي اضطرت كثيراً منهم إلى الهجرة، لإفساح المجال للمستوطنين الإيطاليين قبل نشوب الحرب العالمية الثانية. فلما انتهت الحرب، ونفضت إيطاليا يدها من ليبيا، تناقشت

الدول الكبرى في أمرها حتى ١٩٤٩، وجعلتها خاضعة لوصاية الأمم المتحدة مدة سنتين. ثم أصبحت ليبيا دولة مستقلة سنة ١٩٥١، ولكنها لم تدخل هيئة الأمم المتحدة. أما تونس والجزائر ومراكش، فارتبط كل منها بحماية فرنسا سنين عديدة، ثم ثارت بلاد الريف المراكشية في العشرينات من هذا القرن العشرين ضد فرنسا وإسبانيا. وفي الحرب العالمية الثانية وضحت أهمية شمال أفريقيا، وهذا على حين سقطت فرنسا. ثم أعقب ذلك ازدياد شأن القومية في مصر وسائر البلاد العربية، واستقلت ليبيا، وهي أقل بلاد شمال أفريقيا تقدمًا، فتنادت تونس والجزائر ومراكش بضرورة الحكم الذاتي والاستقلال عن فرنسا، وثارَت المنازعات مع السلطات الفرنسية، وبذلت الدول العربية الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة جهودًا لعرض قضية هذه البلاد على مجلس الأمم المتحدة عام ١٩٥٢.

والقومية في الشرق الأوسط عمومًا قوة ذات أهمية، وهي لا تزال في ازدياد. وانتهجت القومية في الشرق الأوسط طريق سائر القوميات في التاريخ الحديث، إذ بدأت بتشكيل الجمعيات الأدبية والجماعات السياسية لإحياء أمجاد الماضي العربي، وإظهار التعسف التركي العثماني وأدى ذلك إلى قيام السلطات التركية العثمانية بتشريد هذه الجمعيات الأدبية والجماعات السياسية، فلجأ معظمها إلى مصر، وصارت مصر مركزًا للدعاية وطبع المطبوعات لترويج القومية العربية. وفي المراحل الأولى لهذه الحركة كانت بعض المؤسسات المسيحية وهيئات التبشير وسيلة من وسائل نقل البذور القومية من الغرب الأوروبي والأمريكي إلى بلاد الشرق الأوسط، ثم قام المسلمون والمسيحيون من أهل البلاد العربية للعمل جنبًا إلى جنب، لأن

زعماءهم أعلنوا أن العقيدة الدينية أمر يعود إلى وجدان الفرد.

ومما ساعد على تغذية القومية العربية أن الإمبريالية التركية العثمانية، وكذلك الإمبريالية الأوربية- بريطانية وفرنسا- لم تأل جهداً في معارضة أمانى العرب. ولهذا انتهزت البلاد العربية الفرصة خلال الحرب العالمية الأولى، ورحبت بالوعود البريطانية الفرنسية، وأعلنت انفصالها عن تركيا العثمانية. غير أن تضحيات العرب في تلك الحرب، ونقص الاستقلال الذي حصل عليه كل منها، والاختلاف بين بريطانيا وفرنسا والصهيونية، كل ذلك حفز القومية العربية إلى الحركة أثناء المدة الواقعة بين نهاية الحرب العالمية الأولى وبداية الحرب العالمية الثانية. ومما ساعد على ازدياد هذه الحركة ما استولى على الامبراطوريات البريطانية والفرنسية والألمانية والإيطالية من الضعف نتيجة الحرب العالمية الثانية، وانشغال الغرب الأوربي كله بمقاومة الشيوعية والإمبريالية الروسية. يضاف إلى ذلك فشل الحرب

ضد إسرائيل، وقيام زعماء من العرب العارفين بتاريخ الشعوب العربية وطاقاتها الماضية، ويقظة السياسيين العرب في هيئة الأمم المتحدة.

وللقومية العربية اليوم زعماء ومنظمات وأدب خاص، لكن منهجها لا يزال غير واضح تمام الوضوح. فهل هي تستهدف خلق أمة تجمع بين جميع العرب من أطراف إيران إلى شاطئ المحيط الأطلسي، أو أمة تضم العرب الآسيويين فقط، أو أمة من عرب البلاد الشمالية فقط. أو أنها تستهدف خلق عدة دول عربية مستقلة، وهو ما تحقق أكثره؟ غير أنه يبدو من غير المحتمل مثلاً أن تستطيع القومية العربية خلق أمة واحدة من عرب آسيا وحدهم، لأن

ذلك لا يمكن أن يدخل في الحسبان قبل تحسين المواصلات وزوال الأمية، وتقليل الفروق بين العرب البادية والعرب المستقرين في المدن والحواسر والسواحل. ثم إن العراق وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية واليمن ومصر والمملكة الهاشمية الأردنية وليبيا هي الآن دول عربية مستقلة، وجميعها (عدا الدولتين الأخيرتين) أعضاء في هيئة الأمم المتحدة. ثم إن هذه الدول كلها أعضاء في جامعة الدول العربية، وإذا كان نظام الانتداب الذي أشرفت عليه عصبة الأمم مرحلة انتقالية من السيطرة الإمبريالية إلى الاستقلال لعرب آسيا، فهل يقوم نظام الوصاية الذي تشرف عليه هيئة الأمم المتحدة بدور انتقالي نحو الاستقلال لعرب أفريقيا الشمالية؟

وإذا نظرنا إلى جيران الدول العربية نجد أن الشعور القومي خلق دولاً مستقلة في تركيا وإيران وأفغانستان، ولا شك أن الشعور القومي في كل من هذه الدول قوة ديناميكية هائلة، وهذه القوة كفيلة بمقاومة أي خطر يتعرض له استقلالها في المستقبل. غير أن ميثاق سعد أباد الذي انضمت إليه تركيا وإيران والعراق وأفغانستان سنة ١٩٣٧، والمعاهدات العربية التي عقدتها بريطانيا وغيرها سنتي ١٩٣٦ و١٩٣٧ مع مصر والمملكة العربية السعودية والعراق واليمن كانت كلها مخالقات، ولم تهدف واحدة منها إلى تكوينات اتحادية، وفي ذلك دلالة على انعدام تماسكها الجغرافي. ثم إن بعض الدوافع إلى كثير من هذه المعاهدات كان عبارة عن الخطر الذي أخذ النظام السياسي العالمي يتعرض له في الشرق الأوسط باستيلاء موسوليني على الحبشة. يضاف إلى ذلك أن جامعة الدول العربية التي تكونت سنة ١٩٤٥ وميثاق الضمان الجماعي الذي انعقد بين هذه الدول سنة ١٩٥٠ يتبغي إيجاد

تماسك يمهد لشيء من النظام الاتحادي بين العرب. لكن الخلافات الموجودة بين بعض الدول الأعضاء لا تدل على إمكان بلوغ هذا الهدف في زمن قريب، ومع هذا كله فالمعروف على وجه التأكيد أن القومية في الشرق الأوسط سوف تقوم بدور هام في السياسة الدولية عن طريق الدول العربية، ما دامت هذه الدول تسير نحو تحقيق قوميتها.

أما الإمبريالية فهي قوة سياسية تدفع حكوماتها إلى بسط نفوذها السياسي والاقتصادي، بتشديد النكير على حرية الرأي، وتنمية السيطرة على الموارد الاقتصادية الموجودة في ممتلكاتها، وغير ممتلكاتها. وتنشأ الإمبريالية عن دافع بشري يدفع الفرد إلى السيطرة على الغير، وقد سرت عدوى الإمبريالية في بعض الأزمان إلى الحكومات المبنية على نظريات التفوق الشخصي أو الطبقي أو الجنسي. غير أن درجة العدوى اختلفت باختلاف الحكومات، وبحسب تاريخ حكومة دون أخرى، وربما تكون الإمبريالية متممة للقومية في دولة من الدول، وربما تكون نتيجة من نتائجها.

غير أن القومية في ذاتها تقوم على أساس تعريف الفرد لنفسه، باندماجه في مجموعة من الأفراد الذين يتشابهون عقلياً، ويسعون لتنظيم أحوالهم في إقليم من الأقاليم يتسع اتساعاً كافياً، للحصول على درجة عالية من الحكم الذاتي السياسي والحضاري. فإذا نشأت حركة من الحركات القومية في إحدى ممتلكات دولة كبيرة، نهضت الإمبريالية في هذه الدولة الكبيرة إلى مقاومة هذه الحركة، للمحافظة على تكوينها ونظامها، حتى إذا نجحت الحركة القومية في التخلص من الإمبريالية المتسلطة عليها، فإنها تظل عادة وجهاً لوجه أمام هذه الإمبريالية التي لا تزال تتحكم في ممتلكاتها الباقية. ومن أجل ذلك لا تكفي

الأمة ذات الحركة القومية الناجحة بما حصلت عليه من الاستقلال، بل تظل متأثرة بالخطر الذي يهدد بعض حدودها من ناحية الإمبرياليين القدماء أو غيرهم، وبعدم كفاية مواردها الاقتصادية أو قلة سكانها، أو كثرتهم ولذا تسعى الدولة القومية الجديدة إلى إخضاع مناطق مجاورة، وعلى هذه الشاكلة تنتقل إلى الإمبريالية. غير أن هذه الفروض على صحتها لا تؤدي إلى هذه النتيجة دائماً إلا إذا بلغت الأمة ذات الحركة القومية الناجحة مبلغ الإمبرياليين في القوة الحربية والاقتصادية، والحضارية كذلك. ثم إن الأمم الحديثة العهد بالاستقلال تنشأ عادة بفضل مجهودات المنظمات الدولية، وتبلغ نضجها السياسي بفضل ما تبذل من جهود في سبيل المعرفة بأن الاشتراك السياسي والاقتصادي والثقافي، في هيئته أوسع حدوداً وآفاقاً من حدود الأمة الواحدة وآفاقها، هو الثمن الذي تدفعه كل أمة من الأمم الكبيرة قبل الصغيرة، لقاء الحرية في تكوين حضارتها ومؤسساتها ومستقبل سكانها. ومن هذا يتضح أن بلوغ أية حركة قومية مبلغ الإمبريالية لا يكون إلا نادراً وعلى غير القياس.

ومع هذا يستطيع الباحث أن يلحظ المراحل المتعاقبة في حياة الأمم على وجه التعميم، وهي مرحلة الاستقلال القومي، ومرحلة الإمبريالية القومية، ومرحلة التعاون الدولي. فأمم الشرق الأوسط هي على الأغلب في أول مرحلة من هذه المراحل، والأمم السوفيتية في المرحلة الثانية، وأمم حلف شمال الأطلسي في المرحلة الثالثة. على أن أمم حلف شمال الأطلسي اجتازت مرحلة الإمبريالية القومية، بالنسبة للعلاقات التي تربط بعضها ببعض، وهي تعمل الآن من أجل التعاون الدولي، وتريد أن تنظم علاقاتها على قاعدة التعاون مع قوميات الشرق الناشئة.

وعلى هذا فإن شعوب الشرق الأوسط لم تجابه في كفاحها من أجل الاستقلال الوطني إمبراطورية العثمانيين وإمبريالية بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا فقط، بل أنها تجابه الآن إمبريالية روسية، واهتماماً متزايداً من ناحية الولايات المتحدة. وكانت المصالح الإمبريالية لكل دولة من هذه الدول في الشرق الأوسط مختلفة، غير أنها جميعها أدركت الأهمية الإستراتيجية والتجارية لطرق الشرق الأوسط في البر والبحر، كما أدركت في السنين الأخيرة أهمية موارد النفط الموجودة في تلك المنطقة. وبالنظر لاعتماد بريطانيا على قوتها البحرية، ولاهتمامها بالمرور إلى الهند، فإن مصلحتها في هذه المنطقة أعظم من مصلحة جميع الدول الأخرى، مع العلم بأن روسيا التي تمسك المضائق التركية بخناق موانئها في البحر الأسود تكاد تكون مصلحتها بالأهمية نفسها. يضاف إلى ذلك أن روسيا القيصرية اضطلعت نفسها بدور الحامي للمسيحيين الأرثوذكسيين في بلاد البلقان وتركيا وسوريا - وهذه مصلحة تخلت عنها الحكومة السوفيتية. وبالنظر لأن إمبريالية بريطانيا ضمت عدداً كبيراً من السكان المسلمين، صادقت بريطانيا مسلمي الشرق الأوسط صداقة تقليدية، لكنها عندما تولت الانتداب اضطلعت بدور يشوبه التناقض، وهو دور الحامي لليهود في فلسطين. وحاولت ألمانيا بعد زيارة القيصر لدمشق سنة ١٨٩٨ أن تحل محل بريطانيا في دور الصديق الأول للمسلمين، كما أن فرنسا بتقاليدها التي تعدو إلى الوراء حتى تصل إلى أيام الصليبيين، وإيطاليا التي اتصلت اتصالاً وثيقاً بالفايكان منذ الحرب العالمية الأولى، حاولت كل منهما الاضطلاع بدور الحامي للكاثوليكين في الشرق، برغم عدد المسلمين الكبير الخاضع لحكم كل منهما. واليوم ترقب

كل من الدول السوفيتية التي تقودها موسكو، والدول الديمقراطية التي تقودها واشنطن مناورات الكتلتين في منطقة الشرق الأوسط.

وتعد المصلحة الدينية قوة كبيرة في الشرق الأوسط، بصرف النظر عن ارتباطها بالإمبريالية القومية. ذلك لأن المسلمين والنصارى واليهود وهم في مجموعهم نصف سكان العالم يولون وجوههم شطر المدن المقدسة في فلسطين والحجاز، باعتبارها أماكن ذات أهمية تاريخية، وقدسية وإجلال يحج إليها الحجاج. وجهدت بعض المنظمات الدينية لكي تحصل لنفسها على السيطرة على هذه المناطق، لتؤمن الحجاج ومستعمرات المستوطنين والأماكن المقدسة. ولم يناع أحد سيطرة المسلمين على مدينتي الحجاز المقدستين - مكة والمدينة - منذ أيام محمد صلى الله عليه وسلم حتى الآن. واحتدم النزاع خلال أربعمئة سنة من العصور الوسطى بين المسحيين والمسلمين على الأراضي المقدسة، لكنه كان نزاعاً لا طائل تحته. أما اليهود فابتهلوا منذ أيام السبي، بالقرب من حائط المبكى الكائن في موقع هيكل سليمان في القدس، ومن أجل عودة السيطرة لهم على هذه البقعة المقدسة، ونجح الصهيونيون الحديثون في تعريف معظم الساسة الأوروبيين والأمريكيين بحق الشعب اليهودي في فلسطين، حتى أن كثيراً من الصهيونيين فسروا هذا الحق بأنه ينطوي على فرض سيطرتهم على المسلمين أصحاب الحق الفعلي فيها منذ القرن السابع الميلادي. ثم انتقلت السيطرة على فلسطين من تركيا المسلمة إلى بريطانيا المسيحية، وهي التي يوجد في إمبراطوريتها ما يكفي من الأصدقاء لكل من الجانبين للتأثير على سياستها. وينص الانتداب على فلسطين على سيطرة الدولة المنتدبة على الأماكن المقدسة، وعلى تشكيل

لجنة يصادق عليها مجلس عصبة الأمم لتعيين حقوق الطرفين. غير أن هذه اللجنة لم تتشكل، مع أن لجنة خاصة صادق على تشكيلها ذلك المجلس قدمت تقريراً عن الادعاءات الخاصة بحائط المبكى، ١٩٢٩. ولم تكن الجهود البريطانية المبذولة للتوفيق بين مطالب اليهود والمسيحيين والمسلمين المتعارضة بالنسبة للسيطرة النهائية على الأراضي المقدسة ترتضيها أية جهة من هذه الجهات، فاللجنة العربية في فلسطين، ومفتي القدس الأكبر، وجمعية فادليومي التي تنظم شأن اليهود في فلسطين، والمؤتمر الصهيوني العالمي، وبطربرك اللاتين في القدس، والمستعمرين المسيحيين في فلسطين - كانوا كلهم ينتقدون الإدارة البريطانية في فلسطين.

ثم أدى طلب الصهيوينيين بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها بتأسيس دولة مستقلة لهم، ومقاومة جامعة الدول العربية المؤسسة حديثاً لذلك الطلب، إلى حصول توتر شديد وإلى عرض القضية على هيئة الأمم المتحدة وتوصية مجلسها العام في سنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين وتأسيس دولة إسرائيل اليهودية. ثم تخلت بريطانيا عن الانتداب، وعدل مجلس الأمن تنفيذ قرار المجلس بالقوة، فأدى ذلك إلى وقوع حرب سافرة نتجت عن فوز إسرائيل التي اعترف بها بصورة عامة عضواً في هيئة الأمم المتحدة.

## ٢- اتجاهات الرأي العالمي

ليست هناك معلومات يمكن بواسطتها إجراء تقدير دقيق للتأثير الذي تحدثه اتجاهات الرأي العام في الشرق الأوسط حالياً. ولما كانت اتجاهات الرأي العالمي تعتمد على آراء دولية تتعرض للتبدل والتغيير السريع بواسطة

التعليم والدعاية، فإن المحاولات التي تبذل لتطبيق هذا التقدير على المستقبل لا بد أن تتعرض لمقدار كبير من الخطأ.

غير أنه من المعقول مثلاً أن المواصلات الداخلية بين بلدان الشرق الأوسط نفسها، والمواصلات بينها وسائر أنحاء العالم سوف تزداد، وأن ذلك سوف يصحبه ازدياد في تأثير الاتجاهات العالمية السائدة في العالم على بلاد الشرق الأوسط. والمعروف أن الحضارة العالمية منذ عهد النهضة الأوروبية اتجهت نحو الاعتراف بحرية الفرد في اختيار الديانة التي يعتنقها، والثقافة التي يتخذها لنفسه، ونحو التسليم بالمساواة المعنوية بين البشر، مع تخطئة المزاعم القائلة بالتفوق الفطري لأي طبقة أو صنف أو عنصر أو قومية. واتجهت الحضارة العالمية كذلك نحو التسليم بأن الطريقة العلمية هي السبيل إلى المعرفة، وأن هذه الطريقة هي التي تضمن الفائدة الاقتصادية، لأنها تضيء على تقاسيم العمل الوظيفي والجغرافي والتبادل المهني أوسع معانيه الروحية والجغرافية. والفضل في استقرار هذه القواعد يرجع إلى التسليم بنسبة القيم الإنسانية إلى الحضارة والتاريخ، وبالفائدة الاقتصادية من الوجود المشترك لعدة قوميات مختلفة تتصل بعضها ببعض اتصالاً معتدلاً.

غير أن القوميات الحديثة أوذيت في بعض الأزمان والأماكن بسبب الاضطهادات والإخضاع بالإكراه، وقمع الأفكار والحكم المطلق، والمقترحات الاستعمارية والديكتاتورية. ومع هذا لم تكن هذه المعاطر اتجاهات الرأي العام عن السير نحو الحرية والإنسانية. وفي الشرق الأوسط قامت سابقاً عدة عقبات في سبيل أشباه هذه الاتجاهات، مثل الحزازات الدينية، وقلة المسؤولية الجماعية اتجاه الاعتداءات الخارجية، وبقايا الأقطاع، وانعدام

الزعامة التي تحمل روحية الشعور بالمصلحة العامة، والتأخر الموجود في التطور الاقتصادي والرأي العام والإدارة المدنية. على أن الاتجاهات العالمية نحو الحرية والإنسانية إذا استمر وجودها سوف تجعل الدين شأنًا من شؤون الوجدان الفردي، لا قوة من القوة السياسية التي لها المقام الأول. وسيزداد تسليم القانون باستقلال الفرد ومسؤوليته، ويعظم شأن الشعور القومي باعتباره قوة سياسية ذات أثر فعال بين سكان البلاد الذين تجمع بينهم صفات حضارية وجغرافية واضحة، ثم أن استخدام العلم في الشؤون الاقتصادية سيزداد، فيعمل على انتشار التجارة الدولية والتخفيف من غلواء القومية. وستتضاءل الإمبريالية، الاستعمارية فتفسح المجال للحكومات القومية كي تكون مسئولة عن الأمن والنظام محلياً، كما تفسح للمؤسسات الدولية لتصبح مسئولة عن تسوية الخلافات الدولية وتنظيم التجارة العالمية. ومن الواضح أن السبيل إلى هذا وذاك ينحصر في تقوية هيئة الأمم المتحدة وسياستها المتمشية مع اتجاه المدنية العالمية.

### ٣- المؤسسات الدولية

العالم السياسي والقانوني يسير اليوم في دور الانتقال، فمنذ عهد النهضة الأوروبية، وخاصة منذ معاهدة وستفاليا، أضحي القانون الدولي يؤكد سياسة الدولة الإقليمية، ويقيد اتجاهات الدول التوسعية، وترك المحافظة على النظام القائم إلى طبيعة توازن القوى. وظلت هذه الأفكار ذات أهمية كبيرة منذ القرن السادس عشر، حين تألفت من الطبقة الأرستقراطية وطبقة رجال الدين طبقات دولية ذات شأن يلتزم أعضاؤه بعض المقاييس الدولية المصطلح عليها بينهم. وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر كون التجار طبقة دولية

خاصة، بعيدة نوعاً ما عن الشؤون السياسية، وبنوا أنفسهم نفوذاً للمحافظة على مقاييس دولية معينة لحماية التجارة. ثم تغيرت معايير هذه الطبقات الاقتصادية وخاصة في القرن التاسع عشر، ودخلت دول جديدة ذوات تقاليد حضارية مختلفة في أسرة الأمم، وانحط شأن التأثير الأخلاقي الذي دعم النظام الدولي، وأصبح التوازن المادي وحده أساساً للقانون الدولي.

وعلى الرغم من رداءة المواصلات وشؤون النقل والاقتصاديات في القرنين السابع عشر والثامن عشر استطاع المجتمع الأوروبي، برغم عدم انتظامه النسبي والانشقاق الذي ولدته الحروب، أن يحافظ على احترام كاف للمقاييس الدولية القانونية والأخلاقية، وأن ينشر الاعتقاد بأن أوروبا مجتمع يسير قدماً نحو التكوين الذاتي. واستمر القانون الدولي في القرن التاسع عشر على القيام بواجبه حتى بعد وقوع الثورة الصناعية، وانتشار الطبقات الدولية السابقة في الشرق. ومن الأمثلة على ذلك أن بريطانيا استطاعت بقوتها البحرية ونفوذها المالي أن تسيطر على حرية البحار لتجارتها، وأن تخفف من غلواء الحواجز التجارية، وتمنع غيرها من الاستيلاء المفرط على ما وراء البحار، ثم تدعم توازن القوى في أوروبا. غير أنه ثبت في القرن العشرين أن هذا النظام لا يفي بالمرام، لأن اختراع الغواصة والطيارة، وتصنيع الولايات المتحدة وألمانيا واليابان حطم قدرة بريطانيا على تنظيم شؤون العالم حسب مشيئتها. يضاف إلى ذلك أن ازدياد السيطرة الديمقراطية على العلاقات الخارجية زاد في تأثير المصالح الداخلية على سياسة الدول الخارجية، فجعل توازن القوى أقل استقراراً، كما أن نمو المبادئ الاشتراكية أواخر القرن التاسع عشر، وازدياد نفوذ العمال غير الملمين بقواعد علم الاقتصاد، أدى إلى

اشتداد الضغط القديم لحماية التجارة. ونتج عن ذلك أن ازدادت الحواجز التجارية على الحدود الوطنية، وتضعف صرح العالم السياسي، وازدادت المخاوف من الحرب وحالة الحصار، وأخذت الدول تركز اقتصادها الوطني للاستعداد الحربي. وعلى هذه الشاكلة تعثر الاقتصاد العالمي في تأدية واجبه، وأخذت كل أمة تكثر من اعتمادها على خطة مرسومة للتجارة العالمية، من أجل المحافظة على مستوى معيشتها. وامتد ذلك الفساد في النظام السياسي العالمي، واندفاع العالم نحو أتون الحرب المستمرة.

ثم أدرك الساسة في المدة التي وقعت فيها الحرب العالمية الأولى خطورة هذا الوضع، وخاصة ودرو ويلسن، فاقترح تعديل القانون الدولي في اتجاهات أربعة، أولها حفظ سيادة الدول مع الحد من هذه السيادة، وتقييد حقها المطلق في شن الحروب والبقاء على الحياد. وثانيها تقييد الحق المطلق في حكم كل دولة من الداخل لرعاياها داخل بلادها، بمعاهدات الأقليات ومؤسسة العمل الدولي وسائر المؤسسات الدولية والإنسانية. وثالثها تقييد الحق المطلق للدولة الاستعمارية في حكم المستعمرات، بقواعد نظام الانتداب، وبالاتفاقات المختصة بالرقيق وتجارته، وسائر الاستعمالات التي تنزل بالشعوب المتأخرة. ورابعها تقييد التجارة الدولية، وتجارة الترانسيت. واشتمل ميثاق عصبة الأمم، كما اشتملت اتفاقية باريس على هذه التعديلات التي وضعت موضع التنفيذ عن طريق عدد من المؤثرات الدولية الاقتصادية.

ولوضع الأسس السياسية لهذه التعديلات تقرر أن تحل عصبة الأمم محل التوازن الدولي المرتكز إلى المحالفات والمؤتمرات السياسية والسيطرة البحرية البريطانية. فتقوم العصبة بتنظيم العمل الجماعي ضد الاعتداء، وفرض

التسويات للمنازعات الدولية، وتسهيل المداولة المستمرة بين الدول لتعزيز التوازن السياسي، وخلق رأي عالمي عن طريق إجراء مباحثات بين حين وآخر بين ممثلي الأمم في مجلس عالمي. وأدركت دول العصبة أهمية القوانين الجديدة التي شرعتها ضد الحرب واضطهاد الأقليات، والإمبريالية والحواجر التجارية. لكن الدول التي أخذت تولي وجهها شطر الأمن الجماعي، واحترام حقوق الإنسان، واستقلال الشعوب، والتجارة الحرة، أحست بأن القوانين الجديدة شديدة التحديد، ضيقة المجال، غير وافية بالمرام، وأن الساسة والرأي العام في معظم الدول الكبرى ما يزالون يفكرون بعقلية القوانين القديمة. وتنج عن ذلك أن عادت أمريكا إلى عزلتها القديمة، وعادت الدول إلى مزاوله أساليبها البالية، والسير على مقتضى الرجعية، فكانت النتيجة وقوع حرب عالمية ثانية. ثم أدت هذه الحرب إلى محاولة تنظيم الشؤون العالمية بميثاق الأطنطي (١٩٤١) أولاً، وبعلان تأسيس هيئة الأمم المتحدة (١٩٤٢)، ثم بميثاق الأمم المتحدة (١٩٤٥).

وبرغم الفشل الذي منيت به مبادئ عصبة الأمم قبيل الحرب العالمية الثانية، فمما لا شك فيه أن ما حدث بفضل هذه المبادئ في المدة الواقعة بين الحربين العالميتين لم يخل من فائدة، برهان ذلك في الشرق الأوسط أن نظام الانتداب ساعد العراق على أن يصبح دولة مستقلة. على أن هذا النظام كان أقل نجاحاً في سوريا ولبنان، لأن سياسة فرنسا عملت على المحافظة على وضعها الاستعماري القديم في مناطق انتدابها، وهذا على حين أخذ الرأي العام في كل من سوريا ولبنان يسير مسرعاً في الطريق التي سار فيها العراق. ففي سنة ١٩٣٦ امتنع البرلمان الفرنسي عن المصادقة على معاهدتي

التحرر المنعقدتين مع سوريا ولبنان، وفي سنة ١٩٣٩ خالفت الحكومة الفرنسية شروط انتدابها بتنازلها عن الإسكندرونة إلى تركيا. ثم جاءت الحرب العالمية الثانية، فلم تلبث سوريا ولبنان أن أصبحتا دولتين مستقلتين، ولم يلبث استقلال هاتين الدولتين أن اعترفت به جميع الدول، قبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها، ثم أصبحتا عضوين في هيئة الأمم المتحدة.

وتطلب الانتداب على فلسطين من الدولة المنتدبة أن تمهد للحكم الذاتي وحصول البلاد على الاستقلال في النهاية، كما جرى لسائر بلاد الشرق الأوسط التي خضعت للانتداب، على أن تساعد الدولة المنتدبة في تكوين وطن قومي لليهود، مع اعتبار ما يستحقه سائر السكان المحليين من حقوق مدنية ودينية، وما يلزم من الوسائل لحماية الأماكن المقدسة، غير أن العرب الذين احتجوا على فصل فلسطين عن سوريا، لأنهما كانتا وحدة إدارية في ظل الحكم التركي، أصروا على أن الانتداب لا يمكن أن يتحقق إلا بتأسيس حكومة عربية في البلاد، وهذا على حين اعتقد الصهيونيون بأن الانتداب يسمح بتكوين دولة يهودية. وقال آخرون أن شروط احترام الأماكن المقدسة تحول دون حصول هاتين النتيجتين، وإزاء هذه المتناقضات انتهجت الإدارة البريطانية في فلسطين سياسة انتهازية، فوَقعت عدة حوادث عنيفة، وشب الوطن القومي اليهودي، وتأثير الضائقات التي حصلت في الثلاثينات السابقة للحرب العالمية الثانية ازداد التوتر، وأخذت بريطانيا تتراوح بين محاولة التوفيق بين العرب واليهود، أو تقسيم البلاد بين الطرفين، أو تكوين دولة يكون فيها اليهود أقلية دائمة.

وأثارت الناحية القانونية من مشكلة فلسطين عدة أسئلة وهي: أولاً هل

كانت سوريا في الوعود البريطانية المعطاة للعرب تشتمل على فلسطين أيضاً؟ هل كان يقصد بالوطن القومي لليهود أن تكون فلسطين كلها وطناً قومياً لهم؟ هل كانت الحقوق المدنية والدينية الموعودة للعرب تشتمل على الحقوق السياسية أيضاً؟ هل كان امتياز الهجرة اليهودية إلى فلسطين ينص على قيود تقتضيها اعتبارات النظام السياسي في البلاد، أو أنه كان مرتبطاً بالقيود التي تقتضيها قابلية البلاد الاقتصادية على استيعاب المهاجرين؟ أما البريطانيون فصرحوا بأنهم لم يعنوا فلسطين مطلقاً في وعودهم المعطاة إلى العرب، وأنهم لم يعدوا لليهود قط بدولة قومية في فلسطين، وأن الحقوق المدنية والدينية تشتمل أيضاً على الحقوق السياسية الضرورية لتأمينها.

والسؤال الخاص بالهجرة يضع المشكلة أمام الأنظار وضعاً عملياً، إذ أصرت السياسة البريطانية المعبر عنها في الكتاب الأبيض، المنشور سنة ١٩٣٩، على أن الاعتبارات السياسية يجب أن تؤثر في الخطة الموضوعة للهجرة، وأن واجب المحافظة على النظام في البلاد لا يسمح باتخاذ سياسة تؤدي إلى أن تتجاوز نسبة اليهود في البلاد ثلث عدد السكان الموجودين في البلاد، وهي نسبة كانت موجودة تقريباً في ذلك الوقت. ثم أن هجرة شعب أجنبي إلى منطقة مسكونة تسبب حدوث اضطرابات سياسية، عندما تتجاوز تلك الهجرة مقداراً معيناً من الناس. ومع هذا يمكننا أن نشك فيما إذا كان التحديد القاطع لنسبة اليهود بثلث مجموع السكان متفقاً عليه، إذ المعروف أن كلاً من اللجان البريطانية واليهودية قدرت العدد الممكن استيعابه تقديراً مختلفاً. ومثال ذلك أن بعض الصهيونيين يعتقد بأن مليونين آخرين من اليهود يمكن إسكانهم في فلسطين، وهذا على الرغم من أن فلسطين وحدها لا

يمكنها أن تحل مشكلة اضطهاد اليهود، وأن معظم اليهود يجب أن يعيشوا على الدوام خارج تلك البقعة الضيقة.

الحقيقة هي أن نظام حماية الأقليات الذي كان موضع الأمل في علاج هذه المشكلة دل على أنه أقل نجاحاً من نظام الانتداب، وهذا مع العلم بأن كلاً من النظامين أعوزه الكثير من الصراحة من جانب الدول الكبرى. يضاف إلى ذلك أن نظام الأقليات كانت تنقصه لجنة فنية مثل لجنة الانتدابات الدائمة في عصبة الأمم، فكانت النتيجة أن جنح مجلس العصبة إلى التأكيد على النواحي السياسية لكل قضية من قضايا الأقليات. ثم أنه لا يمكن أن يقال مثلاً أن الأقليات المسيحية في العراق استفادت بشيء من العهود التي أضيفت إلى شروط التحرر من الانتداب، كما لا يمكن أن يقال أن اليهود تمتعوا بالحماية التي كانت من حقهم في دول أوروبا الوسطى المرتبطة بمعاهدات الأقليات.

على أن نظام العصبة الموضوع لتسوية المنازعات السياسية نجح في منطقة الموصل، حيث استخدمت طريقة تعيين لجنة تحقيقية في موضع النزاع، وأخذ فيها رأي استشاري من محكمة العدل الدولية الدائمة، ثم استخرج الحكم النهائي من مجلس العصبة، وكانت النتيجة أن وافقت تركيا آخر الأمر على ضم هذه المنطقة الهامة إلى العراق. ونظرت عصبة الأمم في مشاكل مشابهة، ومنها فيما يخص الشرق الأوسط مشكلة امتياز النفط البريطاني في إيران، ومشكلة الحدود بين العراق وإيران، ومطالبة تركيا بمنطقة الإسكندرية؛ وساعدت المؤتمرات التي انعقدت بمساعدة العصبة على تسوية مشكلتي المضائق التركية والامتيازات الأجنبية في مصر.

ومن ناحية الأمن الجماعي امتحنت عصبة الأمم امتحاناً عسيراً بالهجوم الذي شنته إيطاليا على الحبشة الواقعة على حواشي الشرق الأوسط، ولا شك أن الفشل الذي منى به نظام الأمن الجماعي ساعد كثيراً على انهيار العصبة، ونشوب الحرب العالمية الثانية. على أن نشاط العصبة بوجه عام خلال السنوات الخمس عشرة التي سبقت هذا الامتحان ساعد على شيء من الاستقرار في الشرق الأوسط، كما ساعد على نمو القومية العربية، والتخفيف من غلواء المنافسات الاستعمارية، فضلاً عن تحسين شئون التجارة في الشرق الأوسط.

#### ٤ - سياسة الأمم المتحدة

تقوم سياسة هيئة الأمم المتحدة على قاعدة تعميم مبادئ عصبة الأمم وتحقيقها عملياً. ذلك أن النصر الذي أحرزته الأمم المتحدة في الحرب مهد لها السير في طريق عملي، كما أضافت الخبرة التي حصلت عليها الدول في عصبة الأمم إلى مقدرتها الدبلوماسية على اختيار الأساليب الكفيلة بالنجاح. على أن الانشقاق الحاصل بين روسيا والدول الغربية على أثر الانتصار المشترك كان شيئاً أكيداً، كما أن انقلاب هذا الانشقاق إلى حرب باردة بعد ١٩٤٧ أضر كثيراً بقدرة المنظمات التي تأسست بموجب ميثاق هيئة الأمم المتحدة ١٩٤٥. وتنحصر غايات الميثاق فيما يلي: (١) المحافظة على السلم الدولي، وتوطيد دعائم الأمن عن طريق العمل الجماعي الذي يستهدف منع الاعتداء والحيولة دون وقوعه، وحسم المنازعات الدولية بالطرق السلمية (المادة الأولى ١ - ٣٣ - ٥٤). (٢) إعطاء الشعوب المستقلة حقوقاً متساوية وحكماً ذاتياً، لتبادر إلى ترويج التقدم السياسي والاقتصادي،

والاجتماعي، والتعليمي، لتلك الشعوب وتمتعها بالحكم الذاتي أو الاستقلال في النهاية (المادة الأولى ٢ - ٧٣ - ٨٥). (٣) احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع، دون تفریق بين عنصر أو جنس أو لغة أو دين (المادة الأولى ٣ - ٥٥ - ٥٦). (٤) تحقيق التعاون الدولي لرفع مستويات المعيشة، وتهيئة الأحوال المناسبة المتقدم الاقتصادي والاجتماعي، وحل المشاكل الدولية الاقتصادية، والاجتماعية، والحضارية، والتعليمية (المادة الأولى ٣ - ٥٥ - ٦٠). وبدأت الأمم المتحدة في تحقيق هذه الغايات جميعها بدرجات مختلفة من النجاح في بلاد الشرق الأوسط.

وللمحافظة على السلم والأمن تدخلت الأمم المتحدة في الاشتباكات التي وقعت بين الدول العربية وإسرائيل، ونجحت في عقد الهدنة التي تدخل فيها وسيط الأمم المتحدة بين إسرائيل والدول العربية لوقف القتال، لكنها لم تحقق السلم في فلسطين. وسعت هيئة الأمم المتحدة في حسم النزاع الناشب بين بريطانيا وإيران بشأن تأمين شركة النفط الأنجلو إيرانية، وبين بريطانيا ومصر بشأن معاهدة ١٩٣٦، وبين فرنسا ومحميات شمال أفريقيا، ولكنها لم تحسم واحدة من هذه المشاكل، مع أن محكمة العدل الدولية اعترفت بأهلية إيران لتأمين الشركة، على أن تلتزم إيران بدفع التعويضات المطلوبة، كما أن مصر ألغت المعاهدة المختلف بشأنها.

ومن الواضح أن عزم هذه الشعوب على الاستقلال هو محور هذه الاختلافات، فتمكنت كل من مصر وإيران من تحرير نفسها من القيود المفروضة عليها، وحظيت تونس ومراكش بسماع قضيتهما في سبيل الحكم الذاتي في هيئة الأمم المتحدة، غير أنه لم تتخذ من أجل ذلك أية خطوة

عملية سوى مناشدة فرنسا الاستمرار في التفاوض. على أن استقلال ليبيا تحقق عن طريق الجهود التي بذلتها هيئة الأمم المتحدة، بعد أن عجزت الدول الكبرى عن الاتفاق على وضع منهج ما لتلك البلاد.

على أن الجهود التي بذلتها هيئة الأمم المتحدة لترويج احترام حقوق الإنسان كانت أقل أعمالها نجاحاً، فالمبادئ التي سجلها الميثاق بإعلان حقوق الإنسان إعلاناً عاماً صادق عليه مجلس الهيئة سنة ١٩٤٨، ولكن أريد بذلك تعظيم شأن الخطط الموضوعة لحماية الأقليات في ظل عصبة الأمم وتعميمها في العالم. غير أن معاهدات حماية الأقليات التي انعقدت أيام عصبة الأمم لم تؤد في الواقع إلى حماية الأقليات، فالأرمن في تركيا عانوا اضطهادات كثيرة، كما أن إخراج الأقليات وتقتيلهم بصورة وحشية في ألمانيا الهتلرية وروسيا الستالينية تكرر وقوعها في الشرق الأوسط أيام وجود هيئة الأمم المتحدة. ذلك أن قيام إسرائيل أدى إلى هرب ما يزيد على نصف مليون عربي من تلك الدولة والنجائهم إلى البلاد العربية المجاورة، وبذلك فرضت مشكلة اللاجئين العرب على هيئة الأمم المتحدة، كما هاجر اليهود في أعداد كبيرة من تركيا والعراق وأفريقيا الشمالية بالإكراه أحياناً. وقد حاولت هيئة الأمم المتحدة أن تنمي منهج حقوق الإنسان عن طريق إعداد موثيق تنص على أساليب فعالة لوضع تلك الحقوق موضع التنفيذ، غير أنه برغم المجهود المجدي المبذول في لجنة حقوق الإنسان لم ينجز إلا القليل في هذا الشأن، والحقيقة هي أن عدة دول بما فيها الولايات المتحدة تخشى أن تصطدم هذه الموثيق بتشريعيها الداخلي.

وفي مناهجها للمساعدة الفنية سعت هيئة الأمم المتحدة والولايات

المتحدة أن تدخل أساليب جديدة في الزراعة، وإصلاح الأراضي، ومساعدة التقدم الصناعي، وتحسين الحالة الصحية، ورفع مستويات المعيشة في بلاد الشرق الأوسط. وتعاونت في هذا المجهود المنظمات المختصة، ولاسيما اليونسكو، ومنظمة التغذية والزراعة ومنظمة العمل الدولي، ومنظمة الصحة العالمية. وأصابت بعض هذه الجهود نجاحاً غير يسير، لكن مشاكل المقاومة السياسية والاجتماعية والثقافية، فضلاً عن التخريبات التي سببتها الحرب في كثير من الأصقاع، جعلت التقدم بطيئاً.

ويشجع ميثاق الأمم المتحدة تأسيس تكتلات إقليمية لأغراض سياسية واقتصادية معاً (المواد ٥٣ - ٥٤)، ثم هو يسمح بتكوين تكتلات للدفاع الجماعي. (المادة ٥٢). والمعروف أن الدول الأمريكية، ودول الشرق الأقصى، وبعض الدول الأوروبية الغربية، ومجموعة الدول السوفيتية، ورابطة الشعوب البريطانية، أسست مؤسسات إقليمية قبل نشوب الحرب العالمية الثانية. ثم قامت هذه الدول كلها على تنمية هذه المؤسسات مع وجود هيئة الأمم المتحدة؛ لكن الشرق الأوسط لم يفكر في اقتراحات للتنظيم الإقليمي قبل الحرب العالمية الثانية، مع أن عدداً من المخالفات انعقدت بين دول تلك المنطقة خلال المدة الواقعة بين الحربين، كما أن بريطانيا عقدت معاهدات تحالف مع العراق (١٩٣٠)، والمملكة العربية السعودية (١٩٢٧)، والأردن (١٩٢٨)، ومصر (١٩٣٦)، ولا يزال بعض هذه المعاهدات نافذ المفعول اسماً. ثم تأسست جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٥، وأتمت معاهدة الضمان الجماعي سنة ١٩٥٠، وهي تقوم بعملها في ظل هيئة الأمم المتحدة، وهي أكثر منظمات الشرق الأوسط شمولاً منذ زوال الإمبراطورية العثمانية.

ويتطلب النظام العالمي تدبير شؤون الشرق الأوسط بحزم فائق ومساعدة مستمرة من ناحية المؤسسات العالمية. على غرار ما هو مطلوب في منطقتي البحر الكاريبي وبحر الصين الجنوبية. وفي استطاعة المؤسسات العالمية أن تمهد السبيل لتقوم الدول الوطنية والمنظمات القومية، كجامعة الدول العربية، بتوسيع أفق الشؤون الاقتصادية. وبذلك يروج استتاب الأمن السياسي والتقدم الاجتماعي، ويقلل انجذاب الخصومات الإمبريالية نحو هذه المنطقة الهامة التي بقيت ضعيفة حتى الآن. ثم أن التنظيم الدولي الذي يؤمن حقوق الملاحة الحرة في الطرق المائية الموجودة في الشرق الأوسط سوف يلطف من خشية الأمم من الاختناق التجاري، ويعمل على استقرار العالم.

غير أن هذا الاستعراض لقوى القومية والإمبريالية والدين والسياسات التي كانت تدفع دول العالم بتأييد من الرأي العام ومؤسسات عصابة الأمم المتحدة - لا يعطي أي دليل يشير إلى المستقبل الذي ينتظر هذه البقعة من العالم. وأهم العوامل الحاضرة جميعها هو الحرب الباردة التي تطلب من الدول المختلفة أن تنجح نحو إحدى الكتلتين، أي الكتلة السوفيتية التي تسيطر عليها روسيا، وكتلة شمال الأطلسي التي تسيطر عليها الولايات المتحدة. والشرق الأوسط منطقة ذات أهمية رئيسية في هذا التخاصم، كما كانت في النزاع السابق الذي احتدم بين دول المحور والأمم المتحالفة.

وكانت ميول هذه المنطقة متجهة نحو الغرب، لأن سياسة ترومان التي أعلنتها الولايات المتحدة في مارس ١٩٤٧، شملت المساعدة العسكرية والاقتصادية لليونان وتركيا وإيران، ونصت في الحقيقة على أن سياسة الولايات المتحدة ترمي إلى تأييد الشعوب الحرة التي تقاوم الإخضاع بالإكراه أو بالضغط

الخارجي. والمعروف أن الوضع الجغرافي الإيراني عرضة للطوارئ على الرغم من المساعدة الأمريكية، لأن إيران تشترك مع الاتحاد السوفيتي في الحدود، كما أن حزب توده الموجود فيها حزب قوي يصطبغ بالصبغة الشيوعية. ثم أن إيران جابهت قلائل محلية خطيرة، وبقي خلافها متزايداً بالنظر لإيقاف العمل في شركة النفط الأنجلو إيرانية، وبقي خلافها مع بريطانيا بشأن تعويض هذه الشركة غير محسوم. وكذلك وضع البلاد العربية غير معلوم، على أنه من المفيد للغرب أن العراق والمملكة العربية السعودية وبلاداً عربية أخرى تستفيد من الأرباح التي تدفعها لها شركات النفط الغربية. وحصلت ليبيا على استقلالها عن طريق هيئة الأمم المتحدة، وانتفعت معظم البلاد العربية من مساعدة الغرب الفنية، وتوظيف الأموال الغربية، ومن تعلم أبنائها في الغرب. ثم أن مبدأ الكرامة والمساواة بين البشر، واحترام الدين، مما يمتاز به العالم الإسلامي، من شأنه أن يجذب الشرق الأوسط إلى الغرب، لا إلى الدول السوفيتية. ومما يلفت النظر أن نذكر بأن أهم مناقشة بحثت فيها مبادئ المعسكرين الديمقراطي والشيوعي جرت في جلسة من جلسات اليونسكو، وكان يدافع فيها عن الجانب الديمقراطي شارل مالك من لبنان، وعن الجانب الشيوعي رينكار من يوغوسلافيا، وكلا البلدين منضم إلى الغرب في الوقت الحاضر.

غير أن استيلاء البلاد العربية من تأييد إسرائيل في هيئة الأمم المتحدة، وخاصة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، أضحت مشكلة من المشاكل الدولية. ذلك أن استقلال تلك الدولة على غير رغبات أكثرية سكان فلسطين الأصليين، ومخالفة ذلك لما جاء في شروط ميثاق الأمم المتحدة التي ضمنت حقوق الشعوب، أساء إلى الشعوب العربية إساءة غير معرفة النتائج والمستقبل

ولم تسترجع الدول العربية ثقتها بعد ما أصابها من الاندحار في حرب إسرائيل، ثم إنها تخشى أن تتكون في إسرائيل اتجاهات توسعية نتيجة ازدياد السكان، ولا يزال يساورها الفزع بسبب تشتيت شمل اللاجئين في فلسطين، مع العلم بأنها لا تستطيع أن تعمل إلا قليلاً على تحسين الحالة. والشرق الأوسط مشتمز أيضاً من ضخامة حصة إسرائيل من المساعدة الفنية التي قدمتها الولايات المتحدة وهيئة الأمم المتحدة، بالقياس إلى الحصة التي أصابت الدول العربية، برغم كثرة عدد سكانها. يضاف إلى ذلك أن سير الخلاف الناشب بين بريطانيا ومصر وإيران، وخلاف فرنسا مع تونس ومراكش، يعتبرهما العرب دليلاً على دوام الإمبريالية التي قاوموها ردحاً طويلاً من الزمن. ثم أن تردد الولايات المتحدة والدول الغربية في تأييد قضايا الاستقلال، في هيئة الأمم المتحدة، يقارن مقارنة سيئة بموقف السوفيت في هذا الشأن. وأخيراً فإن وجود الفلاحين العرب بمستوى معيشي وثقافي منخفض يخلق حالة اجتماعية من النوع الذي تستفيد منه الدعاية الشيوعية بوجه عام.

وتدل المعارضة الشديدة التي تبذلها مصر وسائر الدول العربية ضد مشروع قيادة الشرق الأوسط التي اقترحتها الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا وتركيا في ١٩٥١، للدفاع ضد الاعتداء السوفيتي، على أن مجموعة الدول العربية غير مستعدة للانحياز إلى جانب الغرب. والظاهر أن هذا الموقف متأثر ما تذكره الدول العربية من مركز تموين الشرق الأوسط الذي سيطرت بريطانيا بواسطته على العرب سيطرة اقتصادية أثناء الحرب. ويبدو كذلك أن مجموعة الدول العربية تتوجس خيفة من أن يؤدي استخدام القواعد الجوية البريطانية التي تؤسس في المنطقة كلها، والتي يمكن أن تستخدمها أمريكا أيضاً، إلى التدخل في

الشؤون المحلية. وانزعجت مصر على الأخص من تقصير الدول الأربع في عدم استشارتها قبل التقدم بمشروع قيادة الشرق الأوسط، ومن علاقة المشروع بالاقترح البريطاني الذي لا يرضي مصر بشأن السويس والسودان وسائر شؤون معاهدة ١٩٣٦. ولذا رفضت مصر المشروع رفضاً قاطعاً، وفسخت المعاهدة، ثم بادرت الدول العربية بقيادة مصر إلى تعزيز منظمة الضمان الجماعي، وربما قصد بذلك اتخاذ تدابير وقائية ضد إسرائيل، لا ضد الاتحاد السوفيتي.

ولا شك أن الدول العربية ستحاول، هي وفنلاندا والسويد والهند وبورما والهند الصينية، أن تتحاشى توريط نفسها مع أحد الجانبين في الحرب الباردة، كما أنها ستحاول أيضاً تقوية حضارتها، وقابلياتها في الدفاع، واستقلالها السياسي في نطاق جامعة الدول العربية لدول الشرق الأوسط، وهيئة الأمم المتحدة لسائر الدول المذكورة هنا. غير أن نجاح دول الشرق الأوسط في مثل هذه الحيادية يبقى شيئاً مشكلاً بسبب ما للشرق الأوسط من أهميات إستراتيجية واقتصادية عظيمة.

والذي يبدو أن مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط إن لم يكن المشرفون عليه انصرفوا كلية عن التفكير فيه، فإنهم أطرحوه، وأعلنوا سنة ١٩٥٢ عن منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط التي تنتظم الدول الأربع صاحبة المشروع الذي رفضته مصر، مضافاً إليه استراليا ونيوزيلاندا وجنوب أفريقيا، على أن يكون مقر قيادة الشرق الأوسط جزيرة قبرص، وهي إحدى الممتلكات البريطانية منذ سنة ١٨٧٨.

# تطبيق مشاريع التنسي في الشرق الأوسط

تأليف

فيلكس بوشنسكي ووليم دياموند

ترجمة

جعفر خياط

## كلمة المحرر

الحوادث التي وقعت خلال السنين الثلاث التي مضت على كتابة هذا المقال لم تؤثر في الأسس التي عالج بها المؤلفان هذا الموضوع. غير أن عدة مشاريع طرأ عليها بعض التعديلات، والغرض من الملحوظات الموجزة التالية أن يصبح المقال شاملاً لأحدث التطورات التعميرية في هذا المجال.

ففي حوض النيل تجري دراسات فيما يسمى بخزان السد العالي الذي سوف يتكون بإنشاء سد يقع على مسافة أميال جنوبي خزان سد أسوان الحالي، وسوف تكون لهذا الخزان سعة هائلة للخزن، وهي ١٣٣ مليون قدم، بحسب ما تقوله بعض المصادر، كما أنه سوف يضبط مياه الفيضان، وينظم ري المزروعات، فضلاً عن خزن القوة المائية. وسيقوم هذا السد مقام الخزانات الأخرى التي سبق أن وضعت تصاميمها، لكنه سوف لا يؤدي إلى الاستغناء عن الحاجة لحفر قناة تحويل السد التي تجري الآن أعمال تمهيدية أخرى من أجلها. ويتقدم الآن العمل في سد أوبن تقدماً مطرداً.

وفي لبنان استؤنف العمل في مشروع الغاب للصرف والري، وفي مشروع استثمار حوض الليطاني. وتوصي بعض المطبوعات التي نشرت حديثاً باستثمار المياه وجميع موارد القوة المائية الموجودة في لبنان<sup>(١)</sup> على نسق مترابط الحلقات والمنافع أما في وادي الأردن فمشاريع التعمير والاستثمار

---

Maurice Gemay: La Planification des Eaux Libanaises, Beyrouth, (١)

تجري الآن بالقرب من حدود الهدنة بين الأردن وإسرائيل، والمشاريع التي أعدتها للحكومة الأردنية يسر مردخ ماكدونالد<sup>(٢)</sup> وهيئات النقطة الرابعة الأمريكية مبنية في الغالب على الاستفادة من نهر يرموك قبل اتصاله بالأردن. وفيما عدا الأعمال الإنشائية التي تجري في مشروع وادي الثرثار بالعراق، يتضمن التقدم الحاصل في شؤون التعمير إجراء بحوث وأعمال أخرى تختص بعدد مشاريع الري، وهذه هي التي سيقوم بتمويلها مجلس التعمير العراقي.

ومنذ عدة سنوات قامت الحكومة الأمريكية على مشروع وادي التنسي، واسمه الرسمي (Tennessee Valley Authority)، وذلك لضبط واستغلال مياه الحوض النهري المعروف باسم هذا الوادي الشاسع بأواسط الولايات المتحدة الأمريكية، للزراعة والري والصرف، وحفظ التربة من التعرية، وتنظيم التحريج، وتوليد القوة الكهربائية. وصرفت حكومة الولايات المتحدة، ولا تزال تصرف، على هذا المشروع المترامي الأطراف ملايين الدولارات، وأوضحت نتائج هذه الجهود التعميرية واضحة لزائر هذه المنطقة. واستعان المؤلفان باسم هذا المشروع الحيوي وفكرته - على قول المترجم في حاشية اقتبسناها هنا - للبحث في مختلف مشاريع التعمير واستثمار المياه في الشرق الأوسط.

المحرر

---

Sir Murdoch MacDonald & Partners. Report on the Proposed (٢)  
Extension of Irrigation in the Jordan Valley. (London. 1951).

منطقة الشرق الأوسط زراعية قبل كل شيء، فإن معظم سكانها يعيشون من الزراعة. والأعمال الزراعية هي المهن الرئيسية وأهم موارد الدخل، وفيما عدا النفط في إيران وبلاد العرب، والفحم واللجنات ومعدن الكروم في تركيا، وأملاح الفوسفات في مصر، والترابة (السمنت) في جميع المنطقة، ليس في أراضي الشرق الأوسط ترسبات معدنية معروفة ذات أهمية. وبينما تكون هذه المعادن وغيرها أساساً لنشوء صناعات محلية، فليس من المحتمل أن يشهد الشرق الأوسط يوماً ما تقدماً دولياً في ميدان الصناعة، عدا الصناعات التي تختص باستخراج المنتجات المختلفة من السلع الزراعية، أي المواد الزراعية والمنسوجات معاً. ومما لا ريب فيه أن نمو هذه الصناعات المحلية متوقف على رفع مستوى المعيشة في الشرق الأوسط، على أن يتمشى هذا النمو مع تحسين في شئون الزراعة والتوسع في الإنتاج الزراعي. والواقع أن الضغط المتزايد على الأرض، بسبب النمو السريع في عدد النفوس في منطقة لا يتعدى فيها النظام الزراعي إنتاج المحاصيل لسد مستويات الكفاف، يجعل للزراعة أهمية في المقام الأول، ويجعل الحاجة لتقدمها شيئاً مستعجلاً.

على أن هناك عوامل شتى تحول دون تحسين الزراعة وتوسيعها في الشرق الأوسط، ومن هذه عوامل أساسية في التربة والجو وبعض هذه الصعوبات لا ينبغي أن يستعصي على جهود الشرقيين غير أن أشد هذه الصعوبات وأكثرها استعصاء هو انعدام وجود الماء، ففيما عدا أجزاء معينة من تركيا ومرتفعات بلاد الحبشة وجنوب السودان وسواحل بحر قزوين في إيران، يعد الماء العامل الرئيسي الذي يقيد الإمكانيات الإنسانية في جميع

أنحاء الشرق الأوسط. فإذا بدا الماء وافراً كما هي الحال في الأراضي التي تخترقها الأنهر الكبيرة، فليس هناك فضلة كبيرة من هذه المياه تزيد عن الحاجة الحالية، بحيث تكون كافية لسد حاجة الزيادات السكانية التي سوف يتأكد حصولها في النصف التالي من هذا القرن العشرين.<sup>(٣)</sup> وفي الكتاب الذي عنوانه علوم الشرق الأوسط صوّر المؤلف وذرذنجتون هذه الحال تصويراً واضحاً في قوله أنه يوجد في الشرق الأوسط موردان جوفيان، لهما أهمية عظيمة هما الماء والنفط، وللماء المرتبة الأولى في الأهمية.<sup>(٤)</sup> وبرهن وذرذنجتون ببراعة على أهمية الماء للفرد، في مؤتمر يضم الخبراء الزراعيين في المنطقة. بالقول أن حوادث القتل التي تقع في الشرق الأوسط بسبب الماء تكاد تبلغ في عددها حوادث القتل الواقعة بسبب المرأة، وهو قول فيه شيء كثير من الصحة<sup>(٥)</sup> وعلى هذا يصح أن يقال أن الماء وليس النفط هو الذهب السائل في الشرق الأوسط.

ولا غرو فالشرق الأوسط منطقة جافة توجد فيها بواد شاسعة يقل فيها المطر سنوياً حتى يصل الصفر، وهي تنصف بوجه عام بموسم جاف طويل، وموسم قصير يسقط فيه المطر بكمية غير كافية للزراعة المجدية. ولذلك فإن

---

(٣) وذرذنجتون: علوم الشرق الأوسط، ص ٣٨. (لندن، ١٩٤٦).

(٤) المرجع السابق، ص ١٨.

(٥) مركز تموين الشرق الأوسط، التقرير الزراعي رقم (٦) - محاضر جلسات المؤتمر المنعقد حول التقدم الزراعي في الشرق الأوسط في القاهرة بتاريخ ٧ - ١٠ فبراير / ١٩٤٤. (القاهرة ١٩٤٤). ص ١٩٠.

٤% فقط من أراضي الشرق الأوسط بأجمعه تخضع للزراعة<sup>(٦)</sup> على حين ينتشر السكان في المنطقة كلها انتشاراً مشتتاً، لكنهم يحتشدون حول الآبار وفي الوديان، وبالقرب من الأنهر التي تستنزف المياه الجوفية، أو تنصرف إليها مياه المرتفعات التي تغذيها الأمطار، وهي مرتفعات واقعة في حواشي منطقة الشرق الأوسط. وينتج عن ذلك أن أجزاء من الشرق الأوسط تعاني ازدحاماً خطيراً في السكان، على حين تكون مسافات شاسعة من الأراضي الخصبة - ومن البادية - غير مأهولة. والحقيقة هي أنه توجد الآن في الشرق الأوسط أراض ذات فائدة أكثر مما يمكن استغلاله والاستفادة منه، أما لعدم وجود الأيدي العاملة أو لقلّة المياه التي يمكن أن تتيسر، وذلك بعد استخدام مياه جميع الأنهر وموارد المياه الجوفية المعروفة استخداماً تاماً.

وليست مشكلة المياه مشكلة جديدة في الشرق الأوسط، فتاريخ مصر هو قصة النيل نفسه، والمدونات التاريخية والأثرية للشرق الأوسط كله تشير إلى مدى استغلال موارد المياه والسيطرة عليها والاستفادة منها. ويرى عدد غير يسير من الخبراء أن هذه الجهود القديمة وفرت للشرق الأوسط الوسائل لإعاشة عدد أكبر من عدد السكان الذين يوجدون فيه الآن، مع عدم حصول تبدل هام معروف في الجو أو قلة في كمية الأمطار الهاطلة. كما أن الرأي يجمع كذلك على أن سوء استعمال الإنسان الماء والأرض بقطع أشجار الغابات، وعدم تنظيم شؤون الرعي، وبالسماح بحصول التعرية، وسائر أشكال الهدم والانحدار، كل ذلك عامل فعّال في تحويل كثير من الأصقاع إلى بوا،

(٦) منظمة التغذية والزراعة (F.A.O.) تقرير الدورة الرابعة للمؤتمر المنعقدة في واشنطن في ١٥

- ٢٩ يونيو ١٩٤٨، واشنطن، ١٩٤٩.

وفي تضال المساحات المزروعة، وكانت هذه التطورات تعتبر خلال القرون الماضية جزءاً من أسلوب العيش في الشرق الأوسط، على أن التقدم الفني في جهات العالم الأخرى خلال السنوات الأخيرة، وازدياد الشعور القومي في الشرق الأوسط بالذات، أديا إلى وجوب القيام على تحسين مستويات المعيشة في هذه المنطقة، وبذل الجهود البشرية للسيطرة على الماء، واجتناب سوء الاستعمال الذي مارسه الإنسان ممارسة أدت إلى تقليل إنتاج الشرق الأوسط. واختص هذا الموضوع بدراسة غير قليلة، غير أنه لا تزال هناك فجوات واسعة في المعلومات الفنية الضرورية للاستفادة التامة من مياه الشرق الأوسط<sup>(٧)</sup>.

ويوضح ضرورة استكمال هذه الدراسات أن موارد المياه في الشرق الأوسط شحيحة بالقياس إلى مساحة البلاد، وأن من هذه الموارد الشحيحة نسبياً يجب أن تستمد حاجات ما يقرب من تسعين مليوناً من الناس، وهي حاجات مختلفة متنوعة. ومن المعلوم أن استهلاك البشر والحيوانات لا يتطلب غير كميات قليلة من الماء، ولكنه يجب أن تتضح أرجحية هذا الاستهلاك على كل شيء آخر. ثم أن استعمال الماء لري المزروعات يأتي ثانياً في الأهمية، لأن معيشة ٦٠ إلى ٨٥ بالمائة من السكان تأتي من الأرض<sup>(٨)</sup>. ويجب أن يحفظ الماء لمعظم الأغراض الزراعية في مستوى عال،

---

(٧) راجع ما كتبه وردنجتون في المرجع المشار إليه سابقاً.

(٨) ذلك أن المياه التي تخزن للري يمكن أن تصبح كذلك مصدراً للأسمك، وهذا استعمال للماء كثيراً ما يهمل شأنه، والواقع أن صناعة الأسمك يمكن أن تكون ذات فائدة كبيرة لسكان الشرق الأوسط الذين لا يستهلكون كثيراً من المواد الزلالية.

ثم يطلق بحسب الحاجة، على حين يتطلب استعماله لتوليد القوة انحداراً سريعاً مطرداً. وعلى هذا فإن ما تتطلبه الزراعة لا يتفق على الدوام مع ما يتطلبه توليد القوة، ومتى وجد هذا الاختلاف يكون أمر توليد القوة شيئاً ثانوياً في أهميته، بالقياس إلى حاجة الشرق الأوسط إلى الماء<sup>(٩)</sup>. ومن حسن الحظ أن المنطقة تتوفر فيها كميات وافرة من النفط ومقادير غير يسيرة من ترسبات الفحم، وهي رخيصة الثمن في الأحوال المواتية. والواجب الأساسي الرابع للماء - أي النقل - لا يتناسب مع الأحوال في داخلية الشرق الأوسط إلا قليلاً، حيث الملاحة النهرية فيما عدا نهر النيل، والقسم الأسفل من دجلة والفرات، شيء عديم الأهمية. وليس من المأمول أن يؤدي أي تطور معقول في الأنهر الأخرى إلى جعل الملاحة على مقياس واسع شيئاً عملياً. ولذا فإن مشكلة تقدير حاجات الماء، للاستهلاك البشري والزراعة، وتوليد القوة، بالقياس إلى الكميات المحدودة في الأنهر والآبار والأمطار الساقطة، هي مشكلة أساسية بالنسبة لتعمير الشرق الأوسط وتقدمه. ذلك أن رفاهية السكان الحاليين والحاجات المستقبلية تجعل الاستفادة من المياه المتيسرة في أقصى ما يمكن من الاقتصاد والتدبير شيئاً أساسياً<sup>(١٠)</sup>.

استأثرت بخيال الناس في العقدين الماضيين من السنوات فكرة استثمار

---

(٩) أنظر أ.ج. موري. بعض المشاكل الاقتصادية المحلية في الشرق الأوسط، في مجلة الشؤون الدولية، ص ٢٣٢ (١٩٤٧) ص ١٢ - "يجب أن يؤكد أن طلبات الماء المرجحة في المنطقة هي الطلبات المبتغاة للأغراض البشرية، ولتنمية المواد الغذائية؛ وبذا يجب أن يبقى استعمال الماء للقوة شيئاً يأتي في الدرجة الثالثة".

(١٠) راجع تقرير منظمة التغذية والزراعة المشار إليه هنا سابقاً، ص ١٥.

الأنهر بأجمعها، فأدى ذلك إلى عقد آمال كبيرة على ضبط الأنهر في الشرق الأوسط، لزيادة الإنتاج والقوة الإنتاجية، وتخفيف ضغط ازدياد السكان، باستيعاب عدد أكبر منهم، مع تحسين الأحوال الاقتصادية بوجه عام. ولم يطلب اسم سلطة وادي التنسي على مشروع استثماري خاص في الولايات المتحدة فحسب، بل أصبح رمزاً لما يستطاع النهوض به لرفع مستوى المعيشة في الشرق الأوسط كله، بتطويع الماء واستعماله. والواقع أن مشروع وادي التنسي شرارة الآمال الجديدة، لاستثمار الموارد الطبيعية واستغلالها في واد نهري بأجمعه، ولا اعتبار أي نهر من الأنهار لا مقداراً من الماء يجب أن ينحصر في مكانه، بل جهازاً عظيماً لقوة كامنة نافعة يمكن تسخيرها لمجموعة كبيرة من الفوائد البشرية.<sup>(١١)</sup> ثم إن الحاجة للماء والفكرة المنطوية على مشروع وادي التنسي نشأ عليهما حافز جديد لدراسة أنهر الشرق الأوسط دراسة شاملة. ولذا يجري الآن استقصاء عن إمكانيات استثمار الأنهار وأحواضها، للسيطرة على الفيضانات، وتوسيع المساحة المزروعة بالري، وتوليد القوة الكهربائية من مساقط المياه. ولا تزال دراسة استغلال الأرض في أول أدوارها، وهي دراسة يجب أن تسير جنباً إلى جنب مع بحوث ضبط المياه والسيطرة عليها لاستثمار الكهرباء، لكن بداية ما حصلت فعلاً.

وما تجدر الإشارة إليه، فضلاً عن المشاريع التي تمت والتي وسوف تستمر

---

(١١) راجع كتاب الغذاء والمجاعة المكانية ورد سيرد في الفصل الذي عنوانه تحدي التعرية. (نيويورك، ١٩٤٠). وأضحى مشروع وادي التنسي نموذجاً للشرق الأوسط عندما تعين المستر جوردن كلاب رئيس مجلس مشروع وادي التنسي رئيساً لإحدى بعثات هيئة الأمم المتحدة في الشرق الأوسط.

دراستها، أن هناك عقبات خطيرة تقف في طريق استثمار المياه بصورة شاملة، بالإضافة إلى العقبات الناشئة عن الأحوال الطبيعية. ومهما يكن من استطاعة الفن والعلم في تذليل العقبات بمرور الوقت بعد درسها دراسة مناسبة، فإنه يبدو أن القيود التي يفرضها الإنسان على نفسه بالتعاون مع الأحوال الاقتصادية القائمة تزداد رسوخاً في المنطقة بسبب ذلك التعاون. ولا شك أن أشد هذه القيود وضوحاً هي الحدود الوطنية التي تحجز بلاد الشرق الأوسط بعضها عن بعض، فهناك عدد قليل من التقسيمات الطبيعية - الجيولوجية السياسية في الشرق الأوسط. والأنهر الرئيسية كلها يعود أمرها لبلدين أو أكثر من البلاد. وعلى هذا فإن استثمار حوض نهري بكامله تقف في طريقه العقبات الناشئة عن الخصومات الوطنية<sup>(١٢)</sup>. وأكثر تأثيراً من هذه العقبة ما هنالك من النظام الاجتماعي المتأخر لقيامه على قواعد ليست من مبادئ علم الاقتصاد، مثل نظام تملك الأرض الذي يخلد بقاء طبقة الفلاحين الفقيرة المثقلة بالديون دون أن تيسر لها الوسائل أو الحوافز لتحسين ملكياتها الصغيرة المجزأة المهتدة، ودون أن يكون المالك الكبير المتغيب، وهو الذي يهيمن على معظم أراضي الشرق الأوسط معنياً بالإجراءات والتدابير التي تؤدي إلى تحسين حالة مستأجري أراضيه، وهؤلاء يكونون أكثرية سكان الشرق الأوسط. يضاف إلى ذلك أن ليست هناك في وجود الأحوال الحاضرة وسائل لتكوين رأس المال المحلي الضروري لسد

---

(١٢) اعترفت بهذه الحقيقة منظمة التغذية والزراعة في مؤتمرها الرابع، إذ طلبت إلى حكومات الشرق الأوسط أن تهتم لبعض الأنهار والنهيرات للوصول إلى اتفاقيات دائمة تختص بموارد المياه، وطلبت إلى هذه الحكومات أن تتعاون في استثمار موارد المياه المشتركة واستغلالها. المرجع السابق، ص ١٨.

تكاليف المشاريع الباهظة، كما لا تيسر بوجه عام رءوس الأموال الأجنبية بالطرق الاعتيادية.

ثم إن عدم وجود المعلومات الفنية والمهارة عقبة أساسية في ذلك الشأن<sup>(١٣)</sup>. والخلاصة أن العقبات الناشئة عن هذه الحقائق، لا المصاعب الطبيعية، هي التي تعرقل استثمار المياه في الشرق الأوسط.

ولا يحيط البحث التالي إحاطة شاملة بإمكانيات استثمار المياه في الشرق الأوسط، لأنه معني فقط بالمشاريع التي تشبه مشاريع وادي التنسي، ويمكن أن تؤدي إلى تهيئة الفرص للإنتاج الزراعي على مقياس واسع. كما أنه لا يمكن أن يكون هذا البحث كاملاً في هذا المجال الضيق، لأن إمكانيات أخرى يمكن أن توجد بازدياد المعلومات عن موارد مياه الشرق الأوسط، وبازدياد الدراسة العلمية عن طبائع أنهاره وأحوالها. وعلى هذه فالبحت التالي وصف موجز لعدد من المشاريع الكبيرة ذات الأغراض المتعددة، لاستثمار المياه التي تكون في الوقت الحاضر موضوع البحث الجدي في الشرق الأوسط، والتي سبق أن بدئ بوضعها من قبل.

---

(١٣) راجع تفصيل هذه المشاكل العامة في كتاب السيدة دورين ورنر وعنوانه الأرض والفقير في الشرق الأوسط (لندن ١٩٤٨)، وكتاب تطور الزراعة في الشرق الأوسط لمؤلفه ب.أ. كين (لندن ١٩٤٦)، ونشرة منظمة التغذية والزراعة المشار إليها من قبل، ص ١٥ - ٢٩. وهناك ناحية من نواحي تملك الأرض تلفت النظر، وهي النظام المعقد لحقوق الماء الذي ينفرد به الشرق الأوسط. راجع المرجعين السابقين وما كتبه ر.ف. جاردين في كتابه الضبط المحلي لموارد المياه في الشرق الأوسط، مع إشارة خاصة إلى الناحية القانونية، نشرة مركز تمويل الشرق الأوسط المشار إليها سابقاً، ص ١٨١ - ١٩٠.

## حوض النيل

يشمل حوض النيل مساحة تزيد على مليون ميل مربع، ويحتوي على أجواء تفوق في تنوعها أجواء أي نهر آخر من أنهار العالم<sup>(١٤)</sup>، فهو يحتضن أوغندا وقسما من تنجانيقا والكونجو البلجيكية، وكينيا والحبشة، ومعظم السودان وأراضي مصر المزروعة. لكن درجة اعتماد هذه البلاد على النيل تختلف باختلاف مواقعها فتغزر الأمطار الهائلة في مرتفعات الحبشة حول بحيرة تانا، ويبلغ معدلها زهاء ستين بوصة في السنة. وتسقط في البلاد المحيطة بمنطقة البحيرات التابعة لمجاري النيل الاستوائية كميات مماثلة من الأمطار، وهذه تتوزع في شيء من التساوي على طول أيام السنة. وفي السودان تهطل الأمطار هطولاً متفاوتاً، فتتناقص بالتدريج في الاتجاه الشمالي حتى تبلغ في الخرطوم - أي درجة العرض ١٥ - حوالي الثماني بوصات في السنة. وفيما ما بين عطيرة والدلتا المصرية شمالاً، ينعدم هطول المطر تقريباً، ويعتمد سكان هذه المنطقة الذين يبلغ عددهم ما يقرب من عشرين مليوناً - أو ثلثي سكان حوض النيل بأجمعه - على مياه النهر لسد حاجاتهم طول السنة. وعلى هذا فمن الطبيعي أن تعطي مصالح مصر مقداراً من الأرجحية في القرارات التي تتخذ بشأن تنظيم جريان النهر.

ومن الخطأ الشائع أن الزراعة المصرية لا تزال تتبع الأساليب القديمة البائدة، إذ الحقيقة أن ثورة زراعية وقعت في القرن الماضي، فأثرت في انتقاء

---

(١٤) للحصول على وصف أوفى لحوض النيل راجع ما كتبه دجلاس كراي بعنوان الجغرافيا والسياسة في وادي النيل، وهو منشور في مجلة الشرق الأوسط، السنة الثالثة (١٩٤٩) ص ٢٦٠ - ٧٦.

المحاصيل للزراع، كما أثرت في أساليب الري والعناية به. ذلك أن القطن حل محل الحبوب لدرجة ما، ليصبح أعظم المحاصيل قيمة، واتسعت زراعة الأرز في المساحة والأهمية الاقتصادية، وهناك أمل في ازدياد هام في إنتاج الخضروات والفواكه. والأهم من ذلك حصول الانتقال من ري الحياض إلى الري المستديم، لأن طريقة الحياض التقليدية، التي لم تكن تسمح إلا بزراعة محصول واحد في السنة، ولم تستطع تهيئة الوسائل الكافية لمعيشة السكان المتزايدين، استعوض عنها بنظام الري المستديم وبهذا النظام بطل انغمار الحقول بالماء، وصار من الممكن إمدادها به طوال أيام السنة، وزراعة عدة محاصيل خلال سنة واحدة. ولإيصال الماء إلى الحقول يجب أن يضح من النهر، ولا بد من رفع مستوى التربة بواسطة القناطر. وفيما عدا هذه القناطر الكثيرة التي أنشئت على النيل وفي الدلتا، توجد الآن خزانات ثلاثة لخزن الماء خلال موسم الفيضان السنوي، وهي خزان أسوان الذي يطلق عليه أحياناً عنق مصر، والذي تبلغ سعته خمسة بلايين من الأمتار المكعبة، وخزاناً جبل الأولياء وسنار اللذان برغم بنائهما داخل حدود السودان يخضعان لإدارة مصرية، ويخزن أولهما بليونين ونصف من الأمتار المكعبة، وثانيهما ستة أعشار البليون.

وهذه الخزانات، فضلاً عن نظام الري المستديم الذي تم بسببها، جعلت من الممكن الحصول على قابلية هائلة من الإنتاج الزراعي المصري. وفي السكان كذلك. لكن هذه الخزانات لم تستطع دفع خطر الفيضان المفرط، كما أنها لا تستعمل مياه النيل استعمالاً كلياً. ولتسخير النيل بوجه أتم بدأت دراسات لإنشاء مرافق إضافية للخزن، ووضعت الخطة لذلك منذ

مدة من الزمن. وسيكون الغرض من الاضطلاع ببعض الأعمال الإنشائية الجديدة، مثل خزان السد العالي، أن يزداد الاستيعاب الحالي للتخزين السنوي الذي يقوم به خزان أسوان في مصر، وخزاننا جبل الأولياء وسنار في السودان. وإذا لم تتم هذه الأعمال الإنشائية، فيتحتم على الخزانات القائمة في البحيرات، حول منابع النيل الأبيض والنيل الأزرق أن تحتفظ بالماء الزائد خلال سنوات الفيضان العالي، لتستعمل خلال سنوات الفيضان المنخفض، وبذا نظمن إلى الخزن المائي الطويل المدى. ولما كان تعاقب الفيضانات العالية والمنخفضة لا يمكن التكهن به، اتخذ القرن أساساً للحساب فسمي خزن المياه على هذه القاعدة باسم الخزن "القرني". وأخيراً صممت قناة تحويل السد، لاجتناب التبذير الحالي الذي يضيع فيه مقدار (٥٥٠%) من مياه النيل الأبيض ضياعاً في مستنقعات السد.

ويتألف في الوقت الحاضر معدل النيل المائي المتيسر بين بداية شهر فبراير ونهاية شهر يولييه، بموجب قياسه في أسوان، ما يزيد على ١٥ بليون متر مكعب من جري النهر الاعتيادي؛ يضاف إلى هذه الكمية حوالي ثمانية بلايين متر مكعب من الماء المخزن في الخزانات الثلاثة الموجودة، غير أن مجموع هذا المعدل يقصر عن سد حاجة مصر والسودان المنتظرة بين شهري فبراير ويولييو، وهي التي تبلغ زهاء ثلاثين بليون متر مكعب. ومن المؤمل أن تسد الخطة الموضوععة للنيل هذه الحاجة الإضافية، بأن يضاف إلى مجموع الثلاثة والعشرين بليون متر مكعب الحالية حوالي ثلاثة بلايين متر مكعب من خزان السد العالي، وحوالي خمسة بلايين متر مكعب من بحيرة ألبرت أو بحيرة فكتوريا، وحوالي بليونين متر مكعب من بحيرة تانا. ومن المقدر أن

خزن الماء في البحيرات، وفي خزان السد العالي، سيجعل من الممكن زراعة ثلاثة ملايين فدان إضافية في مصر والسودان. يضاف إلى ذلك أن القوة التي سوف تتولد بالقرب من هذه الخزانات، وفي أسوان كذلك، سوف تزود البلاد بمنبع من منابع التقدم الصناعي.

والبلاد الرئيسية التي سوف تفيد من هذا المشروع هي مصر والسودان، وسوف يستطيع كل منهما زيادة إنتاجهما الزراعي زيادة غير يسيرة. أما الحبشة وكينيا وأوغندا والكونغو البلجيكية، فيمكنها أن تفيد في إنشاء محطات لتوليد القوة الكهربائية المائية على خزانات البحيرات<sup>(١٥)</sup> غير أن صبغة المشروع الدولية تتطلب عقد معاهدات قبل القيام بإنشاء هذه المحطات. وقد حصل شيء من التقدم في هذا الاتجاه، بالمفاوضات التي جرت بين بريطانيا ومصر والسودان، وهذه تشتمل على اتفاقيات حول المشاكل الفنية والمشاركة المالية. ففي سنة ١٩٤٩ جرى التوقيع على اتفاقية رسمية بين البلاد التي يعينها الأمر بشأن سد شلالات أوين (أوغندا)، ويجب أن يتم الاتفاق مع الحكومتين البلجيكية والحبشية حول المشاريع التي تمس المناطق التي تخصهما.

وسوف ينشأ خزان السد العالي في مكان ما بين ملتقى نهر عطبرة، وهو آخر روافد النيل، وبين الحدود المصرية السودانية في وادي حلفا. ويجري النظر الآن في موقعين، أحدهما بالقرب من مروى، والآخر فيما يقرب من شلال دال. وسوف يزيد هذا الخزان في المعدل المائي المتيسر للري بين

---

(١٥) بالنظر للمسافة البعيدة بين مصر وهذه الأماكن يصعب على مصر أن تستفيد من هذه القوة، لكنها تنوي إنشاء محطة للقوة الكهربائية المائية بالقرب من خزان أسوان.

أوقات الفيضان، لكنه - بذاته - سوف لا يؤمن مستقبل مصر، لأنه سوف يهيج خزن المياه في مواسم الفيضان لاستعمالها في مواسم المنسوب الواطي، كما تفعل الخزانات الحالية، وإذا كان الفيضان غير عال في سنة استثنائية فسوف لا يتوفر الماء للخزن<sup>(١٦)</sup>.

ولأجل إعداد خطة لخزن طويل الأمد ينظر الآن في سلسلة من المشاريع لإنشاء خزانات بحيرات أفريقيا الوسطى - فكتوريا وألبرت وكيوجا - وعلى بحيرات تانا في الحبشة. وفي سبتمبر سنة ١٩٤٩ اتخذت خطة رئيسية لانجاز بعض هذه المشاريع، حيث أعلنت مقابلة لإنشاء سد على شلالات أوين في مخرج بحيرة فكتوريا، وسوف يسمح ذلك بتراكم مائتي بليون متر مكعب إضافية من الماء، وسوف يتضمن ذلك إنشاء محطة لتوليد القوة الكهربائية. والمأمول كذلك أن تتحول بحيرة ألبرت إلى خزان للخزن القرني أو الدائم، بإنشاء سد في نيمولي الكائنة على مسافة ٢٣٥ كيلو متر شمالي البحيرة داخل حدود السودان، أو في موثير الواقعة في أوغندا، والمنتظر أن يكون استيعاب بحيرة ألبرت النهائي ١٤٥ بليون مكعب.

وفيما عدا إمكانية الخزن العظيمة لهذه البحيرات، تتضح إمكانيات توليد القوة الكهربائية من اختلاف الارتفاع الموجود بينها، وهو يبلغ حوالي ١٧٠٠ قدم.

ثم أن إنشاء مثل هذه الخزانات العظيمة يتضمن نقل الماء دون ضياع

---

(١٦) راجع التفاصيل فيما كتبه هرست وبلاك وسميكة في الكتاب الذي عنوانه حوض النيل.

وزارة الأشغال العمومية المصرية، المجلد ٧. (القاهرة، ١٩٤٦).

مفرط، لأن النيل الأبيض يفقد خمسين بالمائة من حجمه بالتبخير ونتج النباتات النامية في مستنقعات السد الكائنة جنوبي نيمولي. وللحيلولة دون هذا الضياع، وضعت الخطة لحفر نهر لتحويل المياه، وأطلق عليه اسم ممر جونفلي، وهو اسم القرية التي يسير فيها. وسوف يبلغ مقدار المياه التي يحملها حوالي ٥٥ مليون متر مكعب في اليوم، على حين مجرى النهر القديم قادراً على حمل حد أقصى قدره ٤٥ مليون متر مكعب من الماء، خارج موسم الطغيان، وهي كمية تكفي للسماح باستمرار الملاحة<sup>(١٧)</sup>. وهناك مشاريع بديلة تتضمن ضخ الماء من مستنقعات السد، عوضاً عن إنشاء نهر لتحويل المياه.

أما مشروعاً بحيرة ألبرت وبحيرة فكتوريا، وكذلك ممر الجونفلي، فهي تؤثر في المقام الأول في نهر النيل الأبيض الذي يستوعب حوالي سعي مجموع المعدل المائي لنهر النيل، وينصرف انصرافاً متساوياً طوال أيام السنة؛ ومن المعلوم أن النيل الأبيض لا يستعمل في الوقت الحاضر للري بمقياس واسع في السودان. وهناك تصميم لمشروع مماثل للبحر الدائم "القرني" ينشأ في بحيرة تانا على النيل الأزرق، والمعروف أن النيل الأزرق يأتي منه حوالي أربعة أسباع مياه النيل، ويأتي السبع الباقي من عطبرة، ولذا يكون النيل الأزرق في المقام الأول مصدراً لفيضان النيل. ولا يخدم النيل الأزرق مصر وحدها بل السودان كذلك، وعلى الأخص مشاريع الاستثمار السودانية في الجزيرة الكائنة جنوبي الخرطوم. وتقع بحيرة تانا في حوض فوق الهضبة الحبشية، وهنا يكون مقدار الأمطار مساوياً لمقدار التبخر تقريباً، كما في بحيرات النيل

---

(١٧) راجع تفصيلات ذلك في كتاب مشاريع النيل الأعلى. مشروع قناة الجونفلي، وزارة الأشغال

الأعلى. وعلى هذا فإن إنشاء خزان في بحيرة تانا سوف يستغل تصريف النيل الأزرق، ويتم عملية خزن المياه في بحيرتي ألبرت وفكتوريا. وهناك بالإضافة إلى ذلك إمكانيات توليد القوة الكهربائية المائية، لأن النيل الأزرق يهبط هبوطاً غير يسير.

ويبدو أن شلالات تس آيسات التي تبعد عن بحيرة تانا مسافة غير كبيرة هي الأخص الموضع المناسب لتوليد القوة، غير أنه المؤسف أن توليد القوة الكهربائية من النيل الأزرق ربما يتعارض مع عملية الخزن الدائم "القرني"، ولا بد له أن يقتصر على المدة المنحصرة بين ديسمبر ويونيه.

ويوجد بصورة مستقلة تماماً عن مشاريع تنظيم النيل مشروع مصري صرف لتوليد القوة الكهربائية المائية، وهو يهدف إلى الاستفادة من الفرق في المستوى بين البحر الأبيض المتوسط وينخفض القطار الكائن في منتصف الطريق تقريباً بين وادي النيل وحدود برقة. وخدمت المستنقعات المالحة في هذا المنخفض جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، إذ كانت محوراً للدفاع عن الأراضي الضيقة المنحصرة بين ساحل البحر والمنخفض. وفضلاً عن قيمتها الإستراتيجية، تعد هذه البقعة في الوقت الحاضر أرضاً مواتاً تماماً، فإذا اقتيدت مياه البحر الأبيض المتوسط بقنوات وأنفاق إلى المنخفض، فسوف يصبح في استطاعة المجرى المنحدر من علو مائتي قدم تقريباً أن يولد قوة كهربائية تكفي لتغذية قسم كبير من البلاد المصرية، كما أن تبخر مياه البحر المتراكمة في المنخفض سوف تجعل من الممكن نشوء صناعة متسعة للملح<sup>(١٨)</sup>.

---

(١٨) وردنجتون، المرجع السابق، ص ٦٢.

## وادي الغور

في موازاة ساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقي، من تركيا إلى خليج العقبة، يمتد خندق جيولوجي أو وادٍ غائر تقع أعلى نقطة منه في لبنان بالقرب من بعلبك القديمة، كما تقع أخفض نقطة منه في منخفض البحر الميت العميق. وتجري الأنهر الثلاثة - العاصي والليطاني والأردن - معظم جريانها في هذا الوادي مع روافدها، وهي مصدر التجهيز المائي الرئيسي للبنان وفلسطين، ولأقسام من سوريا والمملكة الأردنية. ومع أن هذا الأنهر تحمل في مجراها مقدراً من الماء أقل بكثير مما يحمله النيل، أو أنهر العراق الكبيرة، فأهميتها تزداد بكونها تجري في بلاد محتشدة بالسكان احتشاداً كثيفاً<sup>(١٩)</sup>.

وربما كانت أعظم صفة تتصف بها المنطقة المحيطة بوادي الغور هي الاختلاف الشديد في الجو، وهو الاختلاف الناتج عن التباين الكبير في الارتفاع، وتنوع الحضارات التي ظهرت بين سكانها الذين لا يزالون يمثلون خليطاً من الأقوام والأمم والديانات. وينمو النخيل والموز وقصب السكر في بعض أجزاء هذه المنطقة، كما يمكن أن توجد الفواكه الحمضية على طول الساحل بأجمعه، حيث يجود الزيتون والكروم والتفاح في سفوح الجبال، كما تزرع مجموعة من المحاصيل الحقلية تتراوح بين الحبوب وينجر السكر والبطاطا في الجهات العالية من البقاع. ويعيش في هذه البلاد خليط من المسيحيين واليهود، والدروز والمسلمين السنة والشيعة، بين خرائب المعابد الوثنية. غير أن زراع بساتين الأشجار الحمضية الحديثة، ومزارعي فلاحه

(١٩) وردنجتون، المرجع السابق ص ٦٢.

المصاطب، وهم الذين يزرعون الكروم والزيتون في السفوح الجبلية، يشتغلون في جوار الرعاة البداوة الذين تؤثر ماعزهم وضأنهم في عملية تعرية التربة، بإتلاف الأشجار والشجيرات، وبذا يعيقون الجهود المضنية التي يبذلها جيرانهم المستقرون. وفي أحوال كهذه يحدث أنه على حين يتيسر عدد كبير من الأفكار المتضاربة حول استثمار المنابع المائية الموجودة، لم يقم من المشاريع الكبيرة إلا القليل لاستغلال الأنهر بمجموعها استغلالاً مترابطاً. ولا يخفف من صعوبة هذا الوضع ولو بعض الشيء كون هذه المنطقة يتقاسمها عدد من الدول المستقلة ذات السيادة، بل ازداد التعقيد بتقسيم فلسطين، وشدة الخلاف الذي أعقب الحرب الأخيرة بين العرب واليهود. وينطبق كل هذا بلا شك على حوض الأردن أكثر مما ينطبق على النهرين الواقعين أبعد من ذلك شمالاً في الوادي.

وينبع نهر العاصي في لبنان الشمالي، بين سلسلتي لبنان الغربية والشرقية، في وادي البقاع الخصب. ويتراوح مقدار الماء الذي يجري في هذا النهر بين ستة وسبعة عشر متراً مكعباً في الثانية، وهو يجري شمالاً في أراض لبنانية مسافة نحو الثلاثين ميلاً، وفي هذا القطاع من مجرى العاصي وضعت خطة لتحويل شيء من مياهه للري، ولاستغلال مساقطه في توليد القوة الكهربائية، بإنشاء محطة صغيرة لهذا الغرض. وتزداد قيمة هذا المشروع إذا ربطت المحطة بشبكة أسلاك المنطقة كلها، بعد أن تنشأ محطة الليطاني الأكبر في الجنوب، لأن تصريف الليطاني إذ قل خلال الصيف إلى ما يقرب من عشرة بالمائة من تصريفه الشتوي يبقى العاصي أكثر مثابة في التصريف، لأنه يستمد جزءاً من مياهه من ذوبان الثلوج.

وعندما يعبر نهر العاصي الحدود السورية يدخل بحيرة حمص، وهي في الحقيقة خزان اصطناعي تكون بتشبيد قناطر في موقع سد روماني قديم. ومن هناك يجري العاصي متجهاً نحو الشمال حتى يدخل أرض تركيا، ويصب في البحر الأبيض المتوسط. ويمكن القيام بعدة مشاريع على طول مجرى العاصي الرئيسي في سوريا، مما تدرسه الآن الحكومة السورية. وأكثر هذه المشاريع فائدة مشروع تجفيف مستنقع الغاب الذي يتألف قاعه من تربة خصبة في أسفل سلسلة جبال العلويين، وهناك أيضاً مشروع صرف (بزل) حوض الرج الواقع أبعد من ذلك شمالاً. على أن مشاريع العاصي، ومثلها مشاريع الليطاني، تتطلب مقداراً غير يسير من الأعمال الترابية التي يساعد على انجازها كثرة الأيدي العاملة الرخيصة الأجور، بالنسبة لأحوال الشرق الأوسط. وعلى هذا يبدو الآن تحقيق هذه المشاريع شيء مغر، لأن البلدين معاً يتوفر فيهما عدد كبير من الأيدي العاملة العاطلة عن العمل بوجود اللاجئين العرب من أهل فلسطين.

وينبع الليطاني، كما ينبع العاصي، من مسيل مياه بعلبك، لكنه يسلك في انسيابه مجرى معاكساً يتجه نحو الجنوب مخترقاً وادي البقاع. ثم يدور الليطاني فيتجه إلى الغرب، ليصب في البحر الأبيض المتوسط، بالقرب من البلدة الفينيقية القديمة صور. ويقع منبع هذا النهر على ارتفاع يبلغ ثلاثة آلاف قدم، وينحدر انحداراً معتدلاً مسافة خمسين ميلاً من منبعه، فضلاً عن الخمسة والعشرين ميلاً الأخيرة قبل أن يصل المصب. وعلى هذا تكون الأراضي التي يخترقها نهر الليطاني في هذين القطعين - وعلى الأخص في القسم الأعلى من حوضه - صالحة للري. أما قطاعه الأوسط فهو شديد التحدّر، وهو يصلح أن يكون موقعاً

لتوليد القوة المائية<sup>(٢٠)</sup>. ويتراوح تصريف النهر عند قياسه في المنصورة بالقرب من المنبع، بين ٣٢ متراً في الثانية في شهر يناير وثلاثة أمتار مكعبة في أغسطس. ويقل الماء الضروري لتوليد القوة الكهربائية حتى عن هذا الحد الأدنى خلال أشهر الصيف، عندما تتم الإجراءات لإنجاز مشاريع ري أخرى، ولا يمكن التغلب على هذه الصعوبة إلا بخزن المياه بمقياس واسع في الشتاء. ويتطلب هذا الأمر إجراء استقصاءات جيولوجية مفصلة، ليتسنى تعيين أنسب موقع أو موقعين ينشأ فيه أو فيهما سد واحد أو سدان، دون أن يحصل تأثير على نظام الري في أعالي النهر. والمعروف أن المكثات التي سوف تعمل لتوليد هذه القوة المائية يمكن أن تبلغ قدرتها خمسين ألف كيلو واط.

والسلسلة الثالثة الممكن ربطها بشبكة القوة الكهربائية المستحصلة من نهري العاصي والليطاني تكون محطة توليد القوة الكهربائية من تساقط المياه من بحيرة يمونة، وهي إحدى ملحقات الليطاني. وعند ذلك يكون مجموع القوة الناتجة سنوياً من محطات التوليد الثلاث حوالي ٤٨٠ مليون كيلو واط في الساعة، وستزيد هذه القوة عن الاستهلاك الحالي للقوة الكهربائية في لبنان بأكثر من ثماني مرات. وتقرن مثل هذه المشاريع عادة بأعمال الاستثمار الأخرى، وهذه سوف تؤدي لزيادة استهلاك القوة في الداخل زيادة وافرة، أو بمشاريع تصدير القوة إلى البلاد المجاورة.

وينبع نهر الأردن من جداول اللدان والحاصباني وبانياس، وهذه يتكون ماؤها من العيون، ومن أنهر البريغيت التي تنبتق من سفوح جبل الشيخ في لبنان،

---

(٢٠) راجع ي. عبد العال: الليطاني، دراسة هيدرولوجية. (بيروت، ١٩٤٨).

وتلتقي في مستنقعات بردي العائدة لبحيرة الحولة. ومن هناك تخرج هذه الجداول، فتكون الأردن الذي يجري إلى بحيرة طبرية، وفي الأميال التسعة بين بحيرتي الحولة وطبرية يهبط الأردن مقدار ٩٠٠ قدم. وفي أسفل بحيرة طبرية مباشرة يتصل نهر الأردن باليرموك الذي ينبع في سوريا، فيكون الحدود بينها وبين الأردن لمسافة ما. والأردن إذ يجري عابراً إلى البحر الميت المنخفض عن سطح البحر حوالي ١٣٠٠ قدم، ينخفض مستواه انخفاضاً رقيقاً مسافة خمسة وستين ميلاً، لكنه يتعرج تعرجاً كثيراً فيقطع في الواقع مسافة مائتي ميل.

ويتحكم الآن في الحصيلة المائية من نهر الأردن امتياز شركة الكهرباء الفلسطينية، وهي تمتلك حق استعمال الماء لأي غرض آخر، ولو أنها تستعمل هذا الحق بتبصر<sup>(٢١)</sup>. فعند اتصال اليرموك بالأردن يحتفظ بالمياه بواسطة سد، ثم يسمح لها بالهبوط من علو يقارب الثمانين قدماً، وذلك لتوليد القوة الكهربائية التي تبلغ حوالي تسعة أعشار جميع استهلاك فلسطين. وفي الهوة الموجودة تحت السد يكون عمق نهر الأردن منخفضاً عن قاع الوادي، فيجعل استعمال المياه للري شيئاً غير اقتصادي في الوقت الحاضر. ولذا تقتصر الاستفادة من الأردن في جنوب البحر الميت على بضع مضخات أهلية، تستهلك معظمها تكاليف باهظة، بالنظر للعلو الشاهق الذي يجب أن يرفع إليه الماء ليصل إلى مستوى الوادي<sup>(٢٢)</sup>.

---

(٢١) لا يشمل هذا الامتياز منابع الأردن ورواندا التي يأتي أغلبها من خارج فلسطين، حيث أنشأت سوريا مثلاً محطة صغيرة لتوليد القوة الكهربائية على اليرموك.

(٢٢) راجع وردنجتون: المرجع السابق، ص ٥٣. وأنظر ما كتبه وولتر كلي لاودرميلك في الفصل الثالث من كتاب فلسطين، أرض الميعاد. (نيويورك، ولندن ١٩٤٤).

وأعظم المشاريع ذات الأغراض المتعددة للإفادة من مياه نهر الأردن مشروع يقرن عادة باسم و.ك. لاودرميلك، لأنه هو الذي سمي هذا المشروع باسم سلطة وادي الأردن، تقليداً لاسم مشروع وادي التنسي في الولايات المتحدة، ولأنه هو الذي وضع تفاصيل التنفيذ للحكومة الأردنية.

وتنحصر أهداف هذا المشروع في تحويل مياه الأردن إلى مستوى خزان شركة الكهرباء الفلسطينية الكائن في أسفل بحيرة طبرية، بحفر قناة أو قناتين يرتفع مستواها أو مستواهما، بحيث تصبح واحدة في كل جانب من جانبي الوادي، ليسهل انسياب الماء بالجاذبية إلى الأراضي القابلة للري والزاجورس. ولما كان هذا المشروع سوف يوفر من الماء أكثر مما يحتاجه وادي الأردن، فإن قسماً من النهر يمكن أن يحول من فوق بحيرة الحولة، لإرواء سهل صغد وسائر الوديان القريبة. ولأجل المحافظة على مستوى البحر الميت، والاستمرار على توليد القوة الكهربائية، مع التوسع فيها بطريق النهر، سوف تتخذ التدابير ليجري الماء في البحر الأبيض المتوسط في قنوات وأنفاق يرجح أن تبدأ من خليج حيفا الكائن على بعد خمسة وعشرين ميلاً فقط. ويتوقع المستر لاودر ميلك أن هبوط المياه الفعلي لتوليد القوة الكهربائية المائية في عدد من محطات التوليد في الوادي سينتج حداً أدنى يتراوح بين ٧٦٠٠٠ و١١٠٠٠٠ كيلو واط. وتلتحق بمشاريع الري وتوليد القوة هذه خطط لحفظ الماء، وضبط الفيضان، والصرف (الجزل)، وتنظيم الرعي، والتحريج<sup>(٢٣)</sup>.

ومع أن دراسات كثيرة أجريت في مختلف نواحي سلطة وادي الأردن،

---

(٢٣) لاودرميلك: المرجع السابق، الفصل الحادي عشر.

لا يزال هناك كثير مما يجب أن يدرس. والمشروع بأجمعه موضوع لنشرات ومطبوعات عديدة، والكثير مما كتب قابل للنقاش والجدل، بالنظر للمصالح المتعارضة الكثيرة. فيغض النظر عن المشاكل الطبيعية والعقبات الثانوية، مثل ضرورة تسوية الأمر مع أصحاب الامتياز الحالي، فإن هذا المشروع الجبار تعترضه صعوبتان رئيسيتان. أما الصعوبة الأولى فهي أن التكاليف باهظة جداً، لا بالنظر لأن مياه البحر يجب أن تقاد في أنفاق تحفر في صخور مسامية، بل بالنظر لأن الوديان العديدة التي يتحتم على جداول الري الجانبية اختراقها تمر بمنحدرات الوادي أيضاً. ثم أن الفائدة الاقتصادية للمشروع لا تزال بحاجة للبرهنة عليها، ولعل أعقد من هذه الصعوبة التي هي من صنع يد الإنسان والنتيجة عن جريان الأردن في واد تشترك فيه عدة دول، أن منابعه تنفجر في لبنان وسوريا، كما كان النهر نفسه يكون الحدود بين فلسطين والأردن، وهو الآن يجري في أراض تسيطر عليها المملكة الأردنية من جهة وإسرائيل من جهة أخرى. ومشروع في مثل هذه الضخامة لا يمكن أن يضطلع به ويسير بصورة ناجحة إلا بحصول التعاون التام بين سكان المنطقة بأجمعها، فضلاً عن حكوماتهم، وليس من المستطاع إتمامه إلا بعد حصول مقدار من الوحدة الاقتصادية في المنطقة كلها على الأقل.

وفيما خلا المشاريع المختصة بهذه الأنهر الثلاثة، هناك عدد كبير من المشاريع الصغيرة، وأهمها مشاريع توليد القوة الكهربائية من أنهر إبراهيم والبارد، وسائر الأنهر الصغيرة التي تنبع من منحدرات لبنان الغربية. وهناك مشروع تحويل قسم من اليرموك إلى جدول يجري نحو الجنوب، لإرواء بعض أجزاء المملكة الأردنية، وهو مشروع يتعارض مع مشروع سلطة وادي الأردن،

ومشروع تجفيف مستنقعات الحولة الكائنة في شمال فلسطين وريها فيما بعد، ومشروع إرواء النقب بالماء المحول من الينابيع، ومشروع نهر العوجة الذي يجري إلى البحر الأبيض المتوسط فيما يقرب من تل أبيب.

## تركيا

تسقط الأمطار بكميات وافرة في مناطق تركيا الساحلية، وخاصة سواحل البحر الأسود، وفي مرتفعاتها الشرقية كذلك. أما الهضبة الوسطى المنبسطة، وهي التي تعزلها عن البحار سلاسل الجبال العالية، فتقل فيها الأمطار عن عشرين بوصة في السنة، بل يبلغ مقدار المطر في معظمها أقل من خمس عشرة بوصة، وفي قسم منها - أي في قلب الهضبة - أقل من ثماني بوصات. ومما يتصف به الأناضول الوسطى أن الأراضي المزروعة تتألف من أشباه دوائر هندسية متقطعة مراكزها الآبار، وأنصاف أقطار مسافة يمكن أن يقطعها الثور في يوم عمل واحد. وتتصف السواحل الغربية والجنوبية بالموسم الجاف الطويل الذي يتصف به جو البحر الأبيض المتوسط. وعلى هذا فبينما لا تعاني معظم البلاد التركية قلة الماء بدرجة خطيرة، ينبغي إيجاد الوسائل للمحافظة على المياه المتيسرة، والإفادة منها فائدة تامة حتى يكون من الممكن توسيع الرقعة المزروعة، وزراعة محاصيل أكثر، والحصول على غلات أحسن، وغذاء أفضل لاستهلاك البشر والحيوانات.

وتوجد إمكانات ممتازة لاستثمار المياه في تركيا. فهنالك أسباب تدعو للاعتقاد بأن البلاد فيها موارد عظيمة من المياه الجوفية، لكنها لا تزال بحاجة إلى دراسة منتظمة. أما موارد الماء الواضحة للعيان فهي الأنهر الواقعة جميعها

تقريباً إما في الهضبة الوسطى، أو في جوانب حواجزها الجبلية المقابلة للرياح، وهذه تجري جنوباً إلى البحر الأسود أو بحر إيجه أو البحر المتوسط. وتظل كثير من أنهار تركيا على جريان دائم، وتتضاءل بعضها أو تجف خلال الصيف، لكنها تحمل في مواسم معينة مقداراً من المياه يكفي لجعل الفائدة الزراعية منها شيئاً ممكناً. وكميات الماء التي تحملها بعض هذه الأنهار وافرة غزيرة، وهي في نزولها السريع من الجبال إلى البحر تفيض على الدوام، وكثيراً ما تدمر قسماً من أغنى أراضي تركيا الزراعية، وتجعل جزءاً منها في احتياج دائم للصرف. وفي كثير من الحالات يجعل سقوط المياه الشديد من المرتفعات توليد القوة المائية إمكانية أكيدة، ويشير هذا المطمح بنجاح عظيم في بلاد متعطشة للقوة الكهربائية. ومع أن يضع مناطق فقط في تركيا تتوفر فيها سوق جاهزة للقوة الكهربائية، عدا مناطق استانبول وأزمّت وأنقرة وأزمير وأطنة، فهناك عدد كبير من مراكز السكان والصناعة الكبيرة يمكنها أن تفيد من أي مقدار من القوة الكهربائية، وفي وسعها كلها أن تستعمل القوة المائية استعمالاً مفيداً، عوضاً عن القوة الحرارية الغالية التكاليف.

وفي السنوات العشرين المنصرمة أدت الحاجة العاجلة للسيطرة على فيضان الأنهر، فضلاً عن الحاجة للقوة الكهربائية والري الإضافي، إلى وفرة الدراسات الفنية وتعدد المشاريع. وكثير من هذه المشاريع قيد الدرس الآن، بل أن بعضاً من هذه المشاريع سبق أن تمت دراسة. وتتوفر جميع الدلائل على أن الحكومة التركية مزعمة على أن تسيّر قدماً في تحقيق خططها، على أن هذه الخطط لم تعالج علاجاً كافياً حتى الآن، كما أن ملابساتها الاقتصادية والزراعية لم تقدر تقديراً تاماً بعد. يضاف إلى ذلك أنه يعوزها الترابط، لأن

المشاريع في بعض الأحيان يضطلع بها من دون الالتفات إلى إمكانيات المنطقة أو حاجاتها بوجه عام، ويكون العمل الذي سبق في بعض الحالات غير متلائم مع الاستثمار الشامل لحوض النهر كله. وفي حالة واحدة فقط أجرى استقصاء استثماري لحوض نهري بكامله، مع أن استقصاء ثانياً مثل هذا توضع له الخطة الآن. ثم أن أعمال التحريج، ومكافحة تعرية التربة، يبدو أنها أهملت، بسبب الانصراف إلى تنظيم حالة النهر. الواقع أنه لم تتخذ مطلقاً أية إجراءات فعالة في تركيا لمكافحة التعرية، ومعنى هذا أنه على حين أضحت فكرة مشروع وادي التنسي معروفة في تركيا، يبدو أن مفهومها المعبر عن استثمار حوض أي نهر من الأنهار بأجمعه لم يبدأ تقديره إلا حديثاً.

وفيما يلي بيان موجز عن إمكانيات عدد من الأنهر التي تبشر بحصول منافع شاملة من استعمالها، بانتظام وحكمة، فضلاً عن إجراءات ضبط الفيضان التي تقتضيها<sup>(٢٤)</sup>. ويجب أن يكون ملحوظاً أن جميع الأنهار عدا أبعدها شرقاً (الفرات) تجري بكاملها في داخل حدود تركيا، وبذا تنتفي إحدى عقبات استثمار المياه بالقياس إلى بلاد الشرق الأوسط المجاورة لها.

ومشروع وادي سيحان هو أكثر مشاريع استثمار المياه تقدماً في تركيا، وسيحان أحد الأنهر الثلاثة (بردان وجيحان وسيحان) التي تجري نحو الجنوب

---

(٢٤) راجع وصفاً موجزاً لمشاريع الحكومة التركية في ما كتبه ن. تانيه، بعنوان أعمال هيدروليكية كبيرة في تركيا، في مجلة الأشغال، لسان حال جمعية هندسة الأشغال الفنية العامة والأسمنت المسلح. ديسمبر ١٩٤٨، ص ٦١١ - ٦١٨. أنظر كذلك ما نشره مكتب الاستعلامات التركي بعنوان "مشاريع استثمار الكهربائية المائية في تركيا" في مجلة "تركيا اليوم" رقم ٢، (نيويورك، ١٩٤٩).

من جبال طوروس، فتخترق منطقة تشقورا أووا الرسوبية الخصبة، وهي إحدى المناطق الزراعية الغنية في تركيا، وتكون مثلثاً مقلوباً يشير إلى الزاوية الشمالية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط. ومع أن الأنهر الثلاثة جميعها تفيض أحياناً، فإن سيحان يحدث أشد الفيضانات خطورة وأكثرها اتساعاً، فيدمر سنوياً مساحات واسعة من الأراضي الزراعية على جانبيه، ويقضي على حياة الكثيرين، ولذا فإن منع الفيضانات وحده يعد سبباً كافياً لبذل الجهود في سبيل السيطرة على سيحان. لكن منافع غير يسيرة يمكن أن تستخلص بالإضافة إلى ذلك من ري السهول الكائنة على جانبي هذا النهر، ومثال ذلك السد الغاطس الذي أنشئ على نهر سيحان على مسافة ست كيلو مترات فوق آطنة، وكذلك الجدولان الرئيسيان للري. لكن مجموعة الجداول الثانوية والثالثية التي شقت حتى الآن تخدم جزءاً من الجانب الأيمن فقط، وتزود ماء الري لمساحة ١٧,٠٠٠ هكتار فقط. فإذا تيسرت الوسائل لخزن المياه، فسوف يكون من الممكن إرواء ١٥٦,٠٠٠ هكتار، أو جميع سهل آطنة في الواقع.

ومع ما للزراعة من الأهمية الأولى في تشقور أووا، فالمنطقة تيسر فيها أيضاً أعمال التوسع والنمو لصناعات صغيرة، وخاصة صناعات النسيج وحفظ الأغذية. ويعد عدم وجود القوة الكهربائية عاملاً كبيراً في الحيلولة دون حصول النمو الصناعي في هذه المنطقة، وهي بأجمعها تعاني الآن نقصاً كبيراً في القوة، لأن ما يجري توليده كله تقريباً يعتمد على مكائن حرارية صغيرة تستعمل كل نوع من الوقود. ثم أنه يمكن تسخير مقادير المياه الغزيرة المنهمرة في سيحان لتطمين الحاجات الحالية من القوة، وما ينتظر أن تتطلبه المنطقة منها لعدة سنوات قادمة.

ولسد حاجات منطقة تشقور أووا وضعت الخطة لإنشاء سد متعدد الأغراض على أحد منحنيات سيحان، على مسافة ثمانية كيلو مترات تقريباً فوق آطنة، وتتضمن التصميم إنشاء سد بعلو يكفي للتوفيق بين متطلبات الري وتوليد القوة المتعارضة. وسيتكون من ذلك خزان لضبط جميع الفيضانات التي تزيد على الألف متر مكعب في الثانية، والتي لا بد من إنشاء ضفاف عالية على طول النهر في أسفل السد لتنظيمها.

وبذا تتحقق إمكانية الري التامة في المنطقة، ويتسنى توليد حوالي ٢١٠ كيلو واط في الساعة من القوة الابتدائية في السنة، بعد إقامة مصنع للقوة تبلغ سعته ٦٧،٥٠٠ كيلو واط. وقد سبق للمصرف الدولي أن أبدى اهتماماً بهذا المشروع، وأرسل خريف ١٩٤٩ مشاوراً لدراسة التصميم في أمكنتها المقترحة<sup>(٢٥)</sup>.

ولم تنظم حتى الآن مشاريع مماثلة لنهري بردان وجيحان الكائين على جناحي تشقور أووا الأيمن والأيسر، على أن سدا ومجموعة من الجداول كانت موجودة على بردان، لإرواء حوالي ٢٠,٠٠٠ هكتار من الأرض في سهل طرسوس. وقد تنصب يوماً ما التأسيسات الكهربائية المائية فوق السد

---

(٢٥) منح المصرف الدولي في ١٨ يونيه ١٩٥٢ قرصاً لتركيها مقداره ٢٥٢ مليون دولار، لتمويل تكاليف العملة الخارجية التي يحتاجها مشروع سيحان. ويتضمن المشروع إنشاء سد ترابي، وإنشاء محطة لتوليد القوة الكهربائية ينصب فيها مولدان كهربائيان تبلغ قوة كل منهما ١٨٠٠٠ كيلو واط، فضلاً عن مولد ثالث ينصب فيها فيما بعد، وشبكة لنقل القوة إلى باطنه وطرسوس ومرسين، وإكمال أعمال ضبط الفيضان، وشق الجداول اللازمة للري التي كان العمل جارياً فيها في الوقت الذي منح فيه القرض.

أو يقربه، ويجري الآن إنشاء سدة طولها ٤٥ كيلو مترات على ضفاف جيحان لدرء الفيضانات، على أن خطة موحدة لمنطقة تشقور أووا كلها تتناول موارد الأنهر الثلاثة بأجمعها لم توضع بعد.

وفيما عدا هذه الأنهار الثلاثة يوجد نهر سقاريا الذي ينبع في القسم الغربي من هضبة الأناضول، ثم يجري متجهاً إلى الغرب والشمال نحو البحر الأسود مسافة ٧٥ ميلاً شرقي البوسفور. ويجري نهر بور سوق، وهو الرافد الأكبر لنهر سقاريا نحو الشرق محترقاً كوتاهية واسكيشهر قبل أن يتصل بسقاريا، كما يجري أحد روافده الغربية بالقرب من أنقرة. ويشتمل حوض مجموعة الأنهار هذه على قسم من أحسن مناطق زراعة الحبوب في تركيا، والخطة لاستثمارات مائة متعددة الأغراض تتناول مجموعة أنهر سقاريا - بور سوق غير أن الهدف الأول من هذه الخطة يقتصر على توليد القوة، لأن هذه الأنهر واقعة في منتصف الطريق تقريباً بين أنقرة وإستانبول، وهي صالحة لتوليد موارد كهربائية مائية في أمكنة إستراتيجية يمكن أن تجهز القوة اللازمة لأرقى المناطق الصناعية في تركيا. والحقيقة أن هذه المواقع أصبحت مراكز هامة في شبكة أسلاك كهربائية يؤمل مدها، لتربط بلاد الأناضول الشمالية الغربية سوياً، وتمدها بالقوة اللازمة. أما الصرف والري ومكافحة الفيضان، فهي كلها ذات أهمية ثانوية في ضوء إمكانيات القوة الكهربائية للمنطقة.

وأنشئ على هذه المجموعة النهرية سابقاً سد من أحدث سدود تركيا وأكثرها اتقاناً، وهو سد نهر تشوبوق بالقرب من أنقرة ويجري الآن إنشاء سد ثان في اسكيشهر على نهر بور سوق، لتكوين خزان يسع ١٥٥ مليون متر مكعب. وسوف يقوم هذا السد بمنع وقوع الفيضان الدوري، وتيسير ري

سهول اسكيشهر كذلك. ولم تبذل بالنسبة لنهر سقاريا نفسه إلا جهود متواضعة حتى الآن، لاتخاذ ما يلزم للري والصرف في أعاليه على أن مشروعين رئيسيين وضعا لهذا النهر وأولهما في صاري ير، ويتضمن إنشاء سد ومصنع للقوة الكهربائية المائية سعته ٧٥،٠٠٠ كيلو واط، ويستطيع توليد حوالي أربعمائة مليون كيلو واط في الساعة سنوياً<sup>(٢٦)</sup>، وثانيهما في جاغلازق، ويتضمن إنشاء سدين يشغلان مصنعاً واحداً سعته ٣٦،٠٠٠ كيلو واط، لتوليد ١٢٠ - ١٥٠ مليون كيلو واط في الساعة. وتستدعي تصاميم الحكومة التركية ربط مصانع القوة هذه بغيرها من مصانع القوة التي تشتغل بالفحم والليجنات، لتكوين شبكة تضم تركيا الشمالية الغربية، فتزود على هذه الشاكلة القوة لمناجم الفحم الكبيرة في زونغلداق، والمنطقة الصناعية الممتدة بين استانبول وأزميت ومركزي أنقرة وقرق قال الصناعيين<sup>(٢٧)</sup>. وينتظر أن تنتج عن هذه المشاريع حصيلتان ثانويتان كبيرتان، لأن إنشاء السدود سوف يدرأ الفيضان عن وادي سقاريا الأسفل، كما يؤمل أن تجعل مسافة ستين إلى مائة ميل من مصب النهر صالحة للمراكب الصغيرة من حمولة ٢٠٠ إلى ٥٠٠ طن.

ومن أنهار تركيا نهر كديز الذي يجري غرباً حتى يصب في بحر إيجه شمالي أزمير مباشرة، وبعد واديه مورداً كبيراً لقطن تركيا وتبغها وفواكهها ونقلها وزيت زيتونها. ولقد حسب الحساب بصورة واضحة في التصاميم الموضوعية لحوض هذا النهر لشؤون الري والصرف ومكافحة الفيضان وتوليد القوة من

---

(٢٦) هذا السد ومحطة توليد القوة الكهربائية يجري إنشاؤها الآن.

(٢٧) يكاد العمل ينتهي في هذه الشبكة لتوليد القوة الكهربائية في هذه المنطقة الشمالية الغربية،

لأن السلطات التي يهتما إتمام هذا العمل جهزت العملة الخارجية اللازمة.

الماء. وعلى هذا النهر بنيت سابقاً عدة سدود وجداول تحويلية، فالسد المقام أولاً على نهر كديز. والآخر المقام في جامليكا على قوم تشاي، يساعدان على تنظيم فيضان كديز الأسفل الذي يهدد بخطرته سهول منمن ومغنيسيا الغنية. حيث تجري المياه التي يصدها هذان السدان في جداول إلى بحيرة مرمرة. وبينى الآن سد غاطس آخر على كديز في جنوب البحيرة مباشرة، وسوف يربط أيضاً بالبحيرة بواسطة جدول خاص. وعلى مسافة من أسفل النهر أقيم سد أكبر لتحويل المياه في أمير عالم، كما شيدت سلسلة من الضفاف ومجموعة من الأفنية لإرواء سهل منمن بأجمعه. وبالإضافة إلى إتمام هذه الأعمال الإنشائية، فإن أكبر عمل يراد إنجازه في حوض كديز هو إنشاء سد كبير جديد بالقرب من أوالا على أن الهدف الأكبر لهذه الأعمال كلها هو مكافحة الفيضان وضبطه، ولو أن إنشاء السد الجديد سوف يتضمن نصب تأسيسات كهربائية مائية يكون في وسعها توليد ١٥٠ مليون كيلو واط في الساعة سنوياً، وسوف تستعمل هذه القوة للري بالمضخات في المناطق القريبة من مجنيزيا، وفي منطقة أزمير الصناعية.

على أن المشاريع التي أنجزت والتي وضعت لها الخطط اللازمة حتى الآن في حوض كديز اضطلع بها على انفراد، دون أن ترسم الخطة لاستثمارها بصورة مترابطة، ويشبه وضع كديز في هذا الشأن جميع المشاريع الاستثمارية الأخرى في تركيا. على أن كديز ينفرد عن الأنهر الأخرى بأنه أول حوض نهري تبذل فيه الجهود الآن لوضع خطة استثمارية موحدة من جميع الوجوه، وقد باشرت الشركة الأمريكية التي احتفظ بها للقيام بهذا العمل سنة ١٩٤٩،

وهي تأمل أن تنتهي من وضع تقريرها أوائل سنة ١٩٥٠ (٢٨).

ويجري نهر المدرس الكبير، كما يجري نهر كديز، من الهضبة الغربية إلى بحر إيجه، مخترقاً أراضي تنتج كثيراً من منتجات تركيا الزراعية، وهو يمر كذلك بمركز صناعي هام هو مركز نازلي. والمنطقة بأجمعها في حاجة إلى حمايتها من الفيضان، كما أن الري والصرف سوف يزيد كثيراً في المنافع التي تجني من المنطقة. ويمكن أن تربط الإمكانيات الكهربائية المائية في وادي المدرس الكبير بإمكانية نهر كديز، وبذا تتكون شبكة مشتركة تخدم منطقة بحر إيجه.

والمشاريع التي يؤمل إنجازها في هذا الحوض لا تتناول نهر المدرس الكبير نفسه فقط، بل تتناول أيضاً روافده، وهي كوفي تشاي ونددلاس وآق تشاي وتشين تشاي.

وبدأ العمل في هذا الحوض بصرف المناطق المجاورة لأيتشكلي، وتنشأ الآن الضفاف حول بحيرة أيتشكلي. وهناك سد على بعد عدة أميال فوق نازلي، حيث يحول الماء إلى جدولين في جانبي النهر لري سهل نازلي. وقد أنشأت مجموعة صغيرة من الأقنية في أعالي النهر، لإرواء سهل دنزلي، كما تنشأ الآن ضفاف واقية عبر سهل صوكاي حيث يتصل النهر بالبحر.

وتستهدف الحكومة التركية حماية هذا الحوض كله، لكن بعض

---

(٢٨) انتهت شركة ناين - تيبس أوتس الهندسية في نيويورك من الأعمال التمهيديّة، وقدمت تقريرها إلى الحكومة التركية في ١٩٥٠. ولاعتقاد الحكومة بأن هذا المشروع يستحق الترويج والأولية على غيره من المشاريع فإنها أخذت تسعى للحصول على مساعدة من الخارج لتمويله.

الأعمال الإنشائية التي سبق أن أجزت ليست سوى مشاريع منعزلة متفرقة. على أن الحكومة برهنت أخيراً على عزمها في مسح الحوض بكامله ليكون وحدة استثمارية، ومن أجل ذلك أجرى مسح تمهيدي لهذه الغاية.

### مشاريع تركيا أخرى

كانت أربعة حياض نهريّة أخرى على الأقل موضع البحث في دوائر الحكومة التركية، ومع أن أي حوض نهري من هذه الحياض لم يدرس دراسة علمية منظمة، فإن بعض المشاريع الجزئية تمت بأعمال انفرادية. وأنجز العمل في بعضها لتصبح فيما بعد أجزاء من مشاريع استثمارية عامة. مثال ذلك حوض صوصورلو للصراف، وهو الواقع جنوبي بحر مرمرة مباشرة، ويحتوي على مياه بحيرتي مانياس واو لوباد وأنهر صوصورلو ونيلوفر وخوجة تشاي وكمال باشا مع روافدها. والحاجتان الرئيسيتان في هذه المنطقة هما الصراف ومكافحة الفيضان، وتمت بعض الأعمال لإنشاء الضفاف والسدود على طول نهري صوصورلو وكمال باشا، وفيما حول بحيرة مانياس. ومع أن هذه المنطقة من المناطق التي يكثر فيها الري في تركيا، فإن بعض مشاريع الري تم إنجازها وتحققت فائدتها، وبعضها الآخر رسمت الخطة لإنشائه. ومن المأمول أيضاً أن يتم ما يلزم لتوليد القوة، وجعل الملاحة ممكنة في القسم الأسفل من نهر صوصورلو.

ويجري نهر قزل أيرمق ويشيل أيرمن من الهضبة الوسطى، فيخترقان مضائق صخرية عبر حاجز بونتيك إلى البحر الأسود، على جانبي ميناء سامسون الهام. وتكونت دلتاوات غنية في مصبي هذين النهرين، لكنها

دلتاوات مرزغية تتعرض للفيضان. وسبق أن بدأ العمل في منشآت صغيرة للصرف والري في هذه المنطقة، لكن أعمالاً أكثر من هذه يؤمل إنجازها في المستقبل. ثم أن إمكانيات توليد القوة الكهربائية المائية صارت معروفة في هذه المنطقة كذلك، لكن الخطط المفصلة لم توضع لها بعد.

ويكون الفرات الأعلى وروافده في الأناضول الشرقية أطول مجموعة نهريّة في تركيا، إذ ينبع بين أعلى الجبال الموجودة في البلاد، ثم يهبط بسرعة إلى سهول تركيا الجنوبية الغربية ومنخفضان سوريا. ومما لا شك فيه أن إمكانيته لتوليد القوة الكهربائية المائية عظيمة. لكنها بقيت غير مدروسة حتى الآن، والمشاريع الوحيدة المضطلع بها في العصر الحاضر هي المشاريع التي تساعد على الري والصرف في سهل أزنجان.

### الهضبة الإيرانية

ليست قلة الماء التي تعانيها إيران ناشئة من الأحوال الجوية فقط، بل من تكوينها الطبيعي كذلك. ففي ما بين ذراعي المساحة التي تشبه رقم ٧، وهما الذراعان اللذان تكونهما جبال البرز في الشمال وسلسلة الزاغور في الغرب تقع الهضبة الإيرانية التي يبلغ معدل ارتفاعها ٤٠٠٠ قدم، فوق مستوى سطح البحر. وتبدأ هذه الهضبة وعرة، ثم تنبسط بالتدرج فتكون بادية عظيمة تؤلف ما يقرب من ربع مساحة البلاد. ويبلغ مقدار المطر السنوي في منطقة البوادي أقل من خمس بوصات، وهو يزيد في معظم الهضبة على ١٢ بوصة، وأكثر سقوطها في أشهر الشتاء. على أن مناطق بحر قزوين الساحلية تغزر فيها الأمطار طول أيام السنة، فيبلغ معدلها حوالي

خمسين بوصة، كما أن إيران الغربية يكثر فيها تساقط الثلوج والمطر خلال أشهر الشتاء. غير أن هذه الأمطار المتكونة من جبهات جوية تتحرك من الجنوب إلى الغرب تستهلك نفسها عادة، لأنها تنضب عند الحواجز الجبلية العظيمة. وعلى هذه الشاكلة لا يقل المطر داخل إيران فحسب، بل تعود معظم المياه فتجري من الجبال إلى مجموعات الصرف الخارجية، ولا يمكن أن يستفاد منها إلا في رقعة صغيرة من إيران، قبل أن تعبر الحدود أو الممرات إلى البحار مباشرة. وهذا وضع لا يختلف عن الوضع الموجود في شرقي البحر الأبيض المتوسط، حيث تعوق سلسلتا جبال لبنان جريان معظم الريح الممتلئ بالرطوبة قبل أن يصل إلى سوريا.

وقلة هطول الأمطار لا تعوض عنها الأنهر التي تجري قادمة من خارج إيران، حيث تجري كميات من الماء إلى الداخل في مجار سطحية ترد من أفغانستان. ثم أن الأحوال الطبيعية لا تساعد كثيراً على الاستفادة من المياه الجوفية، لأن معظم إيران - ما عدا زاويتها الجنوبية الغربية - يظل فيها مستوى الماء الجوفي واطئاً، بحيث لا يسمح بضح الماء بقوة الثيران من الآبار، كما يجري في الهند، أو في وادي النيل. وبالنظر للصعوبات التي يتضمنها استيراد المكينات، وتشغيلها وصيانتها في بلاد غير متقدمة في العمران، فإن عدد المضخات التي تشغلها المحركات لا يزال محدوداً. غير أن براعة الفلاحين وخبرتهم أدت إلى ابتداع القناة التي تزيد مساحة الأرض التي ترويتها على المساحة المرواة بأية وسيلة أخرى. وتتألف القناة من اسطوانة أفقية محوفة تدفن في قاعدة الجبل حتى تصل إلى الطبقات الحاملة للماء الضحل، فتتقل الماء بالجاذبية الأرضية إلى أسفل، حيث يستهلكه الناس

والحيوانات للري والسقي. ويعتمد الناس والزراع في هذه المناطق من إيران اعتماداً تاماً على مثل هذه القنوات، مع العلم بأن عشرة بالمائة من المياه الجوفية فقط تستخرج بهذه الطريقة.

ومن الممكن أن يزداد تجهيز إيران المائي ازدياداً جوهرياً، بإنجاز مشاريع الماء الحديثة. والواضح أن توظيف المال لهذا الغرض ضرورة كبرى لأي تحسين في مستويات الصحة الشخصية والصحة العامة، ولتقدم الزراعة التي تعد عماداً لاقتصاديات البلاد. ويتطلب خزن الماء السطحي، فضلاً عن استخراج المياه الجوفية على وجه أتم، مصاريف جسيمة وتصميماً مترابطاً، وفي بضع السنوات الأخيرة بدأ العمل في التصميم لذلك كله بمساعدة فنيين أجانب، وأخيراً وضعت الحكومة الإيرانية "مشروع السنوات السبع للتعمير"<sup>(٢٩)</sup> والغرض منه أن يزداد الإنتاج ومقدار المنتجات المصدرة، مع إنتاج ما يحتاجه السكان داخل البلاد، وإصلاح شأن الزراعة والصناعة، واستغلال الموارد المعدنية وخاصة النفط، وتنمية المواصلات، وتحسين الصحة العامة، والقيام بكل شيء ضروري لتعمير البلاد، ورفع مستوى المعيشة بين السكان، وتقديم الرفاهية العامة، وخفض تكاليف المعيشة<sup>(٣٠)</sup>. وخصصت الحكومة الإيرانية من مجموع النفقات التي تبلغ ٢١ بليون ريال مبلغ ٦٥٠

---

(٢٩) من الأحوط أن لا يؤكد كثيراً على عدد السنين المقرون باسم المشروع، فبينما أعلن عن المشروع لأول مرة أوائل ١٩٤٧، حين اتخذ شكله القانوني بإقراره في البرلمان الإيراني في ١٥ فبراير ١٩٤٩، ليس من العجيب أن يمتد هذا المجهود الواسع النطاق إلى مدة أطول.

(٣٠) المصرف الملي الإيراني. النشرة رقم ٩٨ (فبراير - مارس ١٩٤٩)، المجلد ١٦، ص

مليون دولار بسعر التحويل الرسمي، أي ٢٥% للزراعة، وفي النية صرف ٨%، أي ١٨٥٠ بليون ريالاً على شؤون الري وإنشاء السدود.

ويبدو من المعلومات المتوفرة<sup>(٣١)</sup> أن مجموع معدل ما يتوفر من الماء سنوياً في إيران يزيد على ٤٥٠ بليون متر مكعب، يضيع منه في الوقت الحاضر بالتبخير والانسياح من الأنهر حوالي ثلاثة أرباعه. ولتحسين هذه الحال سوف يكون من الضروري الإفادة من الماء المضاع بالانسياح من الأنهر، وفتح منابع جديدة باستخراج المياه الجوفية، للحصول على كميات أوفى مما يجري الآن بواسطة القنوات وإعادة استعمال بعض المياه التي تتسرب من مشاريع الري الموجودة في أماكن مرتفعة، لري الأراضي التي يقل ارتفاعها. ويؤمل بهذه الوسائل أن تسد الحاجة السنوية من الماء، ومقدارها حوالي ٥٠٠ بليون متر مكعب في السنة. وسوف يستهلك مقدار ٩٧% من هذا المقدار للأغراض الزراعية، والباقي ما تتطلبه المدن والمرافق الصناعية وقدره بليون متر مكعب، كما أن حوالي ثمانية بلايين متر مكعب سوف تحفظ مستوى الماء الكافي للملاحة في نهر قارون الذي يحمل خارج إيران حوالي ٢٤ بليون متر مكعب في السنة. وتخصيص كميات عظيمة من موارد الماء للزراعة أمر تبرره القابلية الإنتاجية العظيمة التي يؤمن حصولها، إذ تدل أوثق الإحصاءات المتيسرة على أنه يوجد بالإضافة إلى الأحد عشر مليون فدان من الأراضي المزروعة بالمحاصيل والتسعة والعشرين مليون فدان من الأراضي

---

(٣١) يرغب المؤلفان في الإعراب عن شكرهما للسفارة الإيرانية في واشنطن، لسماحها لهما بالاستفادة من "تقرير عن مشروع السبع سنوات لمنظمة المشاريع التابعة لحكومة إيران الإمبراطورية، شركة مشاوري ما وراء البحار" (نيويورك ١٩٤٩).

البور، حوالي اثنين وثمانين مليون فدان أخرى قابلة للزراعة أيضاً.

وفيما يلي نورد خلاصة عن أهم إمكانيات تسخير موارد الماء الإيرانية واستثمارها: كما وضعت في مشروع السنوات السبع. وأول هذه الإمكانيات يأتي من نهر قارون وهو أهم نهر في إيران، في الجبال الممتدة غربي أصفهان. وفي مجراه الأسفل يتعرج قارون في سهل خوزستان متجهاً نحو الجنوب، ويجري كله في إيران، لكنه يعد من الوجهة الجغرافية جزءاً من مجموعة نهري دجلة والفرات اللذين يشاركهما في منطقة مصبهما - أي شط العرب. ولا يستعمل قارون في الوقت الحاضر استعمالاً كافياً لري السهول الرسوبية التي تهددها الفيضانات دورياً، وأوصى مهندس بريطاني سنة ١٩٤٤ بإنشاء سد واق بالقرب من ششتر، حيث يخرج النهر من الجبال. وبذا يكون من المستطاع تخزين كمية من الماء تقارب أربعة بلايين متر مكعب، وسوف يقلل هذا الخزان من خطر الفيضان الذي يتعرض له سهل خوزستان، بل سوف يؤدي كذلك إلى تقليل المساحة التي تغمرها المياه الفائضة من نهري دجلة والفرات سنوياً، بالتخلص من الصعوبات التي يسببها قارون بتصريفه غير المسيطر عليه. وسوف تكون للسد إمكانية لتوليد القوة الكهربائية المائية، ومقدارها ثلاثين ألف كيلو واط. وهناك قيد النظر الآن - بالإضافة إلى هذا الخزان - عدة مشاريع لري خوزستان. ومن الاقتراحات أيضاً أن قسماً من النهر يمكن تحويله إلى منطقة المستنقعات فيما وراء الأهواز، لترسيب غرينه واستعمال مياهه لتكوين أراض جديدة لزراعة الأرز<sup>(٣٢)</sup>. ثم إن التقليل المقترح

---

(٣٢) وردنجتون: المرجع السابق، ص ٥٢.

لجري النهر سوف لا يؤثر على إمكان الملاحظة فيه، كما أن كميات الغرين المترسب في الدلتا العراقية سوف تقل، وهي الكميات التي يتحتم في الوقت الحاضر إزالتها بأعمال الكرى الباهظة التكاليف.

وهناك في طور الإنشاء الذي سبقت الإشارة إليه في إيران مشروع آخر، وهو أصغر بكثير من سائر المشاريع الإيرانية، ويتناول بعض منابع قارون. ففي غرب أصفهان - على مسافة ٤٥ ميلاً - توجد رابية ضيقة تقسم حوضين لتجمع المياه، ويوجد في غرب الرابية أحد منابع قارون، كما يوجد في شرقيها نهر زيانده رود الذي يضيع نفسه في البادية الإيرانية، ولكن بعد أن يغمر بالمياه منطقة زراعية غنية تقع حول أصفهان. ويحفر الآن نفق يخترق هذا المسيل، لتحويل بعض مياه قارون لزيادة مياه زيانده رود. ومن شأن هذا المشروع أن يزيد في أهمية المشاريع المعدة لحفظ مياه زيانده رود نفسه، واستغلالها بوجه أحسن، ولذا وصت الحكومة الإيرانية بإعطاء أرجحية فائقة في ميزانية مشروع السنوات السبع للدراسات والاستقصاءات الممهدة لهذه الأعمال.

وفي إيران يضيع عدد من الأنهر الصغيرة هباء في المستنقع والبحيرة المالحين الكائنين جنوبي طهران، وأكثر هذه الأنهار أهمية قاراج وجاجيرود، وهي التي تجري من جبال البرز في شمال طهران، وهي برغم تصريفها المتواضع ذات أهمية للاستثمار المتعدد الأغراض، بما في ذلك تجهيز الماء الصالح للشرب والقوة الكهربائية للعاصمة الإيرانية، مع ري الأراضي الزراعية القريبة. وتغذي الثلوج نهر قاراج في الربيع وأوائل الصيف، ولذا يجري في الجهات العالية ذوات الجوف الجاف وهو خال نسبياً من الغرين، إذا قورن بمعظم الأنهر الإيرانية، كما أن هبوطه بمقدار ألف قدم تقريباً في مسافة ستة

عشر ميلاً فقط يجعل توليد القوة شيئاً ناجحاً. وكان قازاج منذ سنين يجهن طهران بمعظم مائها الذي يجري حتى العصر الحاضر في مجرى مكشوف غير مبلط داخل العاصمة الإيرانية. وبالإضافة إلى عدم صلاحية هذه الطريقة، يكون ماء قازاج غير كافٍ خلال قسم من السنة، وسيبقى كذلك حتى يدبر أمر خزن المياه. أما نهر جاجيروود الأصفر فدراسته منتهية لتوليد القوة وزيادة التجهيزات المائية لري سهل فرامين، وهو بقعة تبلغ سعتها حوالي ربع مليون فدان من الأراضي المزروعة القيمة بالقرب من طهران. وترتبط هذه الإمكانيات بمشاريع مماثلة على نهر لار الذي يتفجر على مقربة من جاجيروود، لكنه يجري إلى بحر قزوين.

وتوجد تحت النظر عدة مشاريع أخرى للري، وهي تختص بمختلف أنحاء إيران، ومنها حوضاً نهري كور ومند.

## وادي دجلة والفرات

النصف الشرقي من الهلال الخصيب المعروف في التاريخ واد عظيم واحد يرويه نهران هما دجلة والفرات، وفي مجراهما الطويل من تركيا إلى الخليج الفارسي يكون هذان النهران مع الأراضي التي يخترقانها إمكانيات زراعية هائلة، بالقياس إلى غيرها من إمكانيات الشرق الأوسط كله. والنهران كلاهما ينبعان في تركيا، لكنهما تتصرف إليهما مياه قسم من سوريا، وحدود إيران الغربية، وجميع القسم المسكون من العراق. وبعد أن يجري الفرات مسافة ٤٢٠ ميلاً في سوريا، و٧٥٠ ميلاً في العراق، وبعد أن يجري دجلة مسافة ٧٧٠ ميلاً في العراق، يلتقي النهران أخيراً في القرنة، حيث يبدأ شط

العرب إلى الخليج الفارسي. وهما يخترقان خلال قسم كبير من مجراهما مناطق من أشد مناطق العالم حرارة، وأكثرها جفافاً.

وهناك بلا شك مجال للإفادة من هذين النهرين، وخاصة الفرات، في تركيا للزراعة وتوليد القوة معاً. على أن الخطط لاستثمار دجلة والفرات في تركيا لم تتجاوز حتى الآن مرحلة البحث والتدقيق، والحقيقة هي أنه لا يعرف إلا شيء قليل عن ذلك الجزء من مجرى هذين النهرين. وأي تنظيم أو خزن يجري في المستقبل لمياه النهرين في تركيا، لمنابع روافد دجلة العظيمة الأربعة في إيران، سوف يؤثر تأثيراً خطيراً على مقدار المياه في النهرين وجريهما في الأقسام الوسطى والجنوبية منهما، أي في سوريا والعراق. وعلى هذا فإن استغلال دجلة والفرات على الوجه الأتم يتطلب عقد اتفاقية دولية تمهيدية بين البلاد الأربعة التي يعنيه الأمر،<sup>(٣٣)</sup> على أن دراسة غير يسيرة أجريت في الوقت نفسه حول إمكانيات استثمار دجلة والفرات في العراق وشمال شرق سوريا<sup>(٣٤)</sup>، وهو ما يتعلق بالبحث التالي.

ذلك أن السهل الرسوبي الذي يجري فيه دجلة والفرات يشبه وادي النيل المصري، فهنا أيضاً تكون الأمطار غير كافية للزراعة التي تعتمد على الري من الأنهر منذ عصور ما قبل التاريخ، وفي كلا الواديين يتذبذب التجهيز

---

(٣٣) أشار السيد عبد الأمير الأزري معاون مدير الري في العراق في ١٩٤٤، بأن أي استثمار زراعي واسع النطاق يجري خارج العراق، ويستمد الماء من الفرات خلال موسم هبوطه، سوف يؤثر على مصالح البلاد تأثيراً خطيراً. أنظر تقرير مركز تموين الشرق الأوسط المشار إليه سابقاً، ص ١٨٠.

(٣٤) محافظة الجزيرة والقسم الشرقي من محافظة الفرات.

المائي بين الفصول. على انه توجد فروق هامة بين العراق ومصر، لأن دجلة والفرات معاً يحملان مقداراً من المياه يقل عما يحمله النيل، وتتوفر مياههما في وقت غير مناسب - أي وقت زرع المحاصيل الصيفية وينشأ ذلك عن كون النيل ينبع من جبال استوائية فيتجه شمالاً، بينما يجري النهران في اتجاه جنوبي من أجواء معتدلة يضاف إلى ذلك أنه يصعب رفع مستوى الماء بسدات في أراضي ما بين النهرين المنبسطة أكثر مما يصعب في وادي النيل الضيق. ونتج عن ذلك أن الري في السهل الرسوبي العراقي اعتمد في السنوات الماضية على رفع المياه إلى أعلى بالمضخات، كما أن مشاريع منع الفيضان الجديدة تستند أحياناً على الاستفادة من المضخات الموجودة بقرب الأنهر. وبينما أدت قلة الأراضي القابلة للزراعة في مصر فضلاً عن احتشاد السكان أن تصبح الزراعة كثيفة سنة بعد أخرى فإن المقدار العظيم من الأراضي القابلة للزراعة في العراق، ونسبة السكان إلى الأرض .. انعكس تأثيرهما في شيوع الزراعة المتسعة حتى في الأراضي المعتمدة على الري. ولذا تفشت الملوحة في مساحات واسعة من الأرض بالقرب من الأنهر، لانعدام وجود الصرف (البزل) وأضحت هذه الأراضي بائرة<sup>(٣٥)</sup> تماماً.

وعلى الرغم من هذا يمتلك العراق أعظم احتياطي من القابلية الإنتاجية في الزراعة في الشرق الأوسط، لأن حوالي ثلاثين مليون دونم (فدان) من أراضي العراق فيها قابلية كامنة للزراعة. ومن مجموع الأراضي فيه يوجد

---

(٣٥) راجع ويرنر: المرجع السابق، ص ١٠٢، وكذلك وردنجتون: المرجع السابق، ص ٤٨ - ٥٠. أنظر أيضاً ما كتبه فرانك م. أيتون بعنوان "زراعة الري على طول النيل والفرات" في مجلة ساينتيفيك أمريكان، مجلد ٥٩ (١٩٤٩)، ص ٣٤ - ٤٢.

١٩،٨ مليون دونم في منطقة الري، ولا يزرع من هذه المساحة الآن إلا سبعة ملايين دونم، كما أن ٤،٣ ملايين دونم فقط تزرع بالفعل في كل مرة<sup>(٣٦)</sup>. ومن المعروف أن مليوني فدان في سوريا يمكن أن تخضع للزراعة إذا استعملت مياه الفرات وروافده استعمالاً مناسباً<sup>(٣٧)</sup>. وتدل هذه الأرقام على أقصى حد من إمكانية الأراضي المحيطة بدجلة والفرات، وأما المقدار الذي يمكن الاستفادة منه عملياً، فسوف يكون أقل بالنظر لعدم وجود الماء. غير أن الوصول إلى هذه الأهداف يتطلب أعمالاً متسعة، للخرن والصرف ومكافحة الفيضان والري.

ويجري الفرات في سوريا خلال واد متسع يسمح بتحقيق إمكانيات الري الواسعة النطاق كما يسمح بذلك نهر الخابور وهو الرافد الأكبر للفرات. وإذا لم تنهأ وسائل الخزن لهذه المياه، فإن تحويلها في سوريا سوف يتعارض مع استعمالها في العراق. وعلى هذا فإن أحد مشاريع الفرات الذي يمكن تحقيقه في سوريا هو إنشاء سد وخرن في يوسف باشا، حيث يمكن أن يخزن حوالي مليون ونصف متر مكعب من الماء لإرواء ٣٠٠،٠٠٠ هكتار تقريباً، وسوف يجهز الخزان أيضاً بمقدار ٣٠،٠٠٠ كيلو واط على الأقل لتوليد القوة الكهربائية. وهناك مشروع آخر لري الجزيرة، باستغلال الخابور استغلالاً أكثر فائدة مما هو حاصل في العصر الحاضر.

---

(٣٦) ويرنر: المرجع السابق، ص ٩٩ - ١٠. وهناك بالإضافة إلى ذلك عشرة ملايين دونم في العراق من الأراضي التي تسقيها مياه الأمطار لا يزرع منها في الوقت الحاضر غير مليون ونصف فقط.

(٣٧) تقرير الولايات المتحدة - البعثة الزراعية إلى سوريا. (واشنطن، سنة ١٩٤٧ ص ١٢).

وفي العراق تؤخذ معظم مياه الفرات الآن للري من فوق سدة الهندية، حيث يتغير قاع النهر بسبب الترسيب، وتحدث الفيضانات سنوياً بصورة منتظمة. وفي هذا القسم من البلاد تخدم الفيضانات غرض ري الحياض، لكن هذه المنطقة وسائر المناطق تحدث الفيضانات فيها أضرار بالمزروعات، حتى أنها تهدد بغداد بالخطر. وأكبر عمل إنشائي وضع للفرات في العراق هو مشروع الحبانية الذي بدأ العمل فيه قبل الحرب العالمية الأولى، لكنه بقي معلقاً مدة تزيد على العشرين سنة، وهو مشروع لمكافحة الفيضان. والمشروع يعتمد على الاستفادة من بحيرة الحبانية التي هي عبارة عن منخفض في البادية، بالقرب من ضفة النهر اليمني غربي بغداد. وسوف يشمل هذا المشروع عند انتهاء العمل فيه على سد للتحويل يقام على الفرات، وعلى جدول ينقل الماء إلى البحيرة ليخرج منها إلى منخفضين جنوبي الحبانية، حيث يمكن تخزين كميات أخرى من الماء فيهما. وستكون سعة التخزين في الحبانية بعد أن يتم إنشاء الخزان حوالي ثلاثة بلايين متر مكعب، وسوف يساعد هذا الخزان على ضبط فيضانات الفرات، وتوسيع رقعة الري إلى مليون ونصف دونم أخرى، مع إضافة مياه الفرات في موسم الجري الواطئ.

ومنابع مياه دجلة أعلى من منابع مياه الفرات، كما أن الأمطار الهاطلة عند منابعه تنحدر انحداراً أكثر. ولدجلة بالإضافة إلى ذلك أربعة روافد كبيرة في العراق، وهي تجري بانحدار كبير إلى واديها. وعلى هذا فإن فيضانات دجلة أكثر خطورة وأصعب تكهناتاً بها من فيضانات الفرات، وهي بذلك تهدد بغداد على الدوام. على أنه من حسن الحظ أن تكون معظم روافد دجلة داخل العراق، مما يؤدي إلى توفر فرص أحسن للسيطرة التامة على مياه دجلة

في مرحلة أبكر، بإنشاء مشاريع تقع في بلاد واحدة، هي العراق. وهناك الآن على دجلة سدة كبيرة واحدة هي سدة الكوت التي أنشئت أسفل النهر سنة ١٩٣٩، وهي ترفع مستوى الماء بحيث تسمح بإرواء مساحة كبيرة من الأرض. ومجرى دجلة في أسفل الكوت مثل الفرات في أسفل الهندية، كلاهما غير مستقر وغير قابل للتحديد دائماً.

ثم أن أهم مشروع لضبط الفيضان على دجلة، وهو مشروع وادي الثرثار، يشبه مشروع الحبانية على الفرات، ولكن مقياس أوسع بكثير. ذلك أن وادي الثرثار يمتد بموازية دجلة من الغرب، ويجري فيه الماء خلال مدة قصيرة من السنة، بمنخفض طويل يمكن أن يستعمل خزاناً طبيعياً يحتفظ بمياه فيضان دجلة ويعيدها إلى النهر في أوقات هبوط مستوى الماء فيه. ويتطلب هذا المشروع إنشاء سد لتحويل المياه إلى النهر، وحفر جدولين ينقل أحدهما المياه إلى الوادي ويعيدها الثاني إلى النهر. ومثل هذا الترتيب سوف يسمح بتوليد القوة الكهربائية المائية، وتوسيع المساحة المزروعة في جوار المشروع. ويحفر مخرج إلى الفرات يمكن أن يستعمل خزان الثرثار لتزويد كل من دجلة والفرات بالماء في أوقات هبوط مستوى الماء فيهما.

وللسيطرة على مياه دجلة، ولزيادة سعة خزن المياه، وضعت الخطط لإنشاء سدود للخزن في أعالي دجلة وروافده، مثل نهر ديالي. وبذا سوف يؤدي إنشاء سد ديالي إلى تخفيف الضغط على جريان دجلة بالقرب من بغداد، وإنقاذ وادي ديالي نفسه من شر الفيضان، كما أن ذلك سوف يسمح بتوسيع رقعة الزراعة على طول ديالي وإقامة مكائن لتوليد قوة مقدارها ٣٠,٠٠٠ كيلو واط، على مسافة ٦٥ ميلاً من بغداد.

ومما ينظر فيه من المشروعات أيضاً سد الفتحة على دجلة، على مسافة ٦٥ ميلاً شمالي سامرا. وسوف يتكون من ذلك خزان يشبه في سعته خزان الثرثار فضلاً عن سد نجمة على الزاب الكبير، وسد دمبر على نهر العظيم، وسد دوكان على الزاب الصغير. والهدف الرئيسي لهذه المشاريع في مجموعة نهر دجلة هو ضبط الفيضان، لكن قابلية الخزن التي تنشأ عنها، وجداول الري التي يؤمل فتحها، سوف تساعد على وضع مساحات كبيرة من إمكانيات العراق الزراعية موضع الاستعمال، كما أن الاستغلال للماء في هذه المساحات ستوقف أيضاً طبيعة الحال على إنشاء المبال الكافية لإزالة الملوحة في قسم كبير من أراضي العراق الرسوبية، ويساعد على نشوء نظام زراعة الري المتسعة الخاصة به.

ولو ألقينا نظرة على خارطة دجلة ومشاريع الاستثمار التي يؤمل تحقيقها على روافده، وعلى النهر نفسه، نجد أوجه شبه مدهشة بنهر التنسي ووسائل تنظيمه. والواقع أن ضبط دجلة والفرات المجاور له على الوجه الأتم سيولد انقلاباً في حياة المنطقة لا يقل عما حدث بفضل مشروع وادي التنسي في المنطقة التي يجري فيها. ويصح الشيء نفسه لسائر مشاريع الاستثمار المائي المتعددة الأغراض التي أشرنا إليها هنا، وبفضل المناهج لاستغلال الماء والأرض والمحافظة عليهما يستطيع الشرق الأوسط أن يتقدم نحو تحقيق إمكانياته الاقتصادية، وتأمين مستوى كافٍ من العيش لسكانه. وسوف لا تزول الموانع المتنوعة التي تقف في سبيل هذه المناهج بسهولة، وربما يستغرق إنجاز الكثير منها عقوداً من السنين، غير أن خطوات أولى بطيئة يمكن أن تتخذ الآن، لتحقيقها بالدراسة الكافية والوسائل العلمية المتواضعة.

# دروس من الشرق الأوسط

تأليف

روجر سولتو

ترجمة

عمر فروخ

يجب في المقام الأول أن نعرف مدلول اسم الشرق الأوسط، وإنني في هذا المقال أحصر كلامي في البلاد التي تتكلم اللغة العربية، وتطل على الشاطئ الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، أي البلاد التي كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية: سورية ولبنان وفلسطين والعراق، والتي أصبحت بعد الحرب العالمية الأولى تحت الانتداب، ولم تحرمها أحوالها السياسية أن تظل متحدة في النواحي الاجتماعية والثقافية. وإنني لا أزال بعد نحو عشر سنين من الاختبار في التدريس بين طلاب تلك البلاد أسأل نفسي في دهشة عما إذا كان ما تعلمته أنا لم يكن أكثر مما علمته. وإنني لأعتقد أن هذه الدروس التي تعلمتها تستحق أن يشاركني فيها زملائي، من الباحثين في التاريخ والسياسة في الغرب.

إن أول ما يسترعى انتباهنا في هذا المقام أن ما نسميه شرقياً أو نعهده كذلك، لا يمثل الخصائص الشرقية المعروفة في التطور الاجتماعي والثقافي العام، وهو التطور الذي تشترك فيه معظم الحضارات. ويبلغ هذا التطور في الشرق، على وجه التقريب، ما بلغه الغرب في أعقاب العصور الوسطى، مع مظاهر آخر تذكرنا من ناحية ببدء الثورة الصناعية، وتعيد إلى ذاكرتنا من ناحية ثانية عصر النهضة الأوروبية.

فهل معنى هذا إذن أن الشرق الأوسط متخلف خمسة قرون عن الغرب، أم أن الغرب متقدم عليه هذا العدد من القرون؟ على أن الفصل في هذا الأمر ليس سهلاً أبداً، وينبغي أن نعود بذاكرتنا أولاً إلى القرون الأولى من العصر المسيحي، حينما كان الشرق الأوسط جزءاً أساسياً من الإمبراطورية الرومانية، ويتمتع في ظلها بجميع ما أضفته الحضارة اليونانية الرومانية على

أجزاء تلك الإمبراطورية سواء بسواء. على أن تفهقر الحضارة، وهو من دلائل ما نسميه سقوط الإمبراطورية الرومانية، كان أخف تأثيراً على الشرق منه على الغرب، ولذا ظلت بيزنطة ترى نفسها صاحبة الحق في المجد الروماني، وكادت أن تؤسس سلطانتها في جميع المقاطعات التي انبسط عليها سلطان روما من قبل. ولكن خيبة جستنيان وما تلاها من تقويض للحكم البيزنطي في المشرق على أيدي العرب، من غير أن يستتبع ذلك تفهقر الثقافة أو الاقتصاد فيه، أدى إلى بزوغ حضارة إسلامية شقت طريقها في عرض أفريقية إلى الأندلس، حيث بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها، على حين كان الغرب في أحلك أيامه، في القرن التاسع والقرن العاشر والقرن الحادي عشر للميلاد. ولو أن عربياً معاصراً لشارلمان أو لألفريد الكبير أو لوليم الفاتح نظر إلى الأوربيين - هذا إذا رأى أنهم خليقون بنظرة إليهم - لأفاهم شعوباً فطرية تجهل فن البناء والنظافة الصحية، وتجهل الطب والفلسفة، وكل شيء يجعل هذه الحياة خليقة باسمها. كان أولئك الأوربيون يسكنون أراضي باردة رطبة قاحلة، ويعيشون عيشة تجعل كل تقدم صحيح مستحيلاً، وتقضي بأن يظل أولئك الأقوام أبداً على مستوى أدنى من المستوى الذي تتمتع به الشعوب التي ورثت نعمة الشمس المشرقة وثقافة المشرق.

أما الآن فانقلبت الآية. فالرجل الغربي هو الذي يزدري اليوم انخفاض المستوى للحياة الشرقية، ويأسف لحال العامل الشرقي، ولما يتناوله من أجر ضئيل، ولما هو فيه من حياة تاعسة. ولكنه يعود فيقول: ماذا تنتظر من بلاد ينذر فيها سقوط الأمطار، وتمحل الأرض فيها امحالاً شديداً؟ أن مثل هذه الأحوال تجعل كل تقدم صحيح مستحيلاً، ثم هي تقضي على الشعوب التي

تسكن تلك البلاد بأن تكون أبداً متأخرة وراء الأمم الراقية الموهوبة التي تتمتع بالجو المعتدل.

ونحن لا نحتاج إلى أن نؤكد الجانب السطحي من هذا المنطق، سواء أكان مبنياً على الجو أو على الخصائص والعادات الموروثة. وليس ثمة من ينكر أثر الجو في الحضارة، وأن مما لا ريب فيه أن الرومان والعرب الأولين أفادوا من مصادر للري جفت الآن، وأدى جفافها إلى محل أراضي كانت من قبل خصبة، لأن وجود خرائب لمدن كبيرة مثل جرش وتدمر في وسط ما نسميه اليوم صحراء، دليل على ما نذهب إليه. ولكن أثر الجو يغفل عن قدرة الإنسان على مقاومة عوامل بيئته، إذ أنه يتجاهل مظاهر كثاراً، مثل تحول الطرق التجارية، والعثور على مصادر جديدة للمواد الخام، وفتح الأسواق الجديدة، واختراع الوسائل الحديثة للإنتاج والنقل. وبكلمة أخرى، لم يكن ثمة عامل دائم في تأخر الغرب في العصور الوسطى، ولا في عظمة الشرق في تلك العصور نفسها. كما أنه ليس ثمة ضرورة تقضي بأن يظل الشرق الحديث متأخراً، أو أن يبقى الغرب عظيماً كما هو اليوم. أن ما كان مرحلة في حياة أحدهما يمكن أن يكون في حياة الآخر أيضاً مرحلة فقط.

ومن الحقائق الثابتة، على كل حال، أن الازدهار العظيم للحضارة العربية تبعه أولاً تفهقر فجائي سريع، ثم تلا ذلك أيضاً قرون من الانعزال والركود الجزئي من النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية، في وقت كان الغرب فيه يمد آفاقه مداً سريعاً لا يكاد يقف عند حد. أما سؤالنا هنا فهو: لماذا حدث ذلك، وكيف حدث؟ والأجوبة عليه من التاريخ لا تزال ضئيلة وغامضة إلى حد يدعو إلى خيبة الأمل.

أما احد هذه الأجوبة فهو بلا شك، أن الحضارة العربية لم تتقهقر فحسب، بل تقوضت على أثر غزوات المغول والفتح العثماني. ومع أن المغول والأتراك اعتنقوا الإسلام، فحرصوا من أجل ذلك على أن يظل عدد من المظاهر الإسلامية نابضاً بالحياة، فإنهم أساءوا فهم الأحوال السياسية والاقتصادية التي قامت عليها الثقافة العربية إساءة تامة. مثال ذلك أنهم أقاموا تقسيمات سياسية خلقت حواجز اقتصادية مصطنعة، فعطلوا بذلك حركة التجارة. ثم أنهم أثقلوا كواهل ورعاياهم بالضرائب الباهظة، حتى أن مدناً بأسرها حل بها الخراب، بعد أن عجزت عن دفع الضرائب. أما احتكار القمح وسواء من الحاجيات فإنه رفع مستوى الأسعار، وترك الشعب في فقر مدقع؛ ثم أن الحروب والدمار والأوبئة لم تنقطع قط.

غير أن هذا كله صحيح في ما يدل عليه فقط، ولكنه لا يكاد يفى في تعليل القضية من جميع نواحيها. وعلى الرغم من بحوث الأستاذ توينبي الرائعة، فإن المشكل المتعلق بالأسباب التي تؤدي إلى تقهقر الدول والحضارات، ثم إلى سقوطها، لا يزال ميداناً بكرّاً ينتظر مؤرخي الغد. ما السبب في أن المجتمعات المختلفة يجري تطورها حسب درجات مختلفة من السرعة؟ لماذا وقف نمو الصين فجأة بعد قرون عديدة من التقدم؟ لماذا استطاعت اليابان أن ترقى بمثل هذه السرعة بعد قرون كثيرة من التأخر الاقتصادي، وكيف تم لها ذلك؟ ما الأسباب الحقيقية لتقهقر الرومان، ولانتكاس أوروبا في عصورها المظلمة؟ أفيجب علينا أن نفسح في هذا كله مجالاً لعنصر الاتفاق، على ما يرى هنري بار في كتابه الذي عنوانه التأليف في التاريخ، كما نفسح مجالاً لعنصر الشخصية الإنسانية التي تقتحم المناسبات ثم تحول مجراها بتلك القوة الخفية التي هي قوة الفرد ذي الفطرة الفاتقة؟

أما الآن فيجب علينا أن نعود أدرجنا قليلاً إلى النقطة الأساسية، أي إلى الشبه بين المظاهر الرئيسية للحياة الاجتماعية والاقتصادية العربية وبين المظاهر التي وضحت في العصور الوسطى في الغرب الأوربي. ما الخصائص التي كانت لحضارتنا نحن في العصور الوسطى؟ أن أولى الخصائص الأوربية بلا ريب هو تمازج المجتمع الديني بالمجتمع المدني إلى حد كان يصعب فيه تمييز أحدهما من الآخر. ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية أشرفت وقتذاك على جميع ميادين الحياة التي تشرف اليوم عليها الدولة: المستشفيات، والإسعاف، والتعليم، واستقبال المسافرين. أما المحاكم الكنسية، فكانت تفصل في الزواج والوصية والإرث والربا، والزندقة. وكان الانتماء إلى الكنيسة أمراً لا مفر منه من يوم الولادة؛ ثم إن الحرمان من الكنيسة كان موتاً معنوياً، إن لم نقل موتاً طبيعياً. بعبارة أخرى لم يعرف الناس في العصور الوسطى (في الغرب) شيئاً من المدرك المدني للمجتمع.

إن هذا الوصف يمكن أن ينطبق انطباقاً كلياً على الأحوال الحاضرة في العالم العربي، إذ الفرد في العالم العربي اليوم جزء غير منفصل سياسياً واجتماعياً من الجماعة الدينية التي ولد فيها. ثم أن لكل مذهب مثلاً تشريعه الخاص بالطلاق، والإرث، وسائر الأحوال الشخصية. والدولة تعترف بهذه الأنواع من التشريع، وتقرها في محاكمها إذا دعت إلى ذلك ضرورة<sup>(٣٨)</sup>. وكذلك الانتخاب في العالم العربي يجري على الأسس الطائفية، والنواب

---

(٣٨) تقدم إلينا مرة اقتراح بأن الحل الوحيد لمشكلة الطلاق، والذي يمكن أن ينال رضا الناس هو أن يتقيد الزوجان بقوانين الكنيسة (أي المذهب الديني) التي عقدت زواجهما. على أن ما يبدو فكرة مثالية في هذا الاقتراح هو القاعدة المتبعة في العالم العربي.

عموماً موزعون بالنسبة إلى القوة العددية للطوائف<sup>(٣٩)</sup>، وكل إنسان يذهب إلى الاقتراع على أنه فرد من طائفة معينة.

ومراكز الدولة أيضاً موزعة بين الطوائف بنسبة عددها، بصرف النظر عن الكفاءات التي يتمتع بها أصحابها. والأديرة لا تزال تستقبل المسافرين، وجميع المدارس تخص عملياً هذه الطائفة أو تلك، حتى إن إشراف الحكومة على المدارس التي تسمى مؤسسات رسمية يبلغ حداً لا يحلم به أشد المتعصبين في الغرب<sup>(٤٠)</sup>. فلو أن رجلاً كاثوليكياً من أهل العصور الوسطى بعث اليوم في العالم العربي، لألف الحياة في مجتمعاته ألفة تامة. وفي الحق، أن الإسلام كما يذكر الأستاذ جب في كتابه الذي عنوانه إلى أين يتطور الإسلام؟، مجتمع متكامل مبني على أساس ديني يشمل جميع مظاهر الحياة الإنسانية، وأن الذين عاشوا في العصور الوسطى كان بإمكانهم أن يفهموا ذلك، بل فهموه فهماً تاماً، وها نحن أولاء اليوم نعالج مجتمعاً لا يزال قلبه ينبض بهذه المدارك الموروثة من العصور الوسطى. ومن هذه المدارك أن الانشقاق بين الإسلام والنصرانية كان في العصور الوسطى أقل كثيراً مما صار إليه فيما بعد، فمن أسباب ذلك أن المجتمعين كليهما كانا يقومان على أسس تكاد تكون واحدة، والآراء السائدة كانت تتجه تقريباً اتجاهاً واحداً. ولقد كان لهما كليهما، وإلى حد بعيد أيضاً، استشراف إلهي واحد لهذا العالم. أجل ربما كانا عدوين، ولكن كل واحد منهما عرف على الأقل خصمه، وكانا كلاهما يتحاربان بوسائل روحية ومادية واحدة. ثم أن الأستاذ جب يخطو

---

(٣٩) يقدم الكاتب على ذلك مثلاً نواب بيروت وتوزيعهم الطائفي، ولكن هذا التوزيع تبدل الآن.

(٤٠) هذه الأحكام ربما تصادق على الجمهورية اللبنانية وحدها.

بمناقشته هذه خطوة واسعة حينما ينبه على أن الإسلام انتشر من قلب جزيرة العرب إلى العالم الهلنستي وارث الحضارة اليونانية والرومانية، وأن معظم فتوحاته كانت في ذلك العالم. وهكذا تسربت الثقافة اليونانية إلى الحياة العقلية في الإسلام شيئاً فشيئاً، حتى أن علم الإلهيات فيه مدين لأرسطو. وهكذا نشأت جميع الثقافة الإسلامية في أساسها غربية المنزع، وهي من أجل ذلك أقرب إلينا من ثقافات الهند والشرق الأقصى. وإذا نحن سمينها شرقية فإنما نكون أخطأنا التسمية، لأنها ليست شرقية بإطلاق، ولكنها شرقية في امتدادها المحلي، أي أنها الفرع الشرقي للحضارة الغربية.

أما ما سبق قوله في الصلة بين الفرد والكنيسة، فليس في الحقيقة إلا مظهراً واحداً من مشكلة أوسع نطاقاً، وهي صلة الفرد بالمجتمع عموماً. وفي الحق أنه من الصعب أن تتكلم عن الفرد في العصور الوسطى، فإن الإنسان في تلك العصور لم يوجد إلا مضافاً إلى جماعة صغيرة: من أقطاع، أو نقابة، أو كهنوت، أي من جماعة تملّي عليه حياته اليومية، وتكون له مرة سجنًا ومرة ملجأ. وهذا نفسه يصدق على الفرد العربي (اليوم)، إلا أن جماعته يغلب عليها أن تكون اجتماعية لا اقتصادية، وهي القرية حيناً والأسرة دائماً. هنالك مثلاً التملك للعقار باسم الأسرة، وهنالك الاتفاق بين الأسرة على زواج الأفراد منها، وهنالك الحياة الجماعية للأسرة في منزل واحد، وهنالك رقابة الأسرة على الفتاه، وهنالك نفوذ الأسرة في السياسة، وفي كل ما يتصل بالسير في طريق الحياة في هذا العالم. وليس ثمة مدرج من مدارج الحياة يستطيع الفرد العربي أن ينفلت فيه مما هو معروف باسم تضامن الأسرة، وهو أحد العوامل التي تشل الحياة الشرقية.

وهنالك، بكل تأكيد، جانب آخر لهذا التضامن في الأسرة. فإذا كانت الأسرة الشرقية اليوم - كما كانت الجماعة في العصور الوسطى - سجنًا فإنها تكون وسيلة من وسائل الغوث في أيام العسف الاجتماعي، أو أيام الضيق الاقتصادي. والواقع أن الأسرة تجتريح المعجزات في ميدان الوفاء والتضحية، فترسل الشاب النابه (الفقير) من أفرادها إلى الجامعات، أو تدفع عنه أسوأ كوارث البطالة والمرض. والتضامن في الأسرة هو أحد العوامل التي تتيح للعمال أن يعيشوا في مجتمع اقتصادي عيشة طيبة، ولو كان ذلك المجتمع لا يزال في دور التطور. ويندر جداً أن يترك فرد في مثل المجتمع في الشرق يصارع الحياة وحده، وفي هذه الحقيقة يجب أن نبحت عن سبب المقاومة التي يبديها كل شعب إذا أطلته الأزمات، وفي ذلك الشعور من الاعتراز بالأسرة والتضامن فيها يكمن العلاج الرئيسي لكل قنوط<sup>(٤١)</sup>.

وفي التعليم أيضاً لا نرى أن الشرق الأوسط تقدم إلى ما فوق الطور الذي بلغه الغرب في العصور الوسطى. أن التعليم الذي قامت عليه الكنيسة في تلك العصور جعل غايته تخريج القسس، وإعداد طبقة محدودة من الموظفين. أما التعليم العام فلم يكن من الناحية العلمية موجوداً، ولذا كان المرء في العصور الوسطى إما أمياً تماماً. أو ملماً بمبادئ من التعليم الذي لا بأس به. وهذا نفسه يصدق اليوم على بعض مناطق العالم العربي، بل يصدق على كثير منها لسوء الحظ. هنالك عدد كبير من المدارس الثانوية. ويقدر ما تستطيع البلاد أن تتحمل على الأرجح، لإمداد البلاد بالأطباء والمحامين

---

(٤١) من تقرير رفعه المندوب السامي الفرنسي في سورية ولبنان، عام ١٩٣٤ إلى لجنة الانتداب.

والموظفين الرسميين. على أن العالم العربي ينقصه الرجال الفنيون والصناع البارعون، أما الأمية فإنها واسعة الانتشار، ونسبتها تختلف ما بين ٤٠% وبين ٩٥% باختلاف البلاد، وباختلاف الجنس ما بين ذكور وإناث.

غير أنه أتيح لنا - في ما يتعلق بذلك - أن نصحح ظن كثيرين من الغربيين. أننا نحن الغربيين نفهم الأمية على أنها مستوى من الجهل قريب من العجز العقلي، وهذا يصدق على عدد من الأميين في الغرب، ولكنه لا يصدق على البلاد التي تكون الأمية فيها نتيجة لفقدان الفرصة المتاحة أمام الناس لتحصيل العلم. ولو أن أحداً قضى وقتاً قصيراً في مجتمع تنتشر فيه الأمية انتشاراً لا يرجع إلى تقصير السكان أنفسهم، لرأى بعينه إلى أي حد تستطيع الحياة والاحتكاك بالرجال وبالحوادث أن يعلموا بلا كتب، وهذا إذا كان الذكاء الفطري والرغبة في العلم موجودين. ومن الحق أن نقول أن احداً ليعجب إذا لم ير - في مثل هذه الحال - عدداً من الأميين يبلغون من المقدرة على التفكير الشخصي أكبر من المقدرة التي يبلغ إليها أولئك الذين يحتاجون إلى ورقة مكتوبة ترسم لهم فيها كيف يجب أن يفكروا، لا في السياسة فحسب، بل في الفن أيضاً، وفي الأدب، وفي الفلسفة، وفي الدين. وكذلك لا يجوز أن ننسى أهمية الكتب في مجتمع تغلب فيه الأمية. لأن الكتب في مثل هذا المجتمع لا تقدر حق قدرها فقط، بل تدور أيضاً بين الناس، ثم تصبح شبه مراكز يجذب إليها القراء والسامعون. وفي مثل هذا المجتمع يصبح الفرد الذي يعرف القراءة ناشراً للآراء وللتسلية، ومن المشاهد المألوفة في الشرق الأوسط جماعات من الناس يصغون في ساحات المقاهي إلى شخص يقرأ لهم بصوت مرتفع. ولقد كان قرب بيتنا فران يقرأ لجيرانه قصصاً تاريخية.

وينبغي أن نذكر هنا أن تغييرات كبيرة، لا تقل في ناحيتها الثقافية عنها في ناحيتها السياسية، حدثت عندنا في غرب أوروبا أثناء انتشار الأمية؟ ما عدد الذين كانوا يقرؤون ويكتبون في أوروبا أيام الإصلاح الديني، أو زمن الحروب الأهلية في إنجلترا، أو قبيل الثورة الكبرى في فرنسا؟ أجل، إنه ليس لدينا إحصاءات لذلك في تلك الأعصر، ولكننا نعلم يقيناً أن الأميين في فرنسا في عام ١٨٣٠ كانوا ثلاثة أضعاف السكان، أما في إنجلترا فكان عدد الأميين في عام ١٨٤٠ خمسي السكان، أي ثلث الرجال ونصف النساء. ونحن آخر من يبخس الكتب والجرائد والمدارس قيمتها، ولكن يجب ألا نمزج بين التعليم الصحيح وبين قراءة الكتب أو الشهادات الجامعية.

ثم هنالك مقارنات أشد غرابة تبدو لنا، إذا نحن انتقلنا من ميدان الاجتماع إلى ميدان الاقتصاد. ما الخاصة الأساسية التي كانت للحياة الاقتصادية في العصور الوسطى؟ إنها الفقر بلا ريب! ولكن هذا لا يصدق على العصور الوسطى وحدها. ومثال ذلك أن المؤرخين وصفوا الفساد الذي نتج من الترف والثروة في العالم القديم، ولكن الأستاذ فرارو استرعى انتباهنا في كتابه تاريخ روما بقوله أن مستوى المعيشة كان في العصور القديمة منخفضاً جداً. أن قصور القدماء كانت في الحقيقة أبنية بسيطة قليلة النور، ولا نعرف التدفئة إلا نادراً. أما مادهم فترجع شهرتها إلى ما كانت تضم من كثرة الطعام، لا نوعه الفاخر. ثم أن القيود التي فرضها أجسطوس على النفقات المتعلقة بالثياب والغذاء تدل على أن الرومانيين لم يكونوا يملكون أموالاً ينفقونها في تلك الوجوه وعلى هذا القياس بالعصور القديمة لا يمكن أن يكون الترف في العصور الوسطى شيئاً مذكوراً، كما تدلنا الإحصاءات التي

بقيت لنا من ذلك العصر. ذلك أن مجموع الصادرات التي كانت تشحن من مرفأ أوربي في العصور الوسطى خلال عام كامل لم تكن تملأ باخرة من بواخر اليوم، بل أن متجراً صغيراً من متاجرنا اليوم يحتوي من الأفاويه على مقدار كان يكفي أوروبا كلها أشهراً كثيرة. وتطالعنا أحياناً أخبار جلابين أرسلهم التجار من ألمانيا إلى البندقية، ليشتروا ستة عشر كيساً من القطن، وأما نفاذ بضعة مائة قطعة من النسيج في عام من الأعوام فكان يدل على حسن الأحوال التجارية في ذلك العام. ولنضرب على ذلك أمثالاً من الأرقام التالية: في عام ١٣٤٥م بلغت تجارة الصوف في إنجلترا ٣٢٩٦٣ كيساً: ثمن الكيس منها ست ليرات إنجليزية، يضاف إليها نحو ١٣,٠٠٠ قطعة من النسيج ثلثها فقط من نوع فاخر حقاً، وثلثها لا يصل إلى مائتي ألف ليرة إنجليزية. وكان في مدينة ريفال، إحدى مدن الهنسا، ١٩٨ تاجراً يملكون في عام ١٣٦٨م اثني عشر مركباً. أما لوبك، وهي من أشهر مرفأ العالم، فقد أرسى فيها ذلك العام نفسه ٤٣٠ مركباً، وأقلع منها ٨٧٠ مركباً، أي أن الحركة في ذلك المرفأ لم تصل إلى أربعة مراكب في اليوم، ما بين ذاهب وقادم. ثم أن كولشستر، وهي مركز من المراكز الرئيسية لصناعة النسيج في إنجلترا، كان يسكنها عام ١٣٠٠م نحو ألفي شخص، لا يتجاوز عدد الأغنياء الكبار منهم عشرة. وفي مدينة ردنغ في إنجلترا كذلك كان ثمانية رجال فقط يستطيعون أن يتسلحوا من مالهم الخاص. ثم أن ضآلة الأجور وانخفاض الأثمان على وجه العموم يدلانا على مستوى المعيشة يومذاك، بل تعين على الذين يتطلبون الترف الحقيقي في صدر العصور الوسطى أن يذهبوا إلى القسطنطينية، أو إلى بغداد.

أما اليوم فإن الفقر، بل الفقر المدقع، هو الصفة الغالبة في الحياة في

بعض البلاد الشرقية. وهو مستوى من الفقر الذي لا يستطيع أحد أن يعتقد بوجوده حتى يرى آثاره بعينه، لا في أيام الأزمات فقط، بل على أنه الأساس الثابت للحياة؛ وهذا يصدق على المدن وعلى القرى سواء بسواء. ويصحب هذا الفقر انخفاض كبير في الأسعار، وهذا صحيح، ولكنه لا يتناول جميع الحاجيات، فبينما نجد الخضر والفاكهة رخيصة لا يكون الخبز غير رخيص، وكذلك اللحم. أما أجور العمال والصناع فمتدنية بصورة مخيفة. ثم أننا لا نجد تشغيل الأحداث شائعاً فقط، وبأجور ضئيلة، بل أن الأجور التي يتناولها البالغون أنفسهم أيضاً لا تكاد تسد الحاجات الأساسية للأسرة. وهناك بلا ريب أشخاص من ذوي اليسار في الشرق، ولكن الشرق بلد فقير، إذا نظرنا في أساس موضوعنا، لأن ثرواته الطبيعية قليلة، وإذا نحن استثنينا البترول، فإن الطلب على هذه الثروات في الخارج ليس كبيراً. ثم أن النظام الذي يقوم عليه التملك والإنتاج - وهو من بقايا العصور القديمة - يجعل الحاصلات الطبيعية أقل كثيراً مما لو كانت وسائل الاستغلال تقوم على أسس صحيحة. أما نشاط السكان، فلا يمكن أن يقوم مقام التمرين الفني المفقود، ولا أن يتلافى النقص الكائن في وسائل الإنتاج.

إن أحوال الإنتاج في الشرق الأوسط اليوم تشبه تماماً ما كان عليه النظام الاقتصادي في أوروبا العصور الوسطى: هنالك عدد كبير من المؤسسات الصناعية الصغيرة التي هي من الناحية العملية بلا رأس مال، وهذه يديرها كلها أحياناً أفراد أسرة واحدة، هم أصحابها وهم رؤساء الإنتاج فيها، وهم الباعة بالفرق لمنتجاتها، والمستهلك في هذه الأحوال متصل اتصالاً مباشراً بمنتج المصنوعات. ثم أن الصناعات محشورة في مناطق معينة، أو في شوارع

بعينها، ووسائل الدعاية قليلة، أو مفقودة. وكذلك ليس ثمة إنتاج موحد، بينما مدة العمل طويلة، وهي تعتمد على ضوء النهار في الأكثر. ولا يكاد المرء يتبين حداً فاصلاً بين المستخدم (بكسر الدال) وبين المستخدم (بفتح الدال). كل هذه الخصائص تصدق اليوم على كثير من بلاد الشرق، كما كانت تصدق على العالم الأوربي في العصور الوسطى.

على أن الموازنة الحقيقية لا تكون بالإضافة إلى العصور الوسطى، بقدر ما هي بالإضافة إلى طلائع ما نسميه الثورة الصناعية، أو بالإضافة إلى صدر عصر الآلة. ذلك أن النقابات القديمة في العصور الوسطى حالت بين صاحب العمل وبين استغلال العامل بزيادة ساعات عمله، أو بينه وبين استغلال المستهلك من طريق البضائع المغشوشة والأسعار الباهظة. وقامت تلك النقابات في الماضي مقام اتحادات التجارة والصناعة في يومنا هذا، واحتلت مكان التشريع الاجتماعي. ولكن قبيل انتهاء القرن الثامن عشر بادت تلك النقابات، أو انحلت على كل حال، ثم أخذت أنظمتها تترك مكانها لنظرية المنافسة الحرة، قبل أن توضع قوانين تأخذ مكان هذه الأنظمة كلها. ويجب أن نذكر أن إنجلترا ترددت كثيراً قبل أن تشرع قوانين تحمي الأطفال من مساوئ المنافسة المطلقة. هذا هو الطور الذي وصل إليه الشرق الأوسط اليوم، والذي يقف فيه العامل أعزل في وجه المنافسة، وفي وجه التقدم الصناعي ففي بعض البلاد الشرقية ليس ثمة قانون يضع حداً لساعات العمل للبالغين، ولا قانون للتعويض يحمي العمال من أخطار العمل، مهما كان العامل يقظاً حذراً. وكذلك ليس ثمة تأمين يساعد العمال أثناء مرضهم أو بطالتهم، ولا أنظمة تضمن للعمال أحوالاً صحية مواتية في مؤسسات العمل.

ثم أن المحاولات الضعيفة لحماية الأطفال والنساء في بعض البلاد الشرقية تذكرنا بالقوانين الأوربية الأولى التي وضعت لمصلحة العمال المبتدئين، بما فيها من نكوص عن التطبيق، لقلّة الرقابة. ولقد نجد هنا وهناك صناعة سعيدة، أو تجارة أخذت تضع لنفسها أصولاً بدائية فطرية لاتحادات تجارية أو صناعية. أما الإضرابات فليست مجهولة كل الجهل في الشرق، غير أن كره الفرنسيين<sup>(٤٢)</sup> للجمعيات - مثل فرعنا نحن قديماً من التكتلات - جعل هذه الجهود في سبيل حماية العمال وتحسين أحوالهم مضنية وبطيئة جداً. ثم أن العمال أنفسهم لا يزالون متأخرين اقتصادياً إلى حد يمنعهم من أن يروا موضع الحاجة إلى عمل موحد، وخصوصاً في سبيل حماية مصالحهم المتبادلة. والعمال واصلون إلى ذلك بلا ريب، ولكن لا يزال ثمة أرقال<sup>(٤٣)</sup> كثير أمام العمال الشرقيين، وأمام قادتهم أيضاً. غير أننا يجب ألا ننسى الجانب الآخر من الصورة أبداً، أعني المعونة التي يحققها تضامن الأسرة وقوة التقاليد، مثل عاطفة الضيافة التي تمنع طرد المستأجر إذا لم يدفع إيجار مسكنه. ولكن بما أن المقارنة بين الشرق الأوسط الحديث وبين العصور الوسطى الأوربية لا تصدق من كل نواحيها، فإنها لا تصدق بين الشرق الأوسط اليوم وبين طلائع عصر الثورة الصناعية في كل شيء. ولقد اتفق للشرق الأوسط أن يبلغ في بعض مرافق الحياة طوراً متقدماً، فمجيء السيارة مثلاً قضى على نظام المقايضة، وعلى أسباب الحياة المبنية على النقل بواسطة الدواب. وكذلك لم يبق بإمكان القرية، ولا بإمكان المدينة الصغيرة،

---

(٤٢) كتب هذا المقال قبل أن جلا الفرنسيون عن سورية ولبنان.

(٤٣) الأرقال السير صعوداً.

أن تضع حداً لأفق الزراع أو لنشاطه، مع أنه لا يزال ثمة أماكن قليلة لا تربطها بالمدن سيارات كبيرة أو سيارات صغيرة على الأقل. وهكذا أصبحنا نجد أنفسنا في الشرق الأوسط أمام ثورة أخذنا نشعر بطلائع آثارها.

لنأخذ مثلاً على ذلك مدينة حماة، وهي مدينة صغيرة في شمال سورية. كانت حماة قبيل الحرب العالمية الثانية تعيش - هي والقرى المحيطة بها - عيشة اقتصادية من نوع ما. فالبن والحديد كانت حماة تستوردهما من الخارج، ولكنها كانت تصنع شيئاً من نسيج القطن، تبيعه في البادية المتاخمة لها. أما فيما عدا ذلك فكل أسرة كانت تبتب طعامها، وتنسج ثيابها من صوف خرافها، وتنحت أدواتها لنفسها من الخشب في الأكثر، ولا تشتري من غيرها إلا بمقدار ما تبيع لغيرها، وكل ذلك قليل جداً. أما معاملاتها المالية الضئيلة على كل حال، فاقترنت على منطقة حماة، ولكننا نجد اليوم فيها المصنوعات اليابانية من القطن، ومن الحرير الصناعي، ونجد الأغذية المحفوظة في العلب ترد إليها من الولايات المتحدة. ثم نجد الأواني الصينية المستوردة من تشيكوسلوفاكيا، وسواها من البضائع الموحدة الصنع. أما الذي لا نجده في حماة، فإننا واجدوه في حلب. وأما الصناع المحليون، فإنهم لا يكادون يجدون منفذاً لبضائعهم، بينما ترى الناس من كل صوب يطالبون المزيد من المال، فيفدون إلى المدن ليحصلوا عليه. ويتضح من هذه العبارات أن الصناعة والتجارة في حماة مقضي عليها بالبوار، بسبب ذلك التطور.

أن المثل الذي قدمناه يدل على وجود جذور عميقة لعوامل التطور بجانب العناصر الراكدة في الحياة الشرقية، مما يوجد عادة في جميع المجتمعات في جميع الأزمان، مع العلم بأن هذه الجذور تكون عادة أعمق

وأنشط في أدوار معينة دون أخرى، وأن هذه الأدوار المعينة بلغها الشرق الأوسط بلا ريب. وهكذا تكون الصورة التي رسمناها مضللة، لو اعتبرت بنفسها فقط، كما أنها تكون مضللة أيضاً لو جعلناها صورة للعصور الوسطى. الواقع أن عوامل التطور واضحة في الحياة الاقتصادية في الشرق الأوسط، وهي أشد وضوحاً في عالم التفكير. والشرق الأوسط الآن في حال من التخمر يمكننا أن نلخص الكلام عليها بالرجوع مرة ثانية إلى الاستشهاد بالأستاذ جب حيث، يقول: "إذا نحن قبلنا أن المجتمع الإنساني لا يزال على تكوينه الذي كان له في العصور الوسطى، فإننا نرى أن تسرب الآراء إليه أثار في العالم الإسلامي كله حالاً من القلق والتوتر النفسي تسترعى انتباهنا بلا إرادة منا، وتذكرنا بالأزمة التي مرت فيها أوروبا في عصر النهضة وعصر الإصلاح الديني<sup>(٤٤)</sup>"، غير أن التوسع في هذه الناحية الجديدة للقضية يحملنا إلى خارج النطاق المحدود لهذا المقال، ولكننا نشير هنا فقط إلى أن ما ذكرناه آنفاً إنما هو مثال آخر للموازنة بين الشرق والغرب، وأنه إنذار للباحثين يجب أن يحول بينهم وبين أن يتخيلوا الحضارات متحاجة، تتصف كل واحدة منها بصفات تخصها وحدها، بدلاً من أن نعترف لهذه الحضارات بأوجه شبه متقاربة جداً في تطور كل واحدة منها.

والأوجاع المتزايدة في بلاد الشرق الأوسط تجعلنا نذكر أوجاع أوروبا الغربية في عصور ماضية، حتى أن المؤرخ ليستطيع أن يتبين الدلائل العظيمة الأهمية على الطريق الذي سلكته الحوادث في أثناء الأدوار العظيمة للتطور

---

(٤٤) أنظر جب: إلى أين يتطور الإسلام (Whither Islam?)، ص ٢٠.

في الغرب. وها نحن أولاء نستطيع أن نرى كم كانت أدوار التطور المختلفة تتجاوز أو تتراكم، فالكتب المدرسية تخبرنا واثقة أن الآلة التي تدور بالماء أخذت مكان النول الذي كان يدار باليد، وأن قوة البخار حلت بدورها محل الماء، كما أن العربة انهزمت أمام القاطرة، وأن المركب الشراعي انهزم أمام الباخرة. ويخيل للقارئ كأن الكتب المدرسية تعني أن حلول بعض هذه الوسائل مكان بعضها الآخر تم بين عام وعام. على أن النقد والتدقيق في البحث الحديث، فيما يتعلق بحلول بعض هذه الوسائل مكان بعض حلولاً تاماً، تؤيده الحال الراهنة في الشرق الأوسط، إذ يربنا إلى أي حد يمكن أن يكون استبدال وسيلة مكان أخرى بطيئاً، كما يدلنا على كثرة الذين يظنون أوفياء لطرق الحياة القديمة، وكيف أن أكثر الأدوات بداءة وفطرية يمكن أن تعيش جنباً إلى جنب مع آخر ما وصلت إليه الآلات الحديثة من التحسين. فالجمال والسيارات يمكن أن تشاهد في شوارع بيروت، والطائرات تحلق فوق السفن الشراعية التي لا تزال على أشكالها وأحجامها التي كانت عليها في العصور الوسطى، والتي تنقل بين مدن الشاطئ أعظم الوسقات النقال التي لا يخشى عليها التلف. وكذلك الكهرباء تنير اليوم في الشرق الأوسط دكاكين تدار فيها أنوال النسيج باليد، بينما المعامل المتوسطة الحجم تنافس هذه الدكاكين، فتخلق طبقة من الكادحين في المدن ذات طابع غربي واضح. ونحن نرى أيضاً في الحقول آلات الحرث الحديثة، بجانب الأدوات الخشبية التي ورثناها من عهد عاد. وإذا كنا نحن نستغرب هذه المتناقضات في الشرق الأوسط اليوم، فيجب أن نذكر أنه في عام ١٨٣٣ لم يكن في إنجلترا آلات نسيج يدار بعضها بالماء وبعضها الآخر بالكهرباء، بل كان فيها ألوف من

الأنوال تدار باليد، وعليها عمال لا يكسب أحدهما في الساعة إلا بنسباً واحداً. ويجب أن نذكر أيضاً أن معامل باريس التي كانت في عام ١٨٤٠ يستخدم كل واحد منها مائة عامل كانت قليلة جداً. ثم أن نصف معامل باريس في عام ١٨٧٠ كانت مؤسسات يملك كل واحدة منها شخص واحد. وكذلك بينما تطورت وسائل النقل في العالم، كانت العربات التي تجرها الخيول لا تزال الزي الشائع في سويسرا، وظلت هذه هي القاعدة المتبعة حتى نحو عشرين سنة خلت. وحتى عام ١٩٠٢ ظلت فرنسا تبني سفناً شراعية من الحديد، وفضلاً عن هذا كله فإن أكثرنا لم يتفق له أن سافر في الطائرة بعد.

وهناك ناحية ثانية يمكن أن نستفيد منها من تاريخ الشرق الأوسط، وهي أن ثمة عدداً من الأدوار في حياة الأمم يمكن تخطيطها كلها. فالانتقال في السكك الحديدية دام في أوروبا مدة تبلغ قرناً كاملاً أو تزيد، بينما هو لم يدم في الشرق الأوسط إلا جزءاً يسيراً من هذه المدة. فبعد أن قضى الشرق الأوسط سنوات عديدة يستعمل لنقله وانتقاله سككاً حديدية غير وافية بالحاجة<sup>(٤٥)</sup>، إذا به الآن لا يبني سككاً حديدية، بل طرقاً واسعة للسيارات، بينما السكك الحديدية أصبحت قاصرة على قطع المسافات الطويلة جداً، وعلى نقل البضائع الثقيلة. ومنذ نحو خمس وعشرين سنة أو نحوها لم يكن يقطع الصحراء إلا قوافل الجمال، ثم جاءت السيارات والطائرات وهي الآن

---

(٤٥) بيروت أكبر مرافئ بلاد الشام، وهي تتصل بخط حديدي ضيق يبلغ طوله ثمانين ميلاً، ويقطعه القطار في مدة بين ثمان ساعات وعشر ساعات. أما السيارات فتحتاج إلى ثلث هذا الوقت، لتقطع هذه المسافة نفسها، وأهل بيروت يفضلون الانتقال بالسيارات.

تنافس الجمل في صحرائه. وهنا يمكننا أن نقول أن الرواد فقط هم الذين يمرون في جميع أدوار النهضات المختلفة، ويرتكبون جميع الأخطاء، وأما الذين يأتون بعدهم، فإنهم يستطيعون أحياناً أن يتجنبوا عدداً من هذه الأخطاء. فألمانيا مثلاً تأخرت عن إنجلترا في دخول ميدان الصناعة، ولكنها تجنبت كثيراً من المخازي التي رافقت توسع المدن في إنجلترا. ولم يتبع بناء البيوت العمالية في ألمانيا قاعدة البيوت الملوذزة<sup>(٤٦)</sup> التي هي سبة المدن الشمالية في إنجلترا. ثم أن فرنسا وألمانيا تقدمتا على إنجلترا في ميدان التعليم الابتدائي، بفضل ما تجنبتنا من الشرور التي تنشأ عادة إذا ظل الجمهور الغالب غير متعلم.

غير أن المطابقة بين التطور في الشرق الأوسط وبين شبيهه في الغرب لا يمكن أن تستمر بلا نهاية، لأن لكل منهما أدواره وقضاياه. على أن قضية المياه تستأثر باهتمام الشرق أكثر مما تستأثر به قضية السكني والتدفئة، الشرقي معرض للأمراض الغربية، فإنه أشد تعرضاً لحمى الربع وللزحار<sup>(٤٧)</sup> خاصة، وهما المرضان اللذان يغفل المؤرخ الأوربي حسابهما في عوامل التاريخ في الشرق الأوسط. ثم أن الصحراء، وما تعنيه من تمييز جامد ثابت بين الأرض القابلة للسكني والأرض التي لا تقبل السكني، هي التي تجعل العقل الشرقي أكثر استعداداً لقبول الأمر المحتوم، وللانحناء أمام الضرورات، ثم تجعله من أجل ذلك أقل ثقة بالعمل الفردي، وبقدرة الإنسان على تبديل البيئة الإنسانية - ولعل ذلك هو الفرق البارز بين الشرق والغرب.

---

(٤٦) البيوت اللوززة هي التي تبنى لصيقة بعضها إلى بعض، دون فضاء يفصل بينهما.

(٤٧) حمى الربع هي الملاريا، والزحار هو الديدسنتاريا.

كل هذه دروس هامة، ولكن الدرس الأخير أهمها بلا ريب. وأنا أرجو  
ألا أكون بهذه الدروس صرت على فهم لأدوار تاريخ الغرب والشرق فقط،  
ولكني تعلمت على ما أظن معنى جديداً للزمن في التاريخ. ومع أن تدريسي  
للتاريخ لم يكن يتناول ما قبل عهد الإصلاح الديني، أو الفتح النورماني  
لإنجلترا على أبعد تقدير، كان لي اتصال مستمر ببقايا الحضارة القديمة التي  
يبدو التاريخ الأوروبي أمامها طفلاً صغيراً. وهذا هو الذي يجعل الإنسان حذراً  
أبداً من أن يكون قصير النظر في التاريخ. كنت مرة في نينوي، فشهدت  
الكشف عن هيكل عظمي مدفون في التراب بلا تابوت، وكان تاريخ دفنه  
يعود إلى نحو أربعة آلاف عام، أي أن ضربة معول واحدة حملتني إلى ما قبل  
ثلاثة آلاف عام من الفتح النورماني المشهور في أصول التاريخ الإنجليزي؛  
وبذا تكشفت لي ناحية من مسير الزمن تركت في خيالي أثراً لا يمحي. وعلى  
الطرف الآخر من الزمن يزورني صديق لي طبيب، فيخبرني بأن الإنسان لم يتح  
له بعد أن يتعود نهائياً أن يمشي مستقيماً على رجلين اثنين، وهكذا نجد أن  
عظام قديمة وعموده الفقري، وهي التي جعلت في الأصل لتحمل جسماً  
يعتمد على أربع دعائم، لم تكتسب بعد القوة الكافية لتقييم جسداً منتصب  
القامة. من أجل ذلك لا يزال عند معظمنا شيء من الانحراف أو الضعف في  
العنق، أو في القدمين، أو في كعوب القدمين. وهكذا إذا بدت الإنسانية في  
يوم ما شائخة جداً، ثم بدت في يوم آخر فتية جداً، فإننا نرجو ألا ينظر في  
المستقبل إلى أخطائنا إلا على أنها من طيش الشباب، ونحن في كل من  
الحالين على يقين بأننا لسنا الشعب المسئول عن ذلك، وبأن الحكمة لن  
تموت على أيدينا.

وأخيراً يمكنني أن أجمل هذه الملحوظات المتفرقة. فأقول أنني رجل أوروبي غربي حديث، تعلمت درساً مزدوجاً وجهه الأول هو النظر إلى التاريخ من زاوية جديدة، وأما وجهه الآخر فهو التواضع. أنه لمن الحمق أن ينكر أحدنا وجود فوارق بين مدنات الشرق والغرب في وقتنا الحاضر، ولكن يبدو أن التاريخ والاختبار الإنساني يعلماننا أن هذه الفوارق ليست أساسية، ولا هي ثابتة مثل الخصائص الموروثة التي لا يمكن اجتثاثها من أصولها. وسواء أكانت هذه الفوارق طبيعية أو فكرية أو روحية. فهي فوارق تمثل في أساسها مراحل مختلفة ودرجات متفاوتات في سرعة تقدمنا. على أن هنالك مواضع تناقض واختلاف في عالمنا المسكين، ونحن لا نحتاج إلى أن نخترق هذه اختلافاً، ولا أن نؤكد جانبها حيث تكون طفيفة أو عارضة. أن الشرق سيبقى شرقاً، وأن الغرب سيظل غرباً - مع أن هذه الفكرة لا تزال تنتظر من يقوم في الأعصر المقبلة ليقيم الدليل عليها. ولكن من المؤكد أنهما يقتربان شيئاً فشيئاً، وأن من المحتوم أن يستمر اقترابهما يوماً بعد يوم، ليلتقيا في ما يمكن أن يكون، وما نرجوه نحن أن يكون، عالماً من التعاون السعيد المثمر، لا سيد فيه ولا مسود، ولكن شركاء أسوياء يتمتعون بثروات ماضيهم وحاضرهم، ويشتركون في ما يقدمون للحضارة المقبلة.

## قائمة ببعض المؤلفات الأمريكية الخاصة بالشرق الأوسط

### Select bibliography of general books on the Middle East By American Writers

1. H.R.P. Dickson: *The Arab of the Desert*. New York, 1949.
2. Carleton S. Coon: *Caravan: the Story of the Middle East*, New York, 1951.
3. Richard N. Frye: (ed.), *The Near East and the Great Powers*. Cambridge, Mass, 1951.
4. Philip K. Hitti: *History of the Arabs*. Fifth edition, New York, 1951.
5. Halford L. Hoskins: *British Routes to India*. New York, 1928.
6. Philip W. Ireland (ed.): *The Near East: Problems and Prospects*. Chicago, 1942. 266 p.
7. Gearge Lenczowski: *The Middle East in World Affairs*, New York, 1952.
8. Roderic Mathews and Matta Akrawi: *Education in Arab Countries of the Near East*. Washington, 1949.
9. E. A. Speiser: *The United States and the Near East* Second edition. Cambridge, Mass, 1950.
10. T. Cuyler Young (ed.): *Near Eastern Culture and Society*. Princeton, 1951.

## ملحق الصور



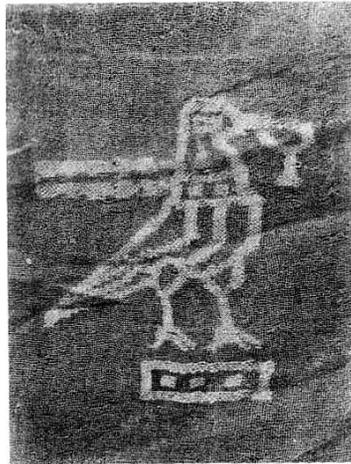
١- طراحتة أسقفية أصلها طراحتة إسلامية من العصر المملوكي،  
وهي مطرزة بكلمتي السلطان العالم



٢- قطعة من القماش تصور الخليفة الفاطمي المستعلى ووزيره الأفضل،  
وهي الآن رمز قداسة عند المسيحيين



٢- اسطرنائية للعشاء الرياني جزؤها  
الأعلى حليّة فاطمية من البللور الصخري



٤- قطعة من قماش إسلامي إيراني شفاف،  
لحفظ طرحه أثريّة من مخلفات العذراء



٥- وعاء فاطمي من البللور الصخري  
بكتدرائية القديس مرقس  
بمدينة البندقية، لحفظ الدم المقدس



٦- أشكال من الخط الكوفي محفورة في باب كتدرائية



٧- أشكال من الكتابة العربية منقوشة في هالة العذراء



٨- سجادة إسلامية ذات أشكال هندسية في تصوير فلمنكي من القرن الخامس عشر الميلادي



٩- سجادة إسلامية ذات رسوم حيوانية في تصوير إيطالي  
من القرن الخامس عشر الميلادي



١٠- نقوش إسلامية في صينية مصنوعة بمدينة البندقية



١١- تقليد أوروبي لصناعة التكفيت



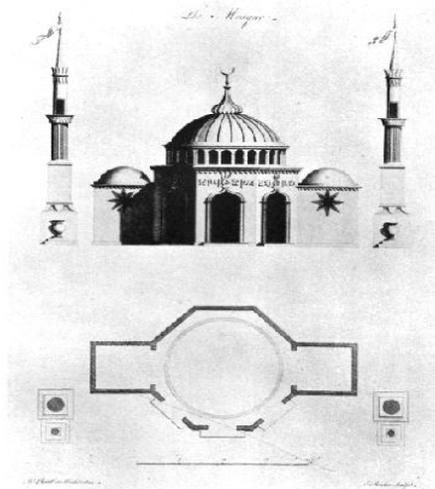
١٢- زخرفة من أصول استعمالها هولباين الألماني  
في زخرفة الأواني والأقداح



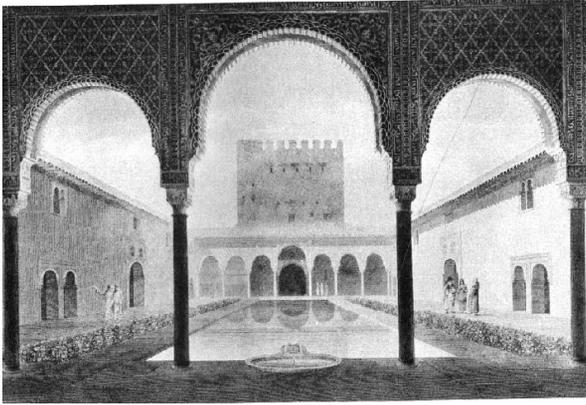
١٣- زخرفة تركية شبيهة بزخرفة هولباين الألماني



١٤- صورة من عمل رمبراندت الهولاندي دالتة على معرفته  
واعجابه بالتصوير الإسلامي في البلاط المغولي التيموري بالهند



١٥- الفن المعماري التركي في نظر الفن المعماري  
الانجليزي في القرن الثامن عشر الميلادي



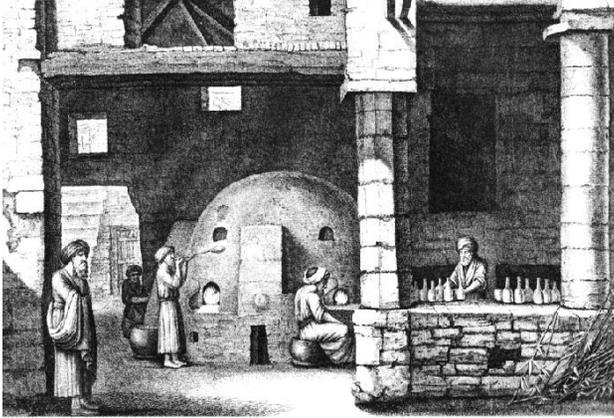
١٦- يقظلة الدوائر الفنية الأوروبية لجمال الفن المعماري الاسلامي  
في الصحن الكبير بقصر الحمراء بمدينة غرناطة



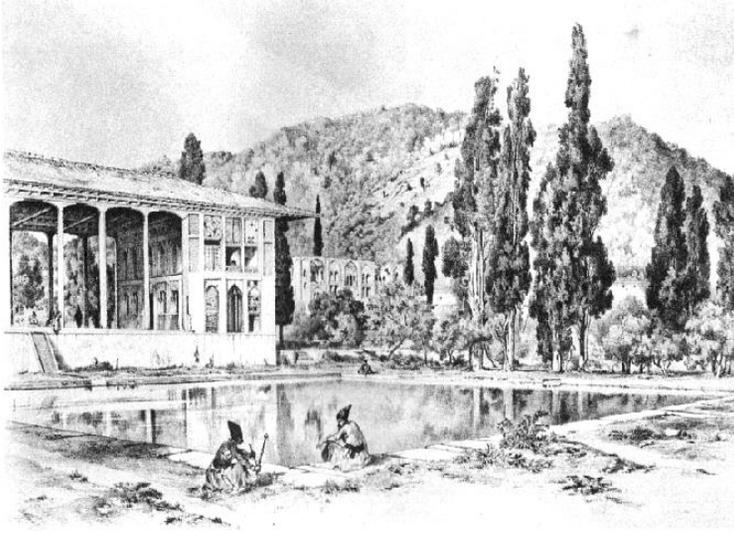
١٧- نظرة رومانتيكية إلى نموذج شهير من نماذج المعمار  
الاسلامي بمسجد الجمعة بمدينة قرطبة



١٨- تسجيل الآثار المعمارية الإسلامية في مصر بأمر نابليون



١٩- تصوير أوروبي لصناعة الزجاجية في مصر أوائل القرن التاسع عشر الميلادي



٢٠- تصوير أوروبي للقصور والبساتين الإيرانية أواخر القرن التاسع عشر الميلادي



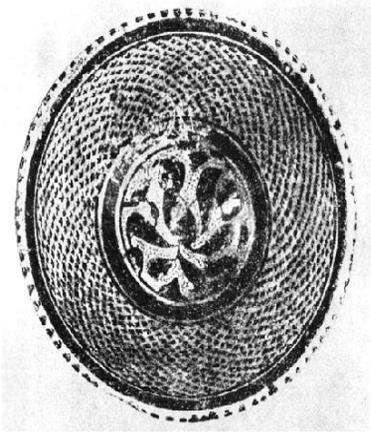
٢١- تصوير جوي لمدينة الرافقة على نهر الفرات من القرن الثامن الميلادي، وهي شكل حداثة الفرس



٢٢- تصوير جوي لميدان بمدينة سامرا عاصمة العباسيين  
في القرن التاسع الميلادي، والميدان شكل ورقة برسيم  
وسطه مكان العظماء من المتفرجين



٢٣- تصوير جوي لمسجد بمدينة اصفهان يشرح البناء الأصلي والزيادة



٢٤-٢٥- آثارفنيية من سراي بركة عاصمة القبيلة الذهبية المغولية، وهي مدينة أشرية  
مهملة تقريبا على نهر الضولجا



## الفهرس

- تقديم ..... ٥
- الفصل الأول: حضارة الشرق الأوسط للثقافة الغربية..... ١٠ - ٧٩  
تأليف: جورج سارتون، ترجمة: عمر فروخ
- الفصل الثاني: الفنون والآثار الإسلامي ..... ٨٠ - ١٣٤  
تأليف: رتشارد اتنجهاوزن، وترجمة محمد مصطفى زيادة
- الفصل الثالث: السياسة الدولية في الشرق الأوسط ..... ١٣٥ - ١٧٠  
تأليف: كوينسي رأيت، ترجمة: جعفر خياط
- الفصل الرابع: تطبيق مشاريع التنسي في الشرق الأوسط..... ١٧١ - ٢١٨  
تأليف: فيلكس بوشنسكي ووليم دياموند، ترجمة: جعفر خياط
- الفصل الخامس: دروس من الشرق الأوسط ..... ٢١٩ - ٢٤٠  
تأليف: روجر سولتو، ترجمة: عمر فروخ
- ملحق الصور ..... ٢٤٢